صدى القرآن

مجلة قرآنية . ثقافية . اجتماعية . فصلية

تصدر عن
دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإشراف العام
سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي
المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة

الإشراف الإداري
الشيخ حسن المنصوري
م. دار القرآن الكريم

رئيس التحرير
أ.م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي
جامعة كربلاء

مدير التحرير
الشيخ ضياء بلاسم سعدون
دار القرآن الكريم / قم المقدسة

سكرتير التحرير
الشيخ علاء حسين النعماني
دار القرآن الكريم

الهيئة الاستشارية
السيد رياض الحكيم
السيد محمد علي الحلو
أ.د بلاسم عزيز شبيب
د. الشيخ عماد الكاظمي

المقوّم العلمي
السيد مرتضى جمال الدين
م. مركز البحوث والدراسات القرآنية
دار القرآن الكريم

التدقيق اللغوي
د. مجيب سعد / جامعة كربلاء

التنسيق والعلاقات العامّة
د. حميد جاسم الغرابي / جامعة كربلاء
الحافظ منتظر حسن المنصوري
م. مركز التبليغ القرآني الدولي

التصميم والإخراج الفنّي
أسامة جبار

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٨٢٧ لسنة ٢٠١٣م

ضوابط النشر

١-تُنشر المجلّة الأبحاث العلمية التي تعنى بالشأن القرآني، والملتزمة بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها علمياً.

٢- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (٢٠) صفحة A4، وأن لا يقل عن (١٥) صفحة.

٣-تقديم ملخص للبحث في صفحة مستقلّة، على أن يحتوي كلّ ملخص على عنوان البحث واسم الباحث، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني).

٤-تكون هوامش البحث في أسفل كل صفحة بالطريقة الآتية: (اسم الكتاب، المؤلف، اللقب: ج...، ص...)، ويزوّد البحث بقائمة المصادر مستوفاة التفاصيل في آخره.

٥- أن لا يكون البحث قد نُشر في أيّ كتابٍ أو مجلةٍ أو موقعٍ الكتروني.

٦- الأفكار التي ترد في الأبحاث تعبِّر عن رأي كاتبها.

٧-تُرسل الأبحاث على البريد الإلكتروني أدناه، أو تُسلّم إلى أسرة المجلّة.

(sadaalqurandq@gmail.com) كربلاء المقدسة

(im.hu.qu@gmail.com) قسم المشرّفة

المحتويات

١ الافتتاحية ٩

٢ الشبهات اللّغوية والأدبيّة حول القرآن المتأثرة بجغرافية عرب الجاهليّة (ق١)
د. سعد عبد الرضا رويّض الغنّامي/ كليّة أصول الدين ـ قم المقدسة ١١

٣ تأويل القرآن الكريم في التراث الإسلامي
يعقوب حسن بريد الميالي / ماجستير في التفسير وعلوم القرآن ٤٥

٤ جذور تدوين القرآن الكريم
الشيخ محمد جبار منصور البهادلي / أستاذ في الحوزة العلمية ـ قم المقدسة ٧٥

إضاءات قرآنية حول موضوع الفتنة
السيد محمد خلف علي الموسوي الشوكي / ماجستير تفسير وعلوم قرآن ٥ ١٠٧

تربية الأولاد وتعليمهم في القرآن الكريم
الشيخ طالب غاتي المنصوري / باحث وأستاذ في الحوزة العلمية ٦ ١٣١

التعايش السلمي وأثره في بناء المجتمع (رؤية قرآنية)
الشيخ عبد السلام عبد الحسن مجيبل الحسن / باحث إسلامي ٧ ١٥١

منهج التفسير الانتزاعي للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام
الدكتور فارس علي حسن العامر / جامعة المصطفى العالمية ٨ ١٧٥

السماحة الإلهية في القرآن الكريم والإرهاب البشري في التوراة المحرّفة
سعيد كاظم سعيد العذاري / باحث اسلامي ٩ ١٩٩

خصائص وصفات المبلّغ والداعية في القرآن الكريم
السيد أيوب جواد الموسوي / باحث إسلامي ١٠ ٢٢٩

أثرُ القرينة في تحديد المعنى القرآني
م.د. جاسم فريح دايخ الترابي / جامعة واسط - كلية التربية ١١ ٢٦١

الافتتاحية

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين وصحبه الغرّ الميامين، السلام على الحسين، وعلى اولاد الحسين، وعلى اصحاب الحسين، والذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام، ثم السلام على قرّاء (صدى القرآن).

قال الله عز وجل ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ الكهف / ١٠٩.

انطلاقا من هذه الآية المباركة التي بينت ان كلمات الله عز وجل لا نفاد لها، لأنها نابعة من المطلق الذي لا نهاية له، فلسان الآية يملي علينا مسؤولية النهوض بهذا الثقل المعرفي الذي يحتاج الى ابراز الى العالم وازجاء معانيه الى كل طالب حقيقة، من خلال الوقفات التدبرية والتأملية للآيات القرآنية الممزوجة بتراث اهل البيت عليهم السلام، التي تعالج كل نواحي الحياة، إذ يمثّل القرآن الكريم دستور الحياة ومنهاج الفوز بالسعادتين، وهذا لا يكون الا من خلال تقنين تلك المعاني القرآنية والافادة منها ومن الثقل الآخر (أهل البيت)، وتكون هذه العملية نابعة من حاجة الناس الى ما ينظم حركتهم وفق المنظور القرآني، لان هذا النعيم الذي لا ينضب يحتاج الى من يغوص في اعماقه والخروج بجواهره التي ترتقي بالإنسان وايصاله الى ذروة المجد، واستشعار لهذه الحاجة والمسؤولية تحرص مجلة (**صدى القرآن**) على حث الباحثين على تثوير القرآن واستخراج مكنوناته، ونشر ما جادت به أنامل الباحثين من نتاج فكري يبرز لنا عظمة هذا

القرآن، الذي سلط نوره على كل ركن من اركان الحياة لتكون حياة مشرقة، وليخرج الناس من الظلمات الى النور، ونحن اليوم تغمرنا سعادة لا توصف بهذا الحصاد المعرفي بصدور العدد (الثالث عشر)، الذي يسعدنا ان نقدمه للقارئ الكريم لتتجلى فيه عظمة هذا القرآن، إذ سيلحظ القارئ في هذا العدد موضوعات هي من الاهمية في مكان من حياتنا، فان بحوث هذا العدد تنوعت بين رد مجموعة من الشبهات التي تثار حول القرآن واعجازه، واخرى تعالج قضايا اجتماعية، واخرى غاصت في عمق التاريخ لبحث تاريخية التدوين، واخرى تربوية، واخرى مقارنة بين القرآن والكتب السماوية، فهذا التنوع خير دليل على هيمنة الكتاب العزيز واعجازه.

وفق الله الباحثين الى مزيد من البحوث النافعة والجادة، ووفق الله العاملين في دار القرآن الكريم لخدمة القرآن، والحمد لله من قبل ومن بعد، وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين وصحبه الغرِّ الميامين.

رئيس التحرير

١

الشبهات اللّغويّة والأدبيّة حول القرآن المتأثرة بجغرافية عرب الجاهليّة (ق١)

د. سعد عبد الرضا رويّض الغنّامي
كليّة أصول الدين ـ قم المقدسة

مقدمة

لم ينفك إبراز العداء للقرآن للكريم عن اللحظة الأولى لنزول الوحي، فهي خصومةٌ قديمةٌ حديثةٌ، انطلقت شرارتها قبل تحدّي القرآن لهم وبعده، وقد سلك أولئك المخاصمون من مشركي مكّة طرقاً شتّى من الافتراء، فزعموا أن القرآن سحرٌ يؤثر، وأنَّه قول البشر، وأنَّه أساطير الأوليّن، وأنَّه شعرٌ، ثم وصلت الاتهامات إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله، فقالوا عنه: ساحرٌ مجنونٌ، وأنَّه شاعرٌ، وقد ردَّ عليهم القرآن الكريم وفنَّد مزاعمهم، محتجّاً عليهم بالمنطق والعقل.

والهجمة المعاصرة على القرآن الكريم أشدُّ ضراوة من كلّ ما سبق، وذلك من خلال الفضائيات والشبكة العنكبوتية، فجاءوا بتهمة زائفة وهي: تهمة الأخطاء اللّغوية والنحويّة في القرآن، وسوّقوها في مقالات ودراسات ومن خلال الإعلام المرئي والمسموع.

إن المدّعين للباطل سوّقوا لمقولةٍ يمكن التعبير عنها وصياغتها بـ (بين تأثير القرآن وتأثّره)، وتأثير القرآن الكريم في البيئة التي نزل فيها حق ظاهر، وأما تأثّر القرآن بهذه البيئة وإفادته منها، وظهور آثار هذا في مضامينه وأسلوبه، فأمر باطل.

لقد كان القرآن الكريم مرآة واضحة الرؤيا لعصره، تامّة الصفاء، وذلك حين سجَّل الأحداث، ورصد تصرّفات الناس، وقدّم حلولاً وصحّح مفاهيم، وقوَّم اعوجاجاً في مناحي الحياة كلّها، فأخذ تأثيره في جميع حياة المؤمنين به.

وأما الجزء الآخر من المقولة، وهو تأثّر القرآن بأحداث العصر، وبثقافة أهله وإفادته من هذا كلّه؛ يعني أنه كان متأثّراً بالبيئة، لا مؤثّراً فيها، وهو ما توهَّمه المستشرقون - عامة المستشرقين - وزعموه، أمثال: نولدكه، وجولد تسيهر، وبلاشير، وغيرهم ممن تابعهم على ذلك.

هذه المقولة التي ساقها هؤلاء تؤكد بجلاء أن أهل مكّة حين كفرهم كانوا أكثر احتراماً لأنفسهم، من هؤلاء الذين يدَّعون العلم والموضوعية.

ولم نسمع أنّ أحداً من كفّار مكّة قال هذه المقولة، مع أنهم كانوا في بداية الإسلام يقولون ما يقوله اليوم المستشرقون بأن القرآن الكريم ليس وحياً.

وجاء هذا البحث كمحاولة لردع زيف المشكّكين والمتخذين من شبهة الأخطاء اللّغوية والنحويّة والأدبية في القرآن منطلقاً للتشكيك بكتاب الله تعالى والمساس بعقيدة المسلمين، ولا سيما أن منهم من لا يمّلك المعرفة الكافية بالقواعد اللّغوية العربية العامة.

وهنا لابد من الإشارة إلى بعض النكات التي ينفرد بها هذا البحث:

أولاً: إن شبهات المستشرقين - اللّغوية والأدبية - التي سنشير إليها حول القرآن الكريم لا يجمعها مصدر علمي واحد، وإنما وجدناها متناثرة ومتفرّقة في العديد من المراجع والمباحث، وغالباً لم تسعفنا هذه المراجع في نسبة هذه الآراء لأصحابها.

ثانياً: لم نعتمد كثيراً في إجابات الشبهات على قول علماء أهل اللّغة بالخصوص، وإنما لجأنا لأهل التفسير والمفسّرين؛ وذلك لاعتقادنا أنَّ المفسّر هو أجمع للّغة والقرآن، وأما اللغوي، فهو صاحبُ لغةٍ فقط.

المحور الأول: وفيه:

أولاً: موضوع البحث وأهميته

القرآن هو كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله بواسطة الوحي الإلهي، بلسان عربي مبين، وهو معجزة النبي بإعجازه اللّفظي والمحتوائي، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل، المصون عن كلّ تحريفٍ، والمرجع في الأصول والفروع والمعارف والأحكام، وقد نزل نجوماً متدرجاً في مدة ٢٣ عاماً، وقد أبلغه النبي صلى الله عليه وآله لقومه بتمامه وكماله، لا تحدّه الزمكانية، ولا تؤطّره الحدود الجغرافية، فهو لكلّ العالمين، وليس لقوم دون آخرين، والأدّلة قائمة على أن القرآن كلام الله تعالى، وأنَّ ألفاظَه ومعانيه وحي إلهي، نزلت بواسطة الملِك الأمين - جبرائيل - على النبي صلى الله عليه وآله، ولكن نجد المتربصين بالإسلام لم يألوا جهداً في الطعن بالقرآن مذ أول نزوله إلى يومنا هذا.

وأخذت عملية الطعن بالقرآن بالتنوّع من حيث الصياغات وتفريع الفروع والتشقيقات، ومن ثمَّ الترويج لها، فتارة نراها تظهر بصياغة بشريّة القرآن وأنَّ مصدره النبي ذاته، وأخرى أنَّه أخذه من الآخرين كالديانات السابقة ورجالها، وثالثة تأثّره بالشعر الجاهلي وبلغة أهل زمانه.

ويمكن أن نلحظ أهمية هذا البحث في عوامل عدة تشكّل مع بعضها الهدف الأساس:

١. **أهمية البحث القرآني:** للبحث القرآني قيمة بحدّ ذاته، فإنَّ تناول الأبحاث القرآنية على جميع المستويات وفي شتّى النواحي يمثّل نوعاً من الاهتمام بهذا الكتاب الإلهي.

٢. **وجوب الدّفاع عن القرآن:** إذ يلزم الوقوف من أجل خدمة القرآن الكريم، ونشر معارفه، وبيان عظمته، من خلال دفع الشبهات التي تريد النيل من قدسيته لدى المسلمين، وهو واجب شرعي كفائي ـ والسعي بإخلاص لتسفيه المعارضين بالحجج والبراهين، وتقوية إيمان المسلمين.

٣. **التصدّي للشبهات:** وهذا تارة يكون بعد صدور الشبهة وتداولها ووصولها لعموم الناس، وأخرى في بدء نشوءها، فيتمحور التصدّي في:

أ. التصدّي للشبهات العلمّية، والمساهمة في بناء الصرح المعرفي وإثراء العلوم البشرية.

ب. قطع الطريق على الأعداء، ووئد الشبهة في مهدها.

٤. **التعريف بواقع الفكر الجديد والشبهات المطوية بين السطور:** ولا سيما بعد الثورة التكنولوجية الهائلة في عالم المعلومات.

٥. **قلّة الدراسات النقديّة، والحاجة إلى تأسيس أبحاث جديدة باتجاهات حديثة.**

٦. **يتكفّل هذا البحث ـ بعد التعريف بهذه المسائل ـ توجيه الباحثين نحو التوسّع فيه، وتلافي مكامن الضعف، ودراسته من أوسع أبوابه.**

ولم أعثر على كتاب مستقل تناول موضوع هذا البحث، نعم قد تدرج هذا الشبهة وجوابها في ضمن بعض الكتب التي كانت بصدد الذود عن القرآن والدفاع عنه، ولا سيما العناوين التي تناولت اللهجات في القرآن الكريم، والمفردات الدخيلة والأجنبية فيه.

ثانياً: تعريف المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالبحث:

نودّ أن نشير هنا إلى أهم الاصطلاحات والمفاهيم التي وقعت في عنوان هذا البحث:

الشبهة لغة واصطلاحاً:

«شُبهة [مفرد]: الجمع: شُبُهات وشُبْهات وشُبَه»[١].

تدور كلمات اللغويين عند بيان معنى الشبهة حول المماثلة والمشاكلة والإلتباس، ونقتصر هنا على كلام الفراهيدي (ت: ١٧٥هـ): «في فلان شبه من فلان وهو شبهه وشبهه، أي: شبيهه. والمشبّهات من الأمور: المشكلات، وشبه فلان علي، إذا خلط. واشتبه الأمر، أي: اختلط. ورأيتك مثله في الشبه والشبه، وفيه مشابه من فلان، ولم أسمع: فيه مشبهة من فلان. وتقول: إني لفي شبهة منه. وحروف الشين يقال لها: أشباه، وكلّ شيء يكون سواء فإنها أشباه»[٢].

نستخلص ممّا تقدَّم أنَّ مادة (شبه) في اللّغة تفيد معنى المماثلة والمشاكلة المؤدية إلى الإلتباس والاختلاط في الفهم، بمعنى أنَّ هذا يشبه هذا، أي: ماثله وشابهه حتى التبسا.

وأما المعنى الاصطلاحي للشبهة، فيمكن العثور عليه في ضمن دائرة أربعة من البحوث: البحث الفقهي، والبحث الأصولي، والبحث الكلامي عند علماء العقيدة، فضلاً عن البحث المنطقي.

أما عند الفقهاء فيعني: ما التبس أمره، فلا يعلم أحلال هو أم حرام، صحيح أم فاسد[٣].

وأما عند الأصوليين فيعني: التردد بين الحلال والحرام، وقيل هو ما لم يتيقّن كونه حراماً أو حلالاً[٤].

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار: ج٢، ص١١٦٢.
(٢) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، كتاب العين، ج٣، ص ٤٠٤. (بتصرف).
(٣) ينظر: معجم ألفاظ الفقه الجعفري، أحمد فتح الله: ص ٢٤٠.
(٤) ينظر: القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين، محمود حامد عثمان: ص١٨٦.

وأما عند المناطقة فيعني: الشبهة هي أن يؤلّف الذّهن دليلاً فاسداً يناقض بدهيةٍ من البدهيّات، ويغفل عمّا في الدليل من المغالطة، فيشكّ بتلك البدهية، أو يعتقد بعدمها[٥].

وأما عند المتكلمين فيعني: الشبهة في العقيدة المأخذ الملَّبس، سميت شبهة لأنَّها تشبه الحق[٦].

واصطلاح الشبهة عند المتكلّمين قريباً في معناه من الاصطلاح المراد لنّا في هذا البحث، وهو الشكوك التي توقع في اشتباه الحق بالباطل، فيتولّد عنها الحيرة والشكّ والإرتياب.

ومن الملفت أنَّ اصطلاح الشبهة أخذت معنى واحداً في بعض معاجم الأصوليين والفقهاء، بمعنى أنَّ كلاً منهم يجرَّها إليه ويدّعي حيازتها، وإنَّ بعضهم الآخر منهم أصفح عن ذكرها، وأعرض عن الإتيان بها؛ اعتقاداً منه لعدم دخولها في حيطته.

الاستعمال القرآني للشُّبهة

ورد لفظ (الشُّبهة) ومشتقاتها في القرآن الكريم إثني عشرة مرة في تسع آيات وست سور[٧]، قال الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ): «الشُّبْهَةُ: هو أن لا يتميّز أحد الشّيئين من الآخر لما بينهما من التّشابه، عيناً كان أو معنى»[٨].

ومما تقّدم نلحظ أنَّ الآيات قد دارت حول معنى التماثل والإلتباس.

والمختار من اصطلاح الشُّبهة: هو أن لا يتميّز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه.

(٥) المنطق، محمد رضا المنظفر: ص٢٢.
(٦) ينظر: المصباح المنير، أحمد الفيومي: ص٣٠٤.
(٧) الموضع الأول: سورة البقرة: ٢٥. الموضع الثاني: سورة البقرة: ٧٠. الموضع الثالث: سورة البقرة: ١١٨. الموضع الرابع: سورة آل عمران: ٧. الموضع الخامس: سورة النساء: ١٥٧. الموضع السادس: سورة الأنعام: ٩٩. الموضع السابع: سورة الأنعام: ١٤١. الموضع الثامن: سورة الرعد: ١٦. الموضع التاسع: سورة الزمر: ٢٣.
(٨) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٤٤٣.

والمراد بالشُّبهات في هذا البحث: هي الآراء والشكوك والأكاذيب التي يعرضها المشكّكون والمستشرقون في دراستهم المتعلّقة بالقرآن الكريم في خصوص القضايا اللّغوية والأدبية، ومن ثمّ الصيرورة إلى إثارة الافتراء والارتياب حول المصدر الأول للدعوة الإلهية وهو القرآن الكريم وصولاً إلى كتمان حقيقة وحيانية القرآن الكريم.

الأدب: المختار هنا هو الأدب الوصفي الذي هو إحدى الدراسات التي تدور حول الكلام واتجاهاته ونواحي الجودة فيه. ومرادنا من اللّغة هنا هو اللّغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

القرآن: هو كلام الله المنزل على النبي محمدﷺ بواسطة الوحي الإلهي، وهو المعجزة الخالدة بمعارفه وأحكامه، الذي لا يأتيه الباطل ولا يعتريه الشك.

الجغرافية: يقصد بها حدود التضاريس المكانية من حيث حيّز المكان الجغرافي في النص القرآني، وحيّز التتابع المكاني له، وفقاً للرؤية المطروحة، وعلاقة كلّ منهما بالحدث واللّغة.

الجاهليّة لغة واصطلاحاً:

الجاهليّة في اللّغة مصدر صناعي مأخوذ من الجاهلي نسبة الى الجاهل المشتق من الجهل[٩]، وهي من مبتكرات القرآن الكريم كما حكاه السيوطي[١٠] (ت: ٩١١هـ).

ولم يكن لفظ الجاهليّة إلا اصطلاحاً قرآنياً جاءت به الآيات القرآنية، ثم جاء في لسان الأحاديث والروايات، وراج استعماله في الكلمات، ولم يكن يراد به إلا مرحلة ما قبل الإسلام، ولا نريد

(٩) ينظر: فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية محمود الآلوسي: ص٣١؛ معجم اللغة العربية المعاصرة أحمد مختار عثمان: ج١، ص٤١٤.

(١٠) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي: ج١، ص٢٤٠.

هنا الخوض في تحديد بداية وقت العصر الجاهلي وما يهمنا منها هو المرحلة الزمنية السابقة على نزول القرآن، والتي أطلق القرآن الكريم عليها لفظ الجاهليّة.

قال جواد علي: و «الجاهليّة» اصطلاح مستحدث، ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق على حال قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من إطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها وتتمكّن منها، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها أيضًا بتسميات جديدة»[١١].

(١١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي: ج١، ص ٣٧.

وينبغي التنبيه على أننا نريد دراسة اصطلاح الجاهليّة لا اصطلاح الجهل الذي له ارتباط بعلم المنطق والكلام.

الاستعمال القرآني للجاهليّة

وردت مادة (جهل) في أربع وعشرين آية في القرآن الكريم، ترددت فيها صيغ (تجهلون) و(يجهلون) و(الجاهل) و(جاهلون) و(الجاهلين) و(جهولاً) و(جهالة) و(الجاهليّة).

وأما لفظة (الجاهليّة)، فقد وردت في أربع آيات، ولم ترد هذه اللفظة في الشعر الجاهلي، إنما هي صيغة أوجدها القرآن الكريم، وانتشرت فيما بعد لتكون علماً على المرحلة التي سبقت نزول القرآن.

اتفقت الكلمة على أنَّ مفردة الجاهليّة اصطلاح قرآني يراد به المرحلة التي سبقت الإسلام، ولكن وقع الاختلاف في تفسير هذه المفردة، وقد تعددت الآراء في تفسير معناها:

التفسير الأول: أنَّ الجاهليّة من الجهل بمعنى نقيض العلم، وهي أن تفعل فعلاً بغير العلم، كالذي تقدّم في المعنى اللغوي.

التفسير الثاني: أنَّ مصطلح الجاهليّة الذي اعتمده القرآن الكريم مستمد من الجهل بمعنى السفه والطيش والإعراض وليس من الجهل الذي هو ضد العلم[١٢].

التفسير الثالث: أنَّ الجاهليّة في الاستعمال القرآني والديني تعني مجانبة الحق، والجهل بالله وشرائع دينه، وإتباع الهوى، والزيغ والضلالة وفساد الرأي.

قال جواد علي: «إنَّ الجاهليّة من السفه والحمق والأنفة والغضب وعدم الانقياد لحكم شريعة وإرادة إلهية»[١٣].

التفسير الرابع: قد عدَّ الجاهليّة صفة لطائفة من الناس دون غيرها، هي طائفة المشركين، قال الطاهر بن عاشور: «واحسب أن لفظ الجاهليّة من مبتكرات القرآن وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل وترغيباً في العلم»[١٤].

التفسير الخامس: قد عدَّ الجاهليّة منهجاً مقابلاً للإسلام، وهذا رأي بعض الكُتّاب المعاصرين. قال محمد مهدي شمس الدين: «ليست الجاهليّة كما جرت العادة على استعمالها في كتب الأدب والتفسير صفة تختص بالعرب قبل الإسلام لا يشترك فيها معهم أحد غيرهم قبل الإسلام ولا بعده وإنما يراد بها النهج المقابل للإسلام لما يتّسم به هذا النهج الحياتي من إلحاد ومادية وإغراق في الشهوات»[١٥][١٦].

(١٢) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي وبين لغة القرآن الكريم، عودة خليل: ص١٥٠.

(١٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي: ج١، ص٤٠.

(١٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ج٤، ص١٣٦.

(١٥) ينظر: بين الجاهلية والإسلام، محمد مهدي شمس الدين: ص٢٥٦.

(١٦) ينظر: مفهوم الجهل والجاهلية في القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد الينبعي: ص١٤٩-١٥٠.

الاصطلاح المختار:

يمكن اختيار معنى عام ينسجم مع جميع التعاريف التي ذكرت فيكون معنى الجاهليّة: هو عدم العلم الملازم للسفة والحمق، وعدم الانصياع للشريعة الإسلامية والانقياد لها. وهذا المعنى العام ينسجم مع المعنى اللغوي والاصطلاحي وكذلك مع الآيات القرآنية والأحاديث والروايات والشواهد التاريخية.

ولفظ الجاهليّة وإن كان في الأصل صفة، فقد غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً، ومعناه قريب من المصدر.

فالجاهليّة من حيث كونها اسماً لزمن تُطلق على المرحلة التي كانت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله ولا تطلق على زمن بعد هذه البعثة. أما من حيث كونها صفة، فقد يوُصف بها بلد غير إسلامي، وقد يوُصف بها الشخص قبل أن يسلم، وقد يوُصف بها شخص مسلم توجد فيه صفات الجاهليين، فهو جاهلي وإن كان من أهل الإسلام[١٧].

(١٧) ينظر: في تاريخ الأدب الجاهلي، الجندي علي: ص٨.

ثالثاً: الواقع اللغوي والأدبي للعرب قبل الإسلام

في الجزيرة العربية حدثت هجرات بشرية، فهاجر من هاجر من أهل اليمن إلى وسط شبه الجزيرة وشرقيها وشماليها، وهاجر من هاجر من أهل الحجاز إلى اليمن، وتجاورت لهجات مع لهجات ومع لغات أخرى، فلهجات القبائل العربية التي كانت تنزل بادية الشام أو العراق مثلاً كانت تجاور لغات كالآرمية والعبرية والاحتكاك معها أدّى إلى ظواهر لهجيّة سيأتي التعرّض لها.

ولكن ما هي هذه العربية؟ ومن أول من تكلّم بها؟

لا اعتقد أن الجواب يعنينا في شيء، وإنما الذي يعنينا هو تلك اللّغة الواضحة المعالم في هذه النصوص الكثيرة التي تنتظم فيما تنتظم شعراً تعارفوا على تسميته بالشعر الجاهلي، وتنتظم أيضاً نثراً يتمثل في خطب وأمثال.

وهذه اللّغة فيما نعلم وفيما تؤكده طبيعة الأشياء لم تكن لغة متوحّدة توحداً كاملاً، بل كانت لها لهجات كثيرة تختلف فيما بينها اختلافاً يكبر أو يصغر حسبما يكون بينها من تقارب أو تباعد نتيجة طبيعية لأسباب جغرافية واجتماعية، وحصول الاختلاط والاحتكاك بسبب الحروب والغزوات والهجرات والتجاور، لكن هذه اللهجات المختلفة لم تكن تمنع من وجود لغة مشتركة عامة يصطنعها أصحابها فيما يعن لهم من فنٍ أو من جدّ القول.

والذي نراه موافقاً لطبيعة التطوّر اللغوي، وهو أنَّ شبه الجزيرة العربية كانت بها لهجات كثيرة مختلفة تُنسب كلُّ لهجة منها إلى أصحابها، وإلى جانب هذه اللهجات كانت هناك لغة عربية مشتركة تكون على مرّ الزمن، وهذه اللّغة المشتركة لا تنسب إلى قبيلة بذاتها لكنها تنسب إلى العرب جميعاً ما دامت النصوص الشعرية والنثرية لا تكاد تختلف فيما بينها، وهذه النصوص ليست قرشيّة أو تميميّة أو هذليّة فقط، بل هي من قبائل مختلفة مما يدُّل على أنَّ هذه اللّغة المشتركة هي التي كان الأدباء يصطنعونها في فنّهم القولي.

ومع وجود هذه اللّغة المشتركة احتفظت اللهجات المختلفة ببعض خصائصها[١٨].

(١٨) ينظر: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي: ص٣٧ وما بعدها.

المحور الثاني: وفيه:

أولاً: العلّة في نزول القرآن باللّغة العربية

لا يخفى الجواب كثيراً عن ذهن أي سامع عندما يطلب منه الإجابة عن سؤال مفاده: ما هي علّة نزول القرآن باللّغة العربية من دون غيرها من اللغات؟

ولكن قبل بيان العلّة والسبب في نزول القرآن الكريم باللّغة العربية لابد من طرح سؤال: بأيّ لهجة نزل القرآن الكريم؟ هل نزل بلهجة قريش أم بلهجات العرب، أم جاء بغيرهما؟

اختلفت الأقوال وتعددتْ في اللّهجة التي نزل بها القرآن، وتباينت آراؤهم، وتعددت المؤلفات والكتب التي عالجت هذا الموضوع قديماً وحديثاً، وقد ازداد الأمر تعقيداً، بدلاً من أن ينتهي الخلاف فيه، وأما الأقوال، فهي على نحو الاختصار:

القول الأول: نزول القرآن بلغة قريش ولهجتها فحسب. واستندوا برأيهم هذا على الروايات.

القول الثاني: نزول القرآن باللّغة الأدبية - لغة الشعر والنثر. وهذا هو قول علماء اللّغة المحدثين.

القول الثالث: نزول القرآن بجميع لغات العرب. واعتمدوا على آيات من القرآن الكريم.

القول الرابع: نزول القرآن على سبع لغات[١٩].

والذي نختاره: هو نزول القرآن بلغة عربية مشتركة بين القبائل، وهذه اللّغة المشتركة لا تُنسب إلى قبيلة بذاتها لكنها تُنسب إلى العرب جميعاً ما دامت النصوص الشعرية والنثرية لا

(١٩) ينظر: لغة القرآن الكريم، عبد الجليل عبد الرحمن: ص٤٢ وما بعدها.

تكاد تختلف فيما بينها، ومع وجود هذه اللّغة المشتركة احتفظت اللهجات المختلفة ببعض خصائصها.

وسبب نزول القرآن بهذا اللسان العربي، هو: أن الوجود المعرفي الهائل في هذا القرآن لا يظهر للمكلّفين في هذه الأرض إلاّ بوساطة لغة تستوعبه بأيسر تفهيم وأليق عبارة إتماماً للحجّة عليهم، وإبلاغاً للمعرفة إليهم، إنقاذاً لهم من حيرة الجهالة. فأودع الله تعالى في مفردات اللّغة العربية وتراكيبها طاقة دلالية متّسعة، وأفقاً بيانياً مترامياً متحرّكاً بعنفوان خلت منه اللغات الأُخر؛ إذ من الواضح أنَّه ليس اختياراً عشوائياً أو محض صدفة، وإنَّما نزل بلغة عربية لأنه أنزل في مهد العرب، ومن المستبعد أن ينزل بغيرها، وبلغة لا يفهمونها، ومن هنا يمكن القول: إنّ العلّة تارة تكون خارجية بلحاظ الجغرافية والمحيط الذي نزل فيه القرآن، وأخرى تكون علّة داخليّة بلحاظ مقوّمات اللّغة العربية وما تميّزت به من دون سائر اللغات، وذلك لما تتمتع به من مقوّمات اللّغة الحيّة وعناصر قوّتها واستمرارها، من حيث وفرة مفرداتها بالأصالة والاشتقاق، أو بالحقيقة والمجاز، أو من حيث قبولها للتطوّر والتقدّم الحضاري، أو من حيث مرونة أساليبها، وصلاحيتها لكلّ ما يراد منها، أو من حيث فصاحة ألفاظها وبلاغة تراكيبها، وقد أريد لهذا القرآن المنزل أن يبقى المعجزة الأبدية الناطقة بصدق هذا الدّين وبصدق رسوله.

ثانياً: خصائص القرآن البيانية

ذكر الزرقاني (ت: ١٣٦٧هـ) في كتابه (مناهل العرفان) بعض

خصائص أسلوب القرآن على وجه التمثيل والتقريب[٢٠].

وتتجلّى مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم في سبعة أمور:

الأول: الخصائص العامة للأسلوب القرآني.

يجري القرآن الكريم على نسقٍ غاية في البلاغة والفصاحة، خارجٌ عن المألوف من نظام جميع كلام العرب، فله أسلوب يختصّ به ويميّزه عن سائر الكلام. فلا هو بالشعر ولا بالنثر. ويمتاز باتساق عباراته وبلاغتها وبديع نظمه على كثرة سوره وطولها وقصرها، من غير أن تختلّ هذه المزيّة فيه.

الثاني: ضرب الأمثال في القرآن الكريم.

وقد اعتمد الأسلوب القرآني على ضرب الأمثال وجعله قاعدة أساس في التعبير عن المعاني.

الثالث: الإيجاز في القرآن الكريم.

من خصائص الأسلوب القرآني الإيجاز، وهو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة تؤدي الغرض من غير إخلال بالمعنى.

الرابع: التكرار في القرآن الكريم.

وهو من أساليب الفصاحة في اللّغة العربية لما ينطوي عليه من فوائد في الكلام. فإن كلام البلغاء لا يتكرّر عبثاً وإنما لفوائد ومعانٍ جديدة. ولمّا كان هذا حال كلام العرب، فكلام الله أولى بذلك فإنك لا ترى كلمةً أو آيةً تكرّرت إلا لحكمةٍ وفائدة.

الخامس: الكلمة القرآنية.

ولا أعني بذلك الكلمة والمفردة القرآنية المفردة، وإنما مكانة الكلمة في النظم القرآني المعجز: لأن قيمة المفردات

(٢٠) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني: ج٢، ص٢٤٢-٢٥٤.

ليست ذاتية وإنما تعود قيمتها إلى مكانها من النظم المعجز الأخّاذ، ومعلوم أن التحدّي لم يحصل بالكلمة بل أقل ما حصل بسورة.

السادس: الجملة القرآنية.

ما سبق قوله في الكلمة القرآنية نقوله هنا، وهو أن المقصود مكانة الجملة في النظم القرآني المعجز لا الجملة المفردة؛ لأن قيمة الجملة ليست ذاتية، وإنما تعود قيمتها إلى مكانها من النظم المعجز الأخّاذ، لذلك أقل ما وقع به التحدّي السورة لا الجملة.

السابع: الفاصلة القرآنية.

الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، ويلاحظ أن الفاصلة القرآنية تأتي مكمّلة للمعنى الذي قبلها ومناسبة له بحيث لو تغيّرت اختلّ المعنى... يدرك هذا كلّ من عنده ذوق أدبي[٢١].

ثالثاً: شبهة وجوابها

وقد يقال في خاتمة المطاف: إنَّ قضية الإعجاز البياني تضعنا أمام مشكلتين رئيستين، واجهت عصوراً قبلنا، كما تواجهنا نحن اليوم. وهما:

المشكلة الأولى: كيف يتمُّ فهم هذه القضية أمام انحدار السليقة العربية، أو أمام اختلافنا عن جيل التنزيل بوجه عام في باب اللّغة والبيان؟

والمشكلة الثانية: كيف يؤمن غير العرب، والتحدّي لا يشملهم مع أنّ الإسلام عامٌ لجميع الناس؟

(٢١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن الكريم أركانه ومظاهره، مجلة البحوث الإسلامية، ١٤٠٩هـ، العدد ٢٣، حسين مطاوع: ص٢٢٥.

والذين يتحدثون عن هاتين المشكلتين اليوم يريدون أن ننساق إلى الكلام عمّا يسمّونه «الإعجاز العلمي» أو «الإعجاز التشريعي»، وهي الأنواع التي تحل اليوم مشكلة العرب والعجم جميعاً حسب زعمهم.

ولا أظن أنَّ أحداً ينكر أن تكون مضامين القرآن من أهم وسائل تعميمه والدّعوة إليه، وأنها براهين ودلائل على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد . ولكنّا أنكرنا أن تكون مناط الإعجاز الذي وقع به التحدّي، ومن شاء أن يسمّيها «إعجازاً» من باب التجّوز فليفعل.

أما المشكلة الأولى، فقد أجيب عنها: بأن هذا الإعجاز إذا لزم الأوائل - وهم أهل البلاغة والفصاحة والبيان - فهو ملزم لسائر الأجيال من بعدهم من باب أولى، وأن حقيقة الإعجاز واقعةٌ على كلّ حالٍ، وإن عجزت بعض الأجيال عن إدراك سببه أو وجهه. ونحن نقول من وجهٍ آخر - ونرجو ألّا يكون فيه حيف أو تجاوز - : إن جيلنا اليوم قد يكون أقدر من أجيالٍ سابقةٍ كثيرة على إدراك بعض مناحي الإعجاز البلاغي، وما بين يدينا اليوم من تراث نقدي وأدبي في لغة العرب وسائر لغات العالم ينهض لإثبات هذا المدعى، ولعلنا نستطيع أن نقول: إن التراث النقدي والأدبي الذي نملكه الآن، ونستطيع من خلاله أن نقّوم النصوص الأدبية... ويفوق ما كان عليه الوليد بن المغيرة وغيره ممّن بهرهم القرآن.. فآمن بعضٌ.. ولجّ في العداوة والمكابرة والبغضاء بعضٌ آخر.

وأما المشكلة الثانية، وهي مشكلة غير العرب... فلا أدري هل ينتظر بعض الناس أن ينزل القرآن بكلّ لغات الأرض! ما كان منها، وما سيكون إلى يوم الدّين؟ وهل يتسق هذا مع طبيعة الأشياء، ومع طبيعة الإيمان الذي أراده الله تعالى من الإنسان؟

أليس في لغات العالم لغة هي مثال اللغات ينزل بها كتاب الله تعالى إلى الإنسان.

ولكن لنقل: يسع العجم ما وسع العرب، كما قال علماؤنا الأوائل .

كما في وسعنا أن نقيم الدليل لهؤلاء على أن هذا الكتاب الخالد هو كلام الله... من وجوه كثيرة على كلّ حال.

(٢٢) الانتصار للقرآن، الباقلاني: ج١، ص٥٣١.

المحور الثالث: وفيه:

أولاً: تحليل شبهة الأخطاء اللّغوية

في البدء أقول: الذي توصلتُ إليه بعد المطالعة والتتبّع لكتب المستشرقين والمشكّكين في القرآن الكريم لم أعثر على من أورد شبهات الأخطاء اللّغوية في القرآن في كتابٍ مستقلٍ ومنفردٍ.

وإن كان هناك ذكرٌ لها على نحو الاستطراد في بعض الكتب، ولعل أول من عقد باباً بعنوان الشبهات النحويّة واللّحن في القرآن هو الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) في كتابه (الانتصار للقرآن) في بابٍ لا يتجاوز الثمان صفحات، تحت عنوان (باب الكلام عليهم فيما طعنوا على القرآن ونحلوه من اللّحن)، وقد ناقش الروايات الواردة في هذا الباب[٢٢].

تتداول هذه الشّبهة بشكلٍ واسع على سطح الشبكة العنكبوتية (الأنترنت) وفي مواقع ومنتدياتٍ الغرض والهدف منها زرع التشكيك والتلبيس على البسطاء، وقد أخذت جلّها من كتُب إعراب القرآن والتفاسير وطرحت تحت عنوان شبهة، وقد قام أحدهم تحت اسم مستعار (عبد الله الفادي) وهو رجلُ دينٍ نصراني ـ كما في مقدمة كتابه ـ وجمعها في كتابٍ تحت عنوان (هل القرآن معصوم) وصدر الكتاب عن مؤسسةٍ تنصيريّة في النمسا، اسمها (ضوء الحياة) بثلاث لغات الألمانية، والأنجليزية، والعربية، وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤م، وتوزّعه هيئات ومراكز التبشير النصرانيّة، ودعت المؤسسة المذكورة إلى مراسلتها لإرسال الكتاب لمن يطلبونه، كما أنها أنزلته على شبكة الأنترنت.

ادّعى عبد الله الفادي أنَّه وجد في القرآن مئتين وثلاثة وأربعين خطأً في مختلف موضوعاته، وهذا معناه أنَّ القرآن ليس معصوماً من الخطأ، وأنَّه ليس وحياً من الله، وليس كلام الله؛ إذ لو كان كلام الله لما وجُد فيه خطأ واحد، وإذا لم يكن القرآن كلام الله لم يكن محمد رسولاً من عند الله، وهذا معناه أنَّ الإسلام ليس ديناً من عند الله.

وقد جُمعت شبهات هذا الكتاب من كُتب النصارى والمستشرقين، وقد ذكر خمسة وعشرين سؤالاً تحت عنوان (أسئلة لغوية) تبدأ من السؤال ١٠٦ وتنتهي بالسؤال ١٣٠، وقد صدرت الردود الكثيرة حول هذا الكتاب أو جزء منه.

وفحوى هذه الشّبهة - كما تقدّم - هو: وجود أخطاء نحويّة في القرآن خالف فيها القرآن قواعد اللّغة العربية، وهذا يدلّ على أنّه ليس من كلام الله، لأنَّ الله لا يخطأ، وقد استشكلوا على بعض آيات القرآن، ورأوها على خلاف ما تعلموه في دراستهم لقواعد النحو في المرحلة الإبتدائية، فظنوا أنَّ في هذه الآيات خطأ فات الأوّلين، وأنهم تنّبهوا له بعبقريتهم بعد قرون.

ونحن هنا لا نريد التعرّض للمشاكل الإعرابية في الآيات القرآنية وإنما بصدد بيان الأبنية النحويّة التي استغلّها المستشرقون وغيرهم من المشكّكين كشواهد على وجود أخطاء نحويّة في القرآن الكريم، وإن كانت هذه الآيات قد تعرّض لها النحويّون وأدرجوها في طيّ أبحاثهم، وصارت مائدة للأخذ والعطاء ووجهوها بأحسن ما كان عندهم في كتب النحو وإعراب القرآن والتفاسير، ولكن بعض ما ذكروه لا يصل بالقارئ إلى حدّ الإقناع لدرجةٍ جعلت بعض المشككين - ومن جملتهم المستشرقين - ينظرون إلى هذه المباني الاستثنائية على أنها أخطاء وأغلاط نحويّة، ولذا نسعى هنا لذكر أقوم بيان وأسدَّ توضيح لها، وذلك من خلال التركيز على فقه اللّغة العربية وأبعادها البلاغية، وهذه المباني تختلف عن المباني العامة وهي مباني استثنائية لها شواهد في الكلام العربي، مع الأخذ بنظر الاعتبار إلى ما تقدّم في الفصل الثاني من الإشارة إلى العادات اللّغوية للعرب والأغراض البلاغية وبها يتم الاستغناء عن تبريرات النحويين وترتفع شبهة الأخطاء النحويّة.

ثانياً: هل يمكن أن يكون في القرآن أخطاء نحويّة؟

والجواب: إنَّ علم قواعد النحو لم يكن له وجود قبل نزول القرآن، وكان العرب يتحدثون اللّغة العربية بالسليقة والطبيعة، ولأن اللّغة في أصلها سماعيّة لا قاعدية فكانوا يرفعون الفاعل وينصبون المفعول دون أن يتعلّموا قواعد اللّغة العربية، وما كان آباؤهم علموهم ذلك، بل لسليقتهم العربية التي نشأوا عليها منذ طفولتهم، فلو أنك سألت فطاحل شعراء العرب مثل: عنترة أو امرئ القيس أو طُرفة بن العبد وغيرهم من شعراء الجاهليّة عن الموقع الإعرابي لكلمةٍ ما، فإنه لن يفهم ماذا تقصد من سؤالك؟ فلم يكن لتلك القواعد النحويّة وجود بشكلٍ نظري، ولكنهم كانوا يتحدّثون اللّغة بشكلٍ صحيح من الناحية اللّغوية والنحويّة.

وعليه لا معقوليّة للبحث عن الأخطاء النحويّة في القرآن الكريم، بعد فرض كون القرآن الكريم أحد المصادر الرئيسة لأعمال النحاة، ولا يمكن تقييم القرآن على أساس أعمالهم، وإن القيام بمثل هذه المحاولة كمثل محاولة العثور على الأخطاء الكونية على أساس الكتب التي كتبها علماء الفلك، أو كمحاولة الإطلاع على الأخطاء في جسم الإنسان على أساس الكتب التي كتبها علماء وظائف الأعضاء.

ثم يحقُّ لنا التساؤل: هل غابت هذه الأخطاء التي اكتشفها المستشكل عن صناديد قريش والعرب والأقحاح من أهل اللّغة والفصاحة والشعر؟

ألم يكونوا مترقبين لأيّ خطأ مهما كان صغيراً حتى يتمهّد لهم طريقٌ للطعن في القرآن، وقد سعى الأوائل الذين وقفوا بوجه القرآن لصد الناس عن التوجه إليه بتهم يختلقونها من عندهم يقذفون بها القرآن بأنه سحرٌ وأساطير تارة، وأخرى يصفون النبي محمدﷺ بأنه معلّم مجنون.

بل ممّا يزيد موقف ذلك المستشكل حرجاً أن هؤلاء الكفّار من أهل قريش رغم شدة عداوتهم للإسلام قد صرّحوا وأقرّوا ببلاغة القرآن وأسلوبه المعجز حتى وصفه أحد كبرائهم وهو الوليد بن المغيرة، وقد كان من أعلمهم بالشعر والنثر وسجع الكهّان فقال: «والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته»[٢٣]. والفضلُ ما شهدتْ به الأعداء.

(٢٣) البداية والنهاية، ابن كثير:ج٣ص ٧٨.

والعجب أن يأتي بعد قرونٍ من لا علم له باللّغة العربية وثقافة القرآن الإسلامية ليدّعي ويزعم وجود أخطاء نحويّة في القرآن الكريم.

ثالثاً: القرآن والقواعد النحويّة

من الطبيعي أن يكون تركيب القرآن الكريم منسجماً مع قواعد النحو العربي، ما دامت هذه القواعد تمثّل تمثيلاً صادقاً سليقة العرب اللّغوية عند نزول القرآن الكريم، لأنَّ القرآن قد نزل بلسانٍ عربيٍ مبين، في زمنٍ لم يكن فيه سلطان لغير ملكة العرب اللّغوية، التي كانوا يحكمون بها على مدى صحة تركيب الكلام ومنزلته بين الرفيع منه والبليغ، ولم يرو عن أحدٍ من العرب

الخُلصّ الذين نزل بينهم القرآن أنَّه اعترض على صحة تركيب آيةٍ من القرآن، بل أقرّوا جميعاً حتى زعماء الكفر منهم على أنَّه أفصح كلام سمعوه وأبلغ كلام عرفوه، وأنَّهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بأقصر سورة من مثله.

وقد أجمع علماء البلاغة، ونقّاد الكلام جميعاً على أنَّ هذا الكتاب قد بلغ ذروة البلاغة، ممّا استحقّ به أن يكون معجزة البيان العربي[٢٤].

رابعاً: القرآن والإعراب

إنَّ الإعرابَ في اللّغة العربية من أخصّ خصائصها التي انفردت به عن سائر اللّغات السامية، وبقيت محتفظة به إلى اليوم في لغة العلم والأدب، وإذا كان الإعراب كعلم يُدّرس له أصوله وقواعده، فهو متأخر عن عصر نزول القرآن، إلّا أنَّ هذا لا يعني أنَّه كان مفقوداً في لغة التخاطب بين العرب الأقحاح الذين نزل القرآن بلغتهم، بل كان سليقةً لهم في الكلام فُطروا عليها ونشأوا بها[٢٥].

وقد بدأت حركة الإعراب في القرآن بتنقيط المصحف على يد أبي الأسود الدؤلي، وإن حسَّ العرب بالإعراب وإكرامهم له دعاهم أن يضبطوا بالنقط آخر الكلمات في القرآن الكريم حين يكتبونه، وإن ممارسة النُحاة لهذا الضبط هدتهم إلى كشف علل الإعراب، فكان علم النحو[٢٦].

ولم يكد عاقل في الدّنيا يفهم من لفظ الإعراب التزام قواعد النحو، فما وُلد أولئك النُحاة بعدُ، ولا نحوهم، ولا ضُبط شيءٌ من مقاييسهم ومعاييرهم! وإنما يفهم من الإعراب وضوح المنطق،

(٢٤) ينظر: لغة القرآن الكريم، عبد الجليل: ص٢٤٤-٢٤٥.

(٢٥) ينظر: دفاع عن القرآن الكريم - أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، محمد حسن: ص٥١.

(٢٦) ينظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحويّة، عبد العال: ص٢٦٧.

وظهور المخرج، وخلوّ التلاوة من عيوب اللّسان التي تذهب بالكثير من حلاوة القرآن[٢٧].

والإعراب - في الاصطلاح - هو: تغير حركة أواخر الكلِم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً[٢٨].

وجاء القرآن متماشياً مع هذه الفطرة، وقد أضفى عليها من حُلل الجمال والكمال ما جعلها غرّة في جبين الدّهر لا تزول، وإنك لتتأكد من هذا جليّاً إذا أمعنت النظر فيما يأتي:

أولاً: الشعر العربي يقوم على الوزن والقافية، وأيّ تعديل فيهما مهما كان طفيفاً فإنَّه يفقده رونقه، ويبعده عن الاعتداد به في جملة الشعر. وما وصل إلينا من الشعر الجاهلي نجده منسجماً مع قواعد الإعراب.

فهل يا ترى قد أعيدت صياغة الشعر العربي من جديد، بعد ظهور المدارس النحويّة في عصور متأخرة عن وجوده؟

ثانياً: إنَّ مراعاة دقة التصرّف الإعرابي في الكلام وتجنّب اللّحن قد حثَّ الناس الأوائل على أن يختلفوا إلى الأعراب في البادية ليأمنوا بمخالطتهم من اللّحن، ويصقلوا ألسنتهم على سليقة العربي الصافية.

خامساً: المستشرقون والمشكّكون والأخطاء اللّغوية المزعومة في القرآن

أتى المستشرقون بزيفٍ جديدٍ لم يسبقهم إليه معاندوا قريش وحلفاؤها الذين وقفوا موقف المعاند الجاحد من القرآن الكريم وتبعهم المشكّكون على ذلك، وهذا الزعم قائم على أساس

(٢٧) ينظر: دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح: ص١٢٨.

(٢٨) متن الآجرومية، الصنهاجي محمد: ص٦.

إنكار المصدر الإلهي للقرآن الكريم وادّعاء بشريته، سواء أكانت بشريته بأخذه من مصادر أخرى وتأليف بعضها إلى بعض أم نتيجة للتطوّر الجمعي على امتداد أوقات طويلة كما يزعم المستشرقون[٢٩].

هذا الزعم الزائف هو ادّعاء وجود أخطاء لغويّة ونحويّة وأدبية في القرآن الكريم، وسنسرد هنا أهم الأفراد الذين تناولوا هذه الفرية الزائغة:

أولاً: نولدكه[٣٠] وبرجستراسر[٣١].

ثانياً: يفيم ريزفان[٣٢].

ثالثاً: جاك بيرك[٣٣].

رابعاً: علي الدشتي[٣٤].

وقد سلك المستشرقون طريقين لذلك:

أولاً: ترجمات القرآن

الترجمة وسيلة من وسائل الإتصال الحضاري والتأثير الثقافي، وقد كان ترجمة القرآن الكريم من أوائل الترجمات التي عرفتها لغات الغرب الأوروبي، ولحركة ترجمة القرآن تاريخ طويل، وخلال عقود هذا التاريخ وقرونه أنجز الغرب ما يربو على الستمائة والخمسين ترجمة للقرآن الكريم، في إحدى وعشرين لغة أوروبية[٣٥].

ومن أجل توسعة عمليّة التبشير التي تقوم بها الدوائر المسيحية ونشر التشويش والضبابية حول القرآن الكريم، والرّغبة الغربية في الحدّ من تأثير القرآن الكريم في هداية غير المسلمين إلى

(٢٩) ينظر: الرد على ادّعاءات المستشرقين حول الأخطاء النحوية في القرآن الكريم، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، عبد الحسين فقهي وفرازي علي رضا: شوال ١٤٣١هـ العدد ١٦، ص ٩٩-١٠١.

(٣٠) تيودور نولدكه: مستشرق ألماني، تعلّم في جامعة جوتنجن وفيا وبرلين، وعُيّن أستاذاً للّغات الشرقية في جامعة جوتنجن، فجامعة كيل، ثم جامعة ستراسبورج، له دراسات كثيرة في تاريخ العرب وثقافتهم. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ج٧، ص٣٤٣٨.

(٣١) برجستراسر جوتهلف. مستشرق ألماني، تعلّم العربية في جامعة ليبزج، وقام برحلات في الشرق الأوسط، عني بالدراسات اللّغوية، وبخاصة أبحاث

الإسلام بما يحمله من قيم وأهداف تخاطب العقل والوجدان البشري، حاول الغرب خلق حاجز نفسي عميق أمام القرآن الكريم بواسطة الترجمات، فإنهم وصلوا لقناعة بأنه «لا يجب أن تحارب هرطقة / بدعة محمد بقوة السلاح العمياء، بل يجب أن تدحض بقوة الكلمة من خلال مبرّرات عقليّة للمحبّة المسيحية، بيد أن هذا قد تطلّب أن يتعرّف وجهة نظر الخصم معرفة حقيقة، ومن ثم وضع الخطة لترجمة القرآن إلى اللاتينية»[٣٦].

ومن أجل تشكيل هذا الحاجز النفسي العميق الحائل بين القرآن الكريم وبين غير المسلم عمد الغربيون في ترجماتهم إلى وسائل عدة:

١. عنونة الترجمات، مثل: قانون المسلمين لمحمد بن عبد الله. أو قوانين الأتراك، أو قرآن محمد، أو مسامرات محمد، أو أخلاق الشرق الممثلّة في قرآن محمد، أو محمد ومؤلَّفه، أو الكتاب التركي المقدّس[٣٧].

٢. المقدّمات والملاحق - وهي محلُّ شاهدنا في البحث - حيث أضاف المترجمون إلى نصوص الترجمة القرآنية مقدّمات وملاحق ليست شارحة لمضمون النص القرآني المترجم وإنما طعون في أصالته، وسخريّة من محتواه، ومحاولات للحطّ من قدره بأيّ نحوٍ كان.

ثانياً: روايات اللّحن

وجد المستشرقون والمشكّكون ضالتهم في الاستناد والتدليل على تهمتهم البائسة - الأخطاء اللّغوية والنحويّة في القرآن - من

القراءات واللّهجات. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ج٢، ص٦٦٦.

(٣٢) يفيم ريزفان، مستشرق روسي معاصر، ولد سنة ١٩٥٧م، له كتاب القرآن وعالمه.

(٣٣) جاك بيرك، مستشرق فرنسي معاصر.

(٣٤) كاتب وباحث إيراني (١٨٦٩-١٩٨١م) له عدّة مؤلفات في الأدب والإسلام وغيرهما، وذو منصب حكومي في دولة رضا شاه قبل قيام الثورة الإسلامية. انظر: مقدمة كتاب ٢٣ عاماً - دراسة في السيرة النبوية المحمدية.

(٣٥) ماذا يريد الغرب من القرآن؟ عبد الراضي محمد: ص١٧.

(٣٦) الدراسات العربية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين، فك يوهان: ص٧٥.

(٣٧) ماذا يريد الغرب من القرآن؟ عبد الراضي محمد: ص٤٠-٤١.

خلال التمسّك بروايات مزعومة وباطلة وردت في التراث الإسلامي، ودار مدارهم على التأكيد بأن هذا الادّعاء قائم في المقام الأوّل على اعتراف المسلمين أنفسهم، وعلى النصوص الإسلامية التراثية.

وحاصلها: إنه قد نظر في المصحف بعد كتابته في أثناء خلافته عثمان بن عفان بأمر منه، فوجد فيه بعض الأخطاء، وأعلن ذلك وأنه ترك هذه الأخطاء، وأخبر أن من سيأتي من الأجيال القادمة هو الذي سيصلحها . وتركها على ما هي عليه دون أن يغيّر فيها شيئاً .

وقد درسها الباحث جمال محمود أبو حسان في دراسة وافية تحت عنوان (دراسة ما روي عن عثمان في شأن لحن القرآن) وفحص الباحث هذه الروايات روايةً روايةً، وأثبت بالبرهان العلمي أنه لم يصح منها شيء البته، وأنها كلّها روايات ضعيفة ساقطة لا تقوم بها حجة، مع ذكر من حفل بهذه الروايات واستند اليها من المستشرقين.

ولم يكتف الباحث بذلك بل تعرّض إلى توضيح معاني هذه الروايات وبيّن موقف العلماء منها قديماً وحديثاً على وجه علمي موضوعي[٣٨].

(٣٨) ينظر: دراسة ما روي عن عثمان في شأن لحن القرآن، مجلة الزرقاء للدراسات والبحوث، ٢٠٠٥م، المجلد السابع، العدد الأول، جمال محمود: ص٤٣-٨٧.

نتائج البحث

كشفت هذه الدراسة بكلّ وضوح عن حقيقة المنهج الذي اعتمده أعداء القرآن والمستشرقون فِي الطعن بالقرآن الكريم، وأن نظرتهم للقرآن نظرة غير عادلة، يملؤها الحقد والكره للإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وآله.

وإن لمذاهب الهدم والتخريب أساليب كثيرة تتخذها لحرب القرآن، وهدم الإسلام، وتدمير العقيدة، وتقويض الشريعة، وإلغاء اللّغة العربية، ونشر الإلحاد والوثنية، وإفساد الأخلاق.

ومن خلال هذا البحث توصّلنا إلى النتائج الآتية:

١. إن القرآن الكريم معجزة الرسول محمد صلى الله عليه وآله، وقد نزل بين ظهراني العرب وكان له الأثر البليغ عليهم، وقد عجزوا عن الإتيان بمثله مع أنهم كانوا فرسان البلاغة وأعلام الفصاحة، وإن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله من مبادئ وتعاليم يدلّ دلالة واضحة على أنه أوحي إليه بهذا من عند الله عزّ وجلّ. وإن القرآن وحيٌ من عند الله تبارك وتعالى، وأنه ليس من تأليف النبي كما يدّعي المدعون.

٢. إن أكثر المتحمّسين في هذا العصر لإثارة الشبهات والافتراءات حول القرآن الكريم هم المستشرقون والنصارى من خلال آليات عدَّة سلكوها للوصول لمبتغاهم.

٣. إن السبب الأبرز لظهور الشبهات اللّغوية حول القرآن الكريم يرجع إلى المنهج المتبع في الدرس النحوي. والقائم على أساس الغالب في الاستعمال، والذي له الأثر الكبير في بروز بعض هذه الظواهر اللّغوية التي بدت للعيان وكأنها خروج عن المقيس في كلام العرب.

٤. عدم معقولية البحث عن الأخطاء النحويّة في القرآن الكريم بعد فرض كون القرآن الكريم أحد المصادر الرئيسة لأعمال النُحاة، وإنَّ ما بدا في بعض تراكيب القرآن خارجاً عن سنن العربية هو من صلب الاستعمال اللغوي عند العرب، وإنَّ سببه قد يعزى في بعض الأحيان إلى اعتماد النُحاة في التقعيد اللّغوي على كلام العرب من زاوية الشعر بالدّرجة الأولى بصورة تفوق الاعتماد على القرآن نفسه وأدب العرب وخطبهم ونثرهم.

٥. إن قواعد النحو والإعراب إنما هي موضوعة على أساس القرآن الكريم؛ لأنه هو الأصل العربي الذي تواتر إلينا عن النبي محمدﷺ وتحدّى به فصحاء العرب، فعجزوا عن الإتيان بمثله، وإن الإعراب في اللّغة العربية من أخصّ خصائصها التي انفردت به عن سائر اللّغات السامية، وإذا كان الإعراب كعلم يُدّرس له أصوله وقواعده، قد ظهر متأخراً عن عصر نزول القرآن، فهذا لا يعني أنَّه كان مفقوداً في لغة التخاطب بين العرب الأقحاح الذين نزل القرآن بلغتهم، بل كان سليقةً لهم في الكلام فُطروا عليها ونشأوا بها.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الطبعة التونسية، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م.

٢. ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣. أبو عودة، عودة خليل، التطوّر الدّلالي بين لغة الشعر الجاهلي وبين لغة القرآن الكريم، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤. أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٥. الآلوسي، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الآلوسي، فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهليّة، تحقيق: يوسف السعيد، الطبعة الأولى، دار المجد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٦. الباقلاني، القاضي أبي بكر بن الطيب، الانتصار للقرآن، تحقيق: الدكتور محمد عصام القضاة، الطبعة الأولى، دار الفتح للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ودار ابن حزم، بيروت - لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧. جبل، محمد حسن حسن، دفاع عن القرآن الكريم – أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللّغة العربية، الطبعة الثانية، البربري للطباعة الحديثة، بسيون - مصر، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٨. الجندي، علي، في تاريخ الأدب الجاهلي، الطبعة الأولى، دار التراث، المدينة المنورة - السعودية، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٩. جواد، علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الرابعة، دار الساقي، بيروت - لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٠. الدشتي، علي، ٢٣ عاماً دراسة في السيرة النبوية المحمدية، ترجمة ثائر ديب، الطبعة الأولى، الناشر: بترا للنشر والتوزيع، سوريا - دمشق، ٢٠٠٤م.

١١. الراجحي، عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية - مصر، ١٩٩٦م.

١٢. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى، دار القلم والدار الشامية، دمشق وبيروت، ١٤١٢هـ.

١٣. الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، المحقق : فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

١٤. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين ، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، المحقق: فؤاد علي منصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٥. شمس الدين، محمد مهدي، بين الجاهليّة والإسلام، الطبعة الرابعة، المؤسسة الدولية، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٦. الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللّغة، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ٢٠٠٩م.

١٧. عبد المحسن، عبد الراضي محمد، ماذا يريد الغرب من القرآن؟، الطبعة الأولى، مجلة البيان، الرياض، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

١٨. عثمان، محمود حامد، القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين، الطبعة الاولى، دار الزاحم، الرياض، ١٤٢٣هـ.

١٩. فتح الله، أحمد، معجم ألفاظ الفقه الجعفري، الطبعة الأولى، مطابع المدوخل، الدمام - السعودية، ١٤١٥هـ

٢٠. فك، يوهان، الدراسات العربية في أوربا حتى مطلع القرن العشرين، نقله إلى العربية وقدَّم له وعلَّق عليه: الدكتور سعيد حسن بحيري والدكتور محسن الدمرداش، الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٢١. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٢. المظفر، محمد رضا، المنطق، الطبعة الثالثة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٣. مكرم، عبد العال سالم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحويّة، الطبعة الثانية، الناشر: مؤسسة علي جراح الصباح، الكويت، ١٩٧٨م.

٢٤. الموسوعة العربية الميسرة، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠١٠م.

٢٥. الينبعي، محمد، مفهوم الجهل والجاهليّة في القرآن الكريم والسنة والنبوية، الطبعة الأولى، دار السلام، مصر، ١٤٣٤هـ -٢٠١٣م.

المجلّات:

٢٩. الترتوري، حسين مطاوع، الإعجاز البياني للقرآن الكريم أركانه ومظاهره، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢٣، ١٤٠٩هـ.

٣٠. فقهي وفرازي، عبد الحسين وعلي رضا، الرد على ادعاءات المستشرقين حول الأخطاء النحويّة في القرآن الكريم، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، شوال ١٤٣١هـ، العدد، ١٦.

٣١. أبو حسان، جمال محمود، دراسة ما روي عن عثمان في شأن لحن القرآن، مجلة الزرقاء للدراسات والبحوث، ٢٠٠٥م، المجلد السابع، العدد الأول.

٢
تأويل القرآن الكريم
في التراث الإسلامي
يعقوب حسن بريد الميالي
ماجستير في التفسير وعلوم القرآن

مقدمة

اختلفت المدارس الإسلامية في نظرتها نحو القرآن الكريم ما بين من يتمسّك بظاهر القرآن ويرى أنّ أهداف القرآن منحصرة به ولاتتعداه، وهم الظاهرية الذين سُمّوا بهذا الإسم نسبة لتمسّكهم بظواهر الشريعة. ويرون أنّ الخطاب القرآني لا يُفهم منه إلا ما قضى لفظه فقط، وإنّ لكلِ قضيةِ حُكْم اسمَها فقط، وما عداه فغير محكوم له لا بوفاقها وِلا بخلافها. أي: إنّ القرآن الكريم ليس فيه غير الظاهر، وكذلك الشريعة.

ومدرسة أخرى ترى أنّ باطن القرآن هو الغاية الأساس للنّص القرآني، ويعتقدون ما يبدو من ظاهر القرآن ليس هو مراد الله تعالى حقيقة، ولا يصلح حجة يمكن الاعتماد عليها أو الاستدلال بها، بل يجب السعي لاستكشاف باطنه، ومن وجهة نظرهم فإنّ التفسير الصحيح للقرآن ينحصر في بيان باطنه فقط، وهؤلاء هم الباطنية.

بينما يرى جمهور المسلمين أنّ القرآن الكريم مشتملٌ على الظاهر والباطن، وإنّ الولوج إلى الباطن يتمُّ من خلال الظاهر، والاهتمام بأحدهما لا يكون على حساب اهمال الآخر، وإنّ ظاهر القرآن يمكن الوصول إليه من خلال التفسير، بينما يكون التأويل طريقاً للوصول إلى باطن القرآن.

وفي التراث الإسلامي اتجاهان في بيان مسألة التأويل:

الاتجاه الأول: يرى أنّ التأويل من مقولة الألفاظ والمعاني الذّهنية، وفي هذا الاتجاه نظريتان:

إحداهما: ترى أن التأويل هو التفسير ولا فرق بينهما.

بينما الأخرى ترى أنّ التأويل هو المعنى المخالف لظاهر اللفظ. أما الاتجاه الثاني، فيرى أنّ التأويل ليس من قبيل الألفاظ والمعاني، بل هو من وجود خارجي وحقيقة خارجية. وفي هذا الاتجاه نظريتان؛ النظرية الأولى: ترى أنّ التأويل هو نفس الكلام خارجاً حين وقوعه، أي: وقوع المخبَرِ به في الخارج أو وقوع الأمر الذي أنشأ لأجله الإنشاء.

أمّا النظرية الثانية فترى أنّ التأويل هو الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية من حكمٍ أو موعظةٍ أو حكمةٍ، وإنّه موجود لجميع الآيات القرآنية.

تأويل القرآن في التراث الإسلامي

التأويل لغةً:

١. قال ابن فارس: «(أوْل) إبتداء الأمر وانتهاءه، فأمّا الأول وهو مبتدأ الشيء... ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبته ومايؤول إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾[١] يقول: مايؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم»[٢].

٢. وقال ابن منظور: «وأوّلَ الكلام وتأوّلَه : دبّره وقدّره، وأوّلَه وتأوّله : فسّره، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[٣]، أي: لم يكن معهم علم تأويله. وقيل: معناه لم يأتهم مايؤول إليه أمرهم في التكذيب به من العقوبة، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[٤]»[٥].

٣. وقال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن : «التأويل من

١- الأعراف: ٥٣.
٢- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ج١، ص، ١٦٠.
٣- سورة يونس: ٣٩.
٤- سورة يونس: ٣٩.
٥- لسان العرب، ابن منظور: ج١، ص، ١٦٠

الأوْل أي: الرجوع إلى الأصل، ومنه الموئل للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً. والأول هي: السياسة التي تُراعي مآلها»[٦].

ويفهم من كلّ هذا أنّ التأويل بشكل عام يراد منه مطلق الرجوع إلى أصل الشيء وبدايته، أو إلى ما ينتهي إليه الشيء من العاقبة والغاية.

التأويل اصطلاحاً:

لقد اهتم العلماء المسلمون في بيان مسألة التأويل من خلال بيان مفهومه وحدوده وجوازه من عدمه، وهم مع كلّ هذا قد انقسموا إلى طائفتين في فهمهم للتأويل، إذ تجد في تاريخ المسلمين اتجاهين متباينين في فهم التأويل:

الاتجاه الأول: يرى أنّ التأويل من مقولة المعنى والمفهوم.

والاتجاه الثاني: يرى أصحابه أنّ التأويل ليس من قبيل المفاهيم الذّهنية التي تدلُّ عليها الألفاظ، بل هو من الأمور العينية التي تستند إليها البيانات القرآنيّة من حكم أو مواعظٍ، وأنّه موجود لجميع البيانات القرآنيّة محكمها ومتشابهها.

الاتجاه الأول: المدرسة المعرفيّة

في هذا الاتجاه نظريتان مختلفتان في فهمهما للتأويل وإن اتفقتا في أنّ التأويل من عالم الألفاظ والمعاني الذهنية:

النظرية الأولى: المراد من التأويل هو التفسير

يرى أصحاب هذه النظرية أن المراد من التأويل هو التفسير، ولا فرق بينهما وتأويل القرآن يعني تفسيره.

٦- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٣١، مادة أول.

فعند الاطلاع على (أمالي المرتضى) تجده يقول: تأويل آية كذا، فيذكر الآية ثم يأتي بتفسيرها من خلال بيان معاني المفردات وظواهر الآيات. أو يقول: إن هذه الآية لها وجوه عدَّة من التأويل[٧].

وهذا الأمر عينه نجده عند الطبري في تفسيره، إذ أنه بعد أن يذكر الآية يقول: وتأويلها كذا، ويبدأ بذكر تفسير هذه الآية، وقد جعل اسم تفسيره (جامع البيان في تأويل القرآن) وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على أنه لم يفرّق بين التفسير والتأويل[٨].

قال ابن تيميّة: «وأمّا التأويل في لفظ السلف فله معنيان: أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عناه مجاهد أنّ العلماء يعلمون تأويله، ومحمّد بن جرير الطبري يقول في تفسيره: القول في تأويل قوله كذا، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك. ومراده التفسير»[٩].

والأخذ بهذه النظرية يجعلنا في غنى عن التأويل ولا حاجة لنا فيه؛ لأنه نفس التفسير. والواقع أنّ التفسير غير التأويل، وله ضرورة من أجل الوصول إلى الفهم الكامل للقرآن الكريم.

النظرية الثانية: المراد بالتأويل غير التفسير

وقد قدّمت في هذه النظرية تعريفات عدَّة منها: «صرف الآية عن المعنى الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنّة مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[١٠] إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر كان تأويلاً»[١١].

٧- انظر. الأمالي، السيد المرتضى: ج١، ص٢.
٨- انظر. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: ج٢١، ص٩٩.
٩- انظر. التفسير الكبير، ابن تيمية: ج٢، ص١٠٨.
١٠- سورة الروم: ١٩
١١- التعريفات، الشريف الجرجاني: ص٤، ص ٥٢.

ومنها أيضا «إرجاع لفظ الآية من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح»[١٢]. والمتأوّل عليه وظيفتان:

الأولى: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادّعاه.

والثانية: بيان الدليل الموجب للصّرف إليه عن المعنى الظاهر.

والتأويل أيضاً هو «توجيه الآيات المتشابهة والبطون من خلال بيان المفهوم العام الذي انطوت عليه الآية»[١٣].

وهو أيضاً «الوقوف على خلفيات الأشياء الظاهرة، ودرك الحقيقة المحكيّة فيها بواسطة الظواهر»[١٤].

وهذه النظرية تبين أنّ هناك حاجة للتأويل بخلاف النظرية الأولى التي قدّمت التأويل هو التفسير نفسه، ولكن هذه النظرية مع إقرارها بالحاجة إلى التأويل. إلا أن التأويل يبقى في مجال الألفاظ والمعاني الذهنية. وليس هو من قبيل الوجود الخارجي.

الاتجاه الثاني: المدرسة الوجوديّة

يرى أصحاب هذه النظرية أنّ القرآن له حقيقة خارجية وراء هذه الألفاظ والمفاهيم الذهنيّة، وهم يرون أنّ هذه الألفاظ تدلّ على المعاني الذهنيّة، وتأويل القرآن هو الأمر الخارجي، ويمكن بيان مرادهم بنحو بسيط من خلال المثال الآتي: كقولنا: (إنسان) فهنا عندنا لفظ وهو متكوّن من مجموع هذه الحروف الخمسة، وهناك مفهوم ذهني للإنسان وهو الحيوانية الناطقية، وهناك وجود خارجي المتمثّل بوجود الإنسان، والقرآن عندهم ثلاثة وجودات؛ أحدها: عالم الألفاظ. والثاني: عالم المفاهيم، وإدراك هذين العالمين محصور في تفسير القرآن. وعالم الوجود

١٢- التفسير والمفسرون، محمّد حسين الذهبي: ج١، ص ١٥ ـ ١٨.

١٣- التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمّد هادي معرفة: ج١، ص٢٠.

١٤- مراتب فهم القرآن، طلال الحسن: ص٩٤.

الخارجي: للقرآن لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال التأويل. وفي هذا الاتجاه نظريتان:

النظرية الأولى: نظرية ابن تيميّة

إذ يرى أنّ المراد من التأويل هو المراد نفسه بالكلام خارجاً، فإذا ورد إلى مسامعنا كلام خبر أو إنشاء فإن معرفة الخبر نفسه الإنشاء نفسه تكون تفسيراً، ووقوع المخبر به أو وقوع الإنشاء يكون هو التأويل، بمعنى: أن الشيء المخبر عنه - إن كان الكلام خبراً - أو الشيء المطلوب فعله - إن كان الكلام إنشاءً - هو التأويل بعينه، فالتأويل هو: الحقيقة الخارجية الّتي جاءت موافقة للطلب أو الخبر، وأمّا التفسير، فهو الصورة العلمية لتلك الحقيقة الخارجية[١٥].

فمثلا قوله تعالى:﴿الم* غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[١٦] إذ أخبر القرآن عن واقعة مستقبلية بالنسبة لزمان نزول النّص، وعندما تحقّق مصداق الخبر - أي بعد أن غُلب الروم - يكون تحقّقه تأويله، فالتأويل هو نفس الواقعة الخارجية المتمثلة بغلبة الروم.

ومن المؤيدين لهذه الرؤية محمّد رشيد رضا في تفسيره المنار، حيث أبدى إعجابه وتمسكه بهذا المعنى للتأويل[١٧].

وبناءاً على هذه النظرية فإنّ مساحة التأويل القرآني تكون محدودة في بعض الآيات القرآنية، بينما القرآن يصرّح بأنّ له تأويل، كما في قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

١٥- التفسير الكبير، مصدر سابق: ج٢، ص ١٠٩

١٦- سورة الروم: ١-٤.

١٧- انظر. تفسير المنار، محمّد رشيد رضا: ج٣، ص١٥١

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ﴾[١٨].

النظرية الثانية: نظرية العلّامة الطباطبائي

يقول الطباطبائي: إنّ الحقّ في تفسير التأويل: أنّه الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية من حكم أو مواعظ ، وإنّه موجود لجميع الآيات القرآنية، محكمها ومتشابهها، وإنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هو من الأمور العينيّة المتعالية من أن تحيط بها شبكات الألفاظ، وإنّما قيّدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا[١٩].

وعلى أساس هذه النظرية فإنّ كلمة (بطن) ليست من سنخ الألفاظ والمعاني، بل من سنخ الحقائق الوجودية الموجودة في العلم الإلهي.

وباطن القرآن لا يلغي ولا يبطل ظاهره، بل إنّه بمنزلة الروح التي تمنح الجسم الحياة، والإسلام لا يتخلّى عن الظواهر ؛ لأنّه يهتم أولاً وقبل كلّ شيء بإصلاح المجتمع البشري، والأحكام الظاهرية مؤدّاها إصلاح المجتمع البشري[٢٠].

وقد استدل العلّامة على هذه النظرية من خلال الأصل القرآني القائل: إنّ كلّ الأشياء في عالمنا المشهود لها نحو وجود عيني خاصّ بها في الخزائن الإلهيّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢١].

ووجه الاستدلال بهذه الآية هو: أنّ هذه الآية عامّة الدلالة

١٨- سورة آل عمران: ٧.

١٩- انظر. الميزان في تفسير القرآن، محمّد حسين الطباطبائي: ج ٣، ص ٤٠.

٢٠- انظر. الشيعة في الإسلام، محمّد حسين الطباطبائي: ص ٨٣.

٢١- سورة الحجر: ٢١.

وليست مختّصة بشيء دون آخر، ويدل على هذا العموم قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ ويفيد شمولها لكلّ ما يصدق عليه شيء إلا ما يخرجه سياق الآية نفسه. والخزائن هي: الحقيقة الواقعية للأشياء، والقرآن أحد هذه الأشياء، وألفاظ القرآن مجالها يمكن الوقوف على حقائقها من خلال التفسير، أمّا بُعده التكويني، فهو موجود في الخزائن الإلهيّة، ولا يمكن الوصول إليها إلا من خلال التأويل[٢٢].

ويؤيد الإمام الخميني قدس سره هذه النظرية، ولذا يقول: إنّ القرآن له مراتب متعددة وأعلى مرتبة له هي عند الله، وفي تلك المرتبة لا يوجد حديث عن الألفاظ والمعاني، بل هي حقائق وجودية نزلت على النبي صلى الله عليه وآله بواسطة جبرئيل، وتنزلت إلى مراتب أدنى على شكل ألفاظ ومعاني وتمّ إبلاغها للناس بواسطة النبي صلى الله عليه وآله.

وذهب بعض المفسرين إلى إن بعض الأولياء ومن خلال سلوكهم المعنوي إلى الله قد يصلون إلى مراتب وجودية عالية، وحينئذ يتصلون ببطن القرآن[٢٣].

وجذور هذه النظرية نجدها عند صدر الدّين الشيرازي إذ يقول: و بالجملة إنّ للقرآن درجات ومنازل كما للإنسان، وأدنى مراتب القرآن وهو ما في الجلد والغلاف كأدنى مراتب الإنسان، وهو ما في الإهاب البشرة[٢٤].

إذاً، فالتأويل بحسب هذه النظرية ليس مرتبة معرفيّة مجالها عالم الألفاظ والمفاهيم والمعاني، وإنّما هو مرتبة وجوديّة وخزائنية تقف خلف الوجود اللّفظي للقرآن. وإنه شاملٌ لكلّ القرآن ولا ينحصر بآيات محدّدة.

٢٢- انظر. الميزان في تفسير القرآن، مصدر السابق ج١٢، ص١٤٣.
٢٣- انظر. الآداب المعنوية للصلاة، الإمام الخميني، ترجمة أحمد الفهري: ص ٣١٨.
٢٤- انظر. الأسفار الأربعة في الحكمة المتعالية، صدر الدين الشيرازي: ج ٧، ص ٣٩.

ويبدو أنّ هذه النظرية هي الأفضل والأقرب من بين النظريات الأربع التي حاولت أن تبّين المراد من التأويل القرآني ؛ لأنّها تمّيز بين مراتب القرآن الوجودّية فما يفهم من خلال اللّفظ ويكون ضمن المعاني الذهنيّة فهو التفسير. أمّا التأويل، فهو الوقوف على الحقيقة الخارجية للقرآن الكريم، والتي تكون شاملة لكلّ آيات القرآن دون استثناء.

التأويل عند المدارس الإسلامية

ما بين من تمسك بالظاهر وتوقف عند حدوده، وآخر لا يفارق الباطن ويراه الهدف الأصيل لرسالة القرآن، ظهرت مدرسة أخرى تضع نصب عينيها الإهتمام بالظاهر القرآني دون التفريط بباطنه، وترى أنّ كلّاً منهما مكمّلاً للآخر في بيان رسالة القرآن، وأنّ القراءة الكاملة هي التي تصبُّ جهدها على الطرفين. وكلُّ واحدة من هذه المدارس لها حججها وأدلتها في الدّفاع عن أفكارها، كذلك لها نقوضها على من يخالفها من المدارس الأخرى. وسنقف هنا على رأي المدارس الإسلامية في نظرتها للنص القرآني:

أولاً: التأويل عند الباطنيّة

المقصود من الباطنية هي: الباطنيّة المحضة في تفسير القرآن، وهي نظرية مَن يقول: إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، وإنّ المراد منه باطنه فقط. ويعتقدون ما يبدو من ظاهر القرآن ليس هو مراد الله حقيقة، ولا يصلح حجة للاعتماد عليها أو الاستدلال بها، بل يجب السعي لاستكشاف باطنه، ومن وجهة نظرهم فإنّ التفسير الصحيح للقرآن ينحصر في بيان باطنه فقط[٢٥].

٢٥- انظر. مدارس التفسير الإسلامي، علي أكبر بابائي: ج٢، ص١٠٩.

والباطنيّة فرقة متفرّعة عن الإسماعيليّة،[٢٦] يعدُّون ظاهر الشريعة يختص بالأميّين من الناس، والذين لم يتدرّجوا في طريق الكمال المعنوي؛ ولهذا فقد قاموا بتأويل كلّ أحكام الإسلام الظاهرة على المقامات الباطنيّة، أي: لا يوجد شيء ظاهر في الشريعة، بل إنّ كلّ نصوص الشريعة قائمة على الفهم الباطني[٢٧].

وقد صار لفظ الباطنيّة يُطلق على جميع الذين يهملون الظواهر والنصوص في فهم مراد الله تعالى ويعتمدون على الباطن فقط[٢٨].

وقد سبق الباطنيّة إلى مثل هذا النوع من التفكير فرقة الخطّابية التي ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري، ومؤسّس هذه الفرقة أبو الخطّاب محمّد بن مقلاص الكوفي[٢٩].

وقد سعوا إلى تفسير القرآن وفق هذا المنهج الذي اعتقدوا به معتمدين على الرمزيّة والتأويل الباطني، فهم يعتقدون أنّ لغة القرآن هي لغة الرمز والإشارة، ويعتقدون أنّ الجوهر الحقيقي لمعاني الآيات موجود في الحقيقة المستترة خلف الألفاظ، وقد جاء في بعض كلمات إخوان الصفا بعض هذه المعاني، إذ جاء في رسائلهم: إنّ أكثر كلام الله سبحانه وتعالى وكلام الأنبياء وحديث الحكماء هي رموز لسرّ من الأسرار الذي خفي عن الأشرار، وتلك الأسرار لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم؛ وذلك لأنّ هناك قلوباً وخواطر ليس لديها القدرة على استيعاب تلك المعاني، ولهذا قال ﷺ: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم»[٣٠] وقد عدُّوا إفشاء أسرار الربّ نوعاً من الكفر.

وأمّا الخواص من الحكماء اولئك الذين يعدُّون من الراسخين

٢٦- انظر. دائرة المعارف الشيعيّة، حسن الأمين: ج٤، مدخل الباطنيّة.

٢٧- انظر. الشيعة في الإسلام: ص٦٣ ـ ٦٤.

٢٨- أنظر.قرآن در اينه پژوهش، محمّد كاظم شاكر: ج٣، ص ١٦ (فارسي).

٢٩- انظر. معجم رجال الحديث، أبو القاسم الخوئي: ج١٥، ص ٢٧١.

٣٠- ورد معنى هذا الحديث في الكافي، الكليني: ج١، ص٢٣.

في العلم، لا يحتاجون إلى توضيح اضافي ؛ وذلك لأنهم على علم بجميع الحقائق والأسرار والمرموزات.

ولا يمكن الوصول إلى مرادات القرآن الكريم، بل كلّ مرادات الشريعة؛ إلا من خلال الاشتغال بالرموز والعلامات، ومن لم يسلك هذا الطريق لا يمكن أن يصل إلى حقائق الشريعة لأنّ كلّ شيء في الشريعة وبضمنها القرآن الكريم إنّما هو رمز لا يدركه إلا العالم بالرموز[٣١].

يقول ناصر خسرو: إنّ الشريعة الناطقة جميعها رموز وأمثال، وكلّ من لم يعتبر الأمثال معانٍ والإشارات رموزاً فهو خارج عن الأمر، والوصول إلى المعنى لا يتأتىّ إلا عن طريق التأويل(٣٢).

ويقول في مكان آخر: إنّ أبواب الجنان مفتوحة أمام أهل التأويل فقط،[٣٣] وإنّ انعتاق النفس يكون في باطن الكتاب والشريعة[٣٤].

وقد استدل الباطنيّة لدعوتهم بأدّلة عدَّة منها الاستدلال بقوله تعالى:﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[٣٥]، ووجه الاستدلال بالآية هو: أنّ العمل بباطن القرآن الكريم يكون سبباً للرّحمة، أمّا التمسّك بظاهره فلا نتيجة له غير العذاب. وعلى هذا فالمهم هو فهم باطن القرآن الكريم، والتفسير الصحيح هو تفسير باطنه[٣٦].

ولكن سياق الآية يشير إلى أنّها تبين حال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، وهي تبيّن وجود الحّد الفاصل بينهم في يوم القيامة، يكون المؤمنون في جانب الرّحمة، بينما يبقى الكافرون في جانب العذاب.

٣١- انظر. رسائل إخوان الصفا: ج٢، ص ٣٤٣.

٣٢- انظر. وجه دين، ناصر خسرو قبادياني؛ ص١٦ (فارسي).

٣٣- انظر. المصدر السابق، ص ٣٥.

٣٤- انظر. المصدر السابق، ص٦٧.

٣٥- سورة الحديد: ١٣.

٣٦- انظر. مدارس التفسير الإسلامي، مصدر سابق: ج٢، ص:١١٦ ـ ١١٧.

أما في جانب الروايات، فإنها وإن أشارت إلى باطن القرآن إلا أنّها أشارت إلى ظاهره ولم تختصّ بالباطن دون الظاهر.

ومن بعض تفاسيرهم لآيات الكتاب تفسير التستري قوله: ﴿بسم الله﴾ بأنّ الباء : بهاء الله، السين :سناء الله، والميم : مجد الله. و(الله) الاسم الأعظم الذي يحتوي على أسماء الله الأخرى، وبين الألف واللام هناك حرف مخفي يعدُّ غيباً من الغيب نحو الغيب وسّراً من السّر نحو السّر[٣٧].

وقد أوّلَ الباطنيون التين والزيتون في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[٣٨]، والمشرقيين في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ والسدر والطلح في قوله تعالى:﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[٣٩] والشمس والقمر في قوله تعالى:﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[٤٠] أوّلوا كلّ ذلك على العقل الكلّي والنفس الكلّية[٤١].

والملاحظ أنهم يبّينون كلامهم بالاعتماد على اللغة الرمزية والإشارية، وهم بهذا يدّعون أنّ لغة القرآن الكريم لغة رمزيّة ؛ لأنّها لأجل مخاطبين خاصيّن، وإنّ النّص القرآني له معانٍ داخليّة وخفيّة تستتر خلف المعاني اللّفظيّة، وهذا المعنى لا يتأتّى عن طريق البحث الفنّي في اللّغة، وإنّما يأتي عن طريق الإلهام النفسي.

ولكن نفي ظواهر الشريعة وظواهر القرآن والاكتفاء ببواطن الآيات يؤدي بالنتيجة إلى نفي الشريعة؛ لأنّ أحكام الشريعة ظاهرية، وإنكار ظواهر الشريعة ينتج عنه إنكار الضروريات الدينيّة. وإنّ أغلب هذه التأويلات هي من باب التفسير بالرأي المنهي عنه شرعاً.

٣٧- انظر. تفسير القرآن العظيم، التستري: ص٨٥
٣٨- سورة التين:١.
٣٩- سورة الواقعة: ٢٨ ـ ٢٩.
٤٠- سورة فصّلت: ٣٧.
٤١- انظر. وجه دين، مصدر سابق، ص:٨١ ـ ٨٦.

وإنّ تأويلات الباطنيّة حول بعض القصص القرآنية تستلزم عدم المعرفة والوضوح فيها، مع إنّنا نلاحظ أننا نفهم القصص القرآنية من دون الحاجة إلى الولوج إلى الباطن.

ثانياً: التأويل عند الظاهريّة

وفي قبال الباطنيّة ظهر اتجاه متشدّد آخر وهم الظاهريّة، وهم على النقيض من الباطنيّة إذ أنهم قرروا أنّ الشريعة مبنيّة على الظاهر، ولا يوجد شيء اسمه الباطن.

يقول أبو الحسن الأشعري: وحكم كلام الله عزّ وجلّ أن يكون على ظاهره وحقيقته ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا لحجة، ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم فإذا ورد بلفظ العموم والمراد به الخصوص فليس هو على حقيقة الظاهر، وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة، وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، على ظاهره وحقيقته من إثبات اليدين ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادّعاه خصومنا إلا بحجة[٤٢].

وقد أنكر ابن حزم الأندلسي أن يكون هناك بطنٌ للقرآن الكريم، ويرى أنّ الباطن نوع من أنواع السّرية والسّرية غير موجودة في الدّين، ولو كان هناك باطن في الدّين وبضمنه القرآن لأخبرنا رسول الله بذلك وبما أنّ النبيّ لم يخبرنا بذلك فإنه لاوجود للباطن في الدّين الإسلامي، إذ يقول: اعلموا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يخفِ أي كلمة من الشريعة، ولا يوجد عنده أيُّ سرٍ ولا باطن غير ما دعا إليه جميع البشر[٤٣].

٤٢- انظر. الإبانة في أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري: ص١٣٩- ١٤٠.

٤٣- انظر. المحلى بالآثار، ابن حزم الأندلسي: ج٧، ص ٣١٨؛ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي: ج١، ص١١٦.

ويقول في موضع آخر: إنّ الخطاب لا يفهم منه إلا ما قضى لفظه فقط، وإنّ لكلّ قضيةِ حُكْم اسمَها فقط، وما عداه فغير محكوم له لا بوفاقها ولا بخلافها[٤٤].

وقد وصف بعضهم هذه العبارة بأنها مصادمة لأبسط قواعد الحسّ السليم في العمليّة الذهنيّة، وإنّها تمثل الغلو في النزعة النصّية الظاهرية إلى حدّ تقديم ملفوظ النّص على مفهومه، ولو على حساب إخلال صارخ بمبدأ المعقوليّة، وهذا على نحو غير مسبوق إليه ليس فقط في تاريخ الثقافة العربية، بل ربما أيضاً في تاريخ جميع الثقافات البشرية المتمركزة حول نصّ مقدّس، أو معدود كذلك[٤٥].

ويرى ابن قيّم الجوزيّة أنّ أيّ تأويلٍ للظواهر على البواطن أمر فاسد، وقد ردّ الروايات التي ذكرت الباطن[٤٦].

وأضاف على ذلك قوله : ومن ظنّ أنّه يستغني عمّا جاء به الرسول بما يلقي به قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفراً، وكذلك من ظنّ أنه يكتفي بهذه تارة وبهذه تارة [٤٧].

واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي وهو في طور إنكاره لباطن القرآن، بقوله: إنّ دفع الاختلاف عن طريق إرجاع الآيات إلى المحكمات أمرٌ ممكن من دون الحاجة إلى الرجوع إلى البعد الباطني للآيات[٤٨].

ولاشكّ أنّ لظواهر القرآن أهميّة كبيرة في بيان مرادات الله، ولكن الوقوف عند حدود الظواهر يمثّل نقصاً في فهم القرآن الكريم، يقول الغزالي: اتفقت كلمة أهل التحقيق على أنّ ظاهر

٤٤- انظر. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي: ج٧، ص٣٥٩

٤٥- انظر. من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث النشأة المستأنفة، جورج طرابيشي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ص:٣١٣ ـ ٣١٤

٤٦- انظر. ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوّف، عبد العظيم عبد السلام شرف الدين: ص ٤٢٩.

٤٧- انظر. المصدر السابق، ص٤٣٩.

٤٨- انظر. المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبّار: ج ١٦، ص ٣٦٤.

الشريعة ليس هو منتهى الإدراك في ذلك، بل الحقّ الذي كلّف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات، وله مبدأ ظاهر وغور باطن، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن[٤٩].

وتتمثّل أهميّة الظاهر في جهتين: الأولى تتمثّل في أنّ ظاهر القرآن حجة بنفسه لا يمكن تجاوزه، والجهة الثانية هو أن الظاهر هو الطريق للوصول إلى الباطن، إذ لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال الاعتماد على الظاهر؛ ولهذا قال الغزالي: لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادّعى هضم أسرار القرآن ولم يحكم تفسير الظاهر، فهو كمن يدّعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدّعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك، فإنّ ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة الّتي لابد منها للفهم[٥٠].

وقد وردت مجموعة من الروايات الّتي تدّل على وجود باطن للقرآن مع ما له من الظاهر.

فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما من آية إلا ولها أربعة معاني؛ ظاهر وباطن وحدّ ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحدّ هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مراد الله من العبد بها»[٥١].

ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحّاك عن ابن عبّاس قال: «إنّ القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون»[٥٢].

وهذه الروايات تؤكد وجود ظاهر للقرآن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار لفهم النص، وإلى جانب هذا الظاهر هناك الباطن المكمّل لفهم النّص القرآني الذي بدونه لا يتحقق الفهم الكامل.

٤٩- انظر. إحياء علوم الدين، الغزالي: ج١، ص٢٨٤.

٥٠- انظر. المصدر السابق، ج١، ص٢٩١.

٥١- تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩ م ج١، ص ٢٨.

٥٢- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، منشورات الشريف الرضي ـ بيدار عزيزي، ط٣، ١٤١٥ هـ ج٢، ص٤٦٠.

ثالثاً: التأويل عند من يجمع بين الظاهر والباطن

على خلاف الباطنيّة الذين لا يعتقدون إلا ببواطن القرآن، والظاهريّة الذين ينحازون إلى الظاهر فقط. ظهرت نظرية وسطى بين الإثنين، تؤمن بالتأويل ولا تهدر ظواهر القرآن الكريم، بل يشترطون عدم مخالفة التأويل القرآني للظواهر.

وهي طريقة أئمة أهل البيت عليهم السلام إذن لا يمكن الاستغناء عن الظاهر أو الباطن وفق متبنّيات هذا الاتجاه، كما لا يمكن الاكتفاء بأحدهما من دون الآخر؛ لأنّ استخراج البطون لا ينافي الأخذ بظواهر الآيات الّتي هي حجة بسبب بناء العقلاء؛ لأنّ المراد من الباطن ليس المخالف لظواهر الشريعة، بل إنّ المراد من البطن المعاني العميقة الّتي لا تتنافى مع ظواهر القرآن الكريم.

وقد استفاضت الروايات الواردة من الفريقين الدّالة على أنّ للقرآن الكريم ظهراً وبطناً ويمكن أن نذكر بعض هذه الروايات.

عن أبي عبد الله الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «.... فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفّع وماحل مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهرٌ وبطنٌ، فظاهره حكمٌ وباطنه علمٌ، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجومٌ وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه....»[٥٣].

وعن جابر قال: «سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن شيء في تفسير القرآن، فأجابني، ثمّ سألته ثانيا فأجابني بجواب آخر،

٥٣- أصول الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني: ج٢، ص٥٩٩، كتاب فضل القرآن، الحديث:٢.

فقلت: جعلت فداك كنتَ أجبتّ في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال عليه السلام لي: «يا جابر إنّ للقرآن بطناً، وللبطن بطن، وله ظهر وللظهر ظهر، يا جابر وليس شيء أبعد من عقول الرّجال من تفسير القرآن....»[٥٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما من آية إلا ولها أربعة معاني؛ ظاهر، وباطن، وحدّ، ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحدّ هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مراد الله من العبد بها»[٥٥].

إذن، فظاهر القرآن لا يستغنى به عن باطنه وباطنه لا يغني عن ظاهره؛ لأنه بمنزلة الرّوح الّتي تمنح الجسد الحياة. وإنّ للقرآن ظاهراً وباطناً وباطنه ذو مراتب مختلفة.

التأويل عند العرفاء

لمعرفة نظرة العرفاء إلى تأويل القرآن لابد من معرفة فهمهم للنّص القرآني، بل لابد من الوقوف على نظرتهم للوجود بشكل عام ورؤيتهم اتجاهه، ومن ثمّ معرفة العلاقة الّتي هي بين القرآن والعالم.

يعتقد العرفاء أنّ هذا الوجود يتكّوّن من عالم الآفاق وعالم الأنفس، ويمثّل العالم الآفاقي كلمة الله المفصلّة، والعالم الأنفسي كلمته المجملة، ويكون القرآن صورة لما في هذين العالمين إجمالاً وتطبيقاً، ولذا يقول السيد حيدر الآملي: «إنّ التأويل عند أرباب الباطن هو التطبيق بين الكتابين (الآفاقي والأنفسي) إلى الكتاب القرآني الجمعي وحروفه وكلماته وآياته»[٥٦].

٥٤- تفسير العياشي، محمّد بن مسعود العياشي: ج١، ص٨٧، الحديث: ٣٩.

٥٥- تفسير الصافي، مصدر سابق، ج١، ص٢٨.

٥٦- انظر: تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، حيدر الآملي: ج١، ص٢٤٠.

ويقدّم صدر الدّين الشيرازي ما يؤكد التوازي القائم بين عالم الآفاق وعالم الأنفس، وأنّ الإنسان هو على صورة العالم يحاكيه في المراتب الوجودية وما تنطوي عليه من درجات، إذ يقول: «كما إنّ العالم بتمامه منقسم إلى غيب وشهادة، كذلك الإنسان الذي هو على صورة العالم؛ عالم صغير مشتمل على غيب وشهادة، أي روح وجسم»[٥٧].

وهذا التوازي الوجودي بين عالم الآفاق وعالم الأنفس، له صورة مماثلة تماماً بين الإنسان والقرآن : «وبالجملة إنّ للقرآن درجات ومنازل كما للإنسان، وأدنى مراتب القرآن وهو ما في الجلد والغلاف كأدنى مراتب الإنسان، وهو ما في الإهاب البشرة»[٥٨].

ويعتقد العرفاء أنّ القرآن له مراتب متعدّدة وأعلى مرتبة له هي عند الله، وفي تلك المرتبة لا يوجد حديث عن الألفاظ والمعاني، بل هي حقائق وجودية نزلت على النبيﷺ بواسطة جبرئيل، وتنزّلت إلى مراتب أدنى على شكل ألفاظ ومعاني وتمّ إبلاغها للناس بواسطة النبيﷺ كما ذهب بعض المفسّرين إلى أن بعض الأولياء ومن خلال سلوكهم المعنوي إلى الله قد يصلون إلى مراتب وجودّية عالية، وحينئذ يتصلون ببطن القرآن[٥٩].

والمنطق الذي يحكم العلاقة بين القرآن من جهة وعالمي الآفاق والأنفس من جهة أخرى هو منطق التماثل التام والتطابق المطلق، أي كما أنّ القرآن كتاب إلهي مشتمل في صورته على الحروف والكلمات والآيات، فكذا عالما الآفاق والأنفس فإنهما كذلك كتابان إلهيآن ومصحفان ربّانيان، يشتملان صورة على الحروف والكلمات والآيات[٦٠].

٥٧- تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي: ج ٦، ص ٥٥.

٥٨- الأسفار الأربعة في الحكمة المتعالية، مصدر سابق: ج٧، ص ٣٩

٥٩- انظر. الآداب المعنوية للصلاة، مصدر سابق، ص: ٣١٨

٦٠- انظر. نظرية تأويل القرآن، كمال الحيدري: ص ١١٥ ـ ١١٦.

ويستدل العرفاء على هذا المدّعى بأنّ القرآن سمّى هذين العالمين (الآفاقي والأنفسي) بالكتاب، كما سمّى نفسه كتاباً، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٦١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٦٢]، وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٦٣]. وليس المراد بقوله منهما إلا كتابي الآفاق والأنفس، المعبّر عنهما في لغة أهل الباطن بالعالم الكبير والعالم الصغير[٦٤].

ويرى العرفاء أنّ التأويل على قسمين: تأويل باطل وهو تأويل أهل الزيغ والضلال الذين يأخذون المتشابهات دون المحكمات، ويعملون عليها ويؤّلونها على رأيهم واعتقادهم كالمجسّمة والمعطّلة.

والتأويل الحق وهو تأويل أرباب العلم وأهل الرسوخ منهم، وهذا بدوره ينقسم إلى قسمين: قسم يتعلّق بأهل الظاهر وأهل الشريعة ويتضمّن صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها ويطابق الكتاب والسنة، أو ردُّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، أو التوفيق والتطبيق بين المحكمات والمتشابهات ويكون ذلك بردّ المتشابهات إلى المحكمات. وهذا التأويل وإن كان حقّاً إلا أنه ينبغي أن لا يوقف عنده والاقتصار عليه، بل لابد من تجاوز ذلك إلى اعتبار القرآن طريقاً إلى معرفة الحق باستكناهه والدّخول إلى بواطنه، والسبب هو أنّ القرآن لمّا كان صورة إجمال عالَمَي الآفاق والأنفس وتفصيلهما، ولمّا كان ينطوي في ذاته بحسب صورته ومعناه على كلّ ما اشتمل عليه العالم من

٦١- سورة آل عمران: ٧.
٦٢- سورة الأعراف: ٥٢.
٦٣- سورة القصص: ٤٩.
٦٤- انظر. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، مصدر سابق: ج١، ص٤٤٦.

مركّبات وبسائط، فإنّ النظر فيه وقراءته وفهمه ومعرفة بواطنه واستنباط مضامينه وما استتر خلف الألفاظ والتراكيب اللغوية من وجوهه كلُّ ذلك نظر في العالم وإدراك له بتفصيل ما اشتمل عليه صورة ومعنى، ولمّا كان العالم بأكمله صورة، ومظهر ذاته وأسمائه وصفاته، تصبح معرفته بمظهره ومن خلاله، متوقفة على معرفة القرآن المشتمل عليه[٦٥].

وتأويل القرآن عند العرفاء ليس مسألة جائزة فحسب، بل هي مسألة ضروريّة لا يُستغنى عنها في فهم النص القرآني؛ وذلك لأن استخراج معاني القرآن واكتشاف أبعاده واستنباط مضامينه أمر واجب.

ويستدل العرفاء على هذا الوجوب من خلال قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ...﴾[٦٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾[٦٧].

وهذه الآيات من أعظم الأدلة على وجوب التأويل، والآية الأولى تشهد بأن التأويل واجب، ولكنّه يكون على قسمين:

الأول: تأويل للفتنة والفساد في الدين والاعتقاد، وهو تأويل أهل الزيغ والضلال الذين يأخذون المتشابهات دون المحكمات، ويؤولون على آرائهم واعتقادهم.

٦٥- انظر. العرفان الشيعي دراسة في الحياة الروحيّة والفكرية لحيدر الآملي، خنجر علي رحيمة: ص٧١٢

٦٦- سورة آل عمران: ٧.

٦٧- سورة الأعراف: ٥٢-٥٣.

والثاني: تأويل للخير والصواب والهداية والإرشاد، وهو تأويل أهل العلم وأرباب الكمال من العلماء الراسخين في العلوم الإلهية الذين يأخذون المحكم أصلاً والمتشابه فرعا، ويوفّقون بينهما ويؤولونهما على الوجه الذي ينبغي ؛ وذلك لرسوخهم في العلم الإلهي، وحسن تصرفهم في الكلام الرباني.

والآيتين الأخرتين تشهدان أيضا بأن التأويل واجب، لكن التأويل حقّ التأويل موقوف على المعصوم[٦٨].

الطريق للوقوف على تأويل القرآن عند العرفاء

يرى العرفاء أن تأويل القرآن وفهمه يعني الوقوف على عالمي الآفاق والأنفس؛ ولهذا فهم يرون أن معرفة عالمي الآفاق والأنفس متوقفة على معرفة القرآن وهو الطريق إليهما[٦٩].

والطريق للوقوف على تأويل القرآن ليس واحداً، بل هناك طريقان:

الأول: أن يرزق الإنسان ذلك، ويتحقّق له بلوغ غاية المعرفة بالقرآن بلا سابق جهدٍ وعملٍ، ولا سالف مجاهدة وتهذيب، وبلا دوام رياضة أو طاعة، بل بمحض العناية الإلهية، وبهداية ممنوحة بلا مقابل، ولا يحصل هذا الأمر إلا لمن اندرج في دائرة المحبوبين، وهم الذين تعلق حبُّ الله بهم، وتوجه شوقه إليهم ومنحهم هدايته منذ الأزل. وهذا مختّص بالأنبياء والأولياء عليهم السلام، وتقرّر أنّهم وصلوا إلى الله من غير سبب سابق، بل بمحض العناية وكمال المحبّة لهم، ولكمال شوقه إليهم وتحنّنه عليهم.

الثاني: هو طريق المجاهدة والترقّي والرياضة وتحصيل

٦٨- انظر تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، مصدر سابق: ج١، ص ٢٩٣.

٦٩- انظر. المصدر السابق، ج١، ص٢٤٧

الفضائل وقطع المنازل وطيّ المقامات والمراتب. وهو طريق الذين جعلهم في دائرة من يصفهم بالمحبّين، وذلك بأن يفيض الحقّ تعالى على قلب بعض عبيده بواسطة التقوى التي هي سيّد الأعمال كلّها، علماً فارقاً بين الحق والباطل، وسرّاً كاشفاً بين الظاهر والباطن.

يقول الآمدي: إعلم أنّ السلوك سلوكان: سلوك المحبوبيّة، وسلوك المحبيّة. فأمّا سلوك المحبوبيّة، فهو أن يكون وصول الشخص سابقاً على سلوكه، أعني أن يصل إلى كماله المتعيّن له من الله تعالى بغير واسطة عمل من الرياضة والتقوى والمجاهدة والسلوك.

وذلك يكون بمحض العناية من الله، وعين الهداية منه، وإليهم أشار في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٧٠] وأمّا سلوك المحبيّة، فهو أن يكون السلوك سابقا على الوصول، أي يكون حصوله المعيّن له بواسطة الرياضة والتقوى والمجاهدة والسلوك مع قطع المنازل وطيّ المراحل ؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٧١] وهم الذين يسلكون سبيل الحقّ على قدم السلوك والتقوى الرياضية، ويكون سلوكهم سابقا على وصولهم ؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٧٢] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٧٣]، ولقوله في الحديث القدسي: «من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، ومن تقرّب إليّ باعا مشيت إليه هرولة»[٧٤].

٧٠- سورة الأنعام: ٨٧.
٧١- سورة العنكبوت: ٦٩.
٧٢- سورة النحل: ١٢٨.
٧٣- سورة القمر: ٥٤-٥٥.
٧٤- انظر. مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال: ج٥، ص١٥٣.

والحاصل: أنّ عبداً من عبيده مثلاً إذا قام بالتقوى على ما ينبغي حقّها على ما هو عليه في الأمر نفسه، وزال عن قلبه بعد ذلك حجاب الكثرة والتفرقة، واضمحلّ عن مرآة نفسه دمن الظلمة والغفلة، ووصل إلى حد الصقالة والصفاء التام الكامل، أفاض عليه تعالى نوراً من أنواره، انفسخ به عن بصيرته، وانكشف له عالم الملكوت والجبروت، ونزل عليه من سماء جوده وفضله الحكمة والمعارف والعلوم والحقائق[٧٥].

ولكن الوصول إلى حقائق القرآن من خلال الرياضات النفسيّة عملٌ شاقٌ لا يستطيع أن يصل إليه أيّ أحد، وإنّ مكاشفاتهم لا يمكن إثباتها لمن ليس له القدرة على المكاشفات، وبالتالي ستكون حجية المكاشفات على أصحاب المكاشفات أنفسهم.

٧٥- انظر، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، مصدر سابق: ج١، ص ٢٦٤.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة، الإمام الخميني، ترجمة أحمد الفهري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣. الأشعري، علي بن إسماعيل الإبانة في أصول الديانة، تحقيق فوقية حسين محمّود، دار الأنصار، القاهرة، ط١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٤. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، منشورات الشريف الرضي ـ بيدار عزيزي، ط٣، ١٤١٥هـ.

٥. الاندلسي (ابن حزم)، علي بن أحمد الإحكام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٦. الغزالي، محمد بن محمد (أبو حامد) إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٧. الشيرازي، محمد، الأسفار الأربعة في الحكمة المتعالية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.

٨. الحيدري، كمال أصول التفسير والتأويل مقارنة منهجية بين آراء الطباطبائي وبعض المفسرين، مؤسسة الامام الجواد للفكر والثقافة، إيران، ط٤، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

٩.الكليني، محمّد بن يعقوب أصول الكافي، تحقيق قسم إحياء التراث في مركز بحوث دار الحديث، قم، ط٢، ١٤٣٠هـ.

١٠. المرتضى، علي بن الطاهر الأمالي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

١١. المجلسي، محمد باقر بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ.

١٢. الزركشي، محمد بن عبد الله البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

١٣. الاسترابادي، علي- تأويل الآيات الظاهرة، شرف الدين، بدون تاريخ وذكر الناشر.

١٤. الجرجاني، علي بن محمد التعريفات، مكتبة لبنان، طبعة جديدة ١٩٨٥م.

١٥. التستري، سهل بن عبد الله، تفسير القرآن العظيم، حققه وضبطه: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمّد علي، دار الحرم للتراث، ط١، ٢٠٠٤م.

١٦. الشيرازي، محمد، تفسير القرآن الكريم، تصحيح: محمّد خواجوي، انتشارات بيدار، قم، بدون تاريخ أو ذكر الطبعة.

١٧. البحراني، أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية) التفسير الكبير، تعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ

١٨. الآملي، حيدر، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، حققه وقدّم له وعلّق عليه: السيد محسن الموسوي التبريزي، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، ط١، ١٤١٤هـ.

١٩. الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٢٠. معرفة، محمد هادي التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، ١٤٢٩هـ.

٢١. رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، بدون تاريخ.

٢٢. الطبري، محمد بن جريرجامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: هاني الحاج وعماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٣. الأمين، حسن، دائرة المعارف الشيعيّة، دائرة المعارف الشيعيّة، دار التعارف للمطبوعات، ط٦، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٤. إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٠٨هـ.

٢٥. الطباطبائي، محمّد حسين، الشيعة في الإسلام، بيت الكاتب للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٩م.

٢٦. الآملي، حيدر، العرفان الشيعي دراسة في الحياة الروحيّة والفكرية خنجر علي رحيمة، دار الهادي، ط١، ١٤٠٥هـ

٢٧. الطباطبائي، محمّد حسين، القرآن في الإسلام، تعريب الشيخ أحمد وهبي، دار الولاء، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٨.الإفريقي، محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٩. الأندلسي، علي بن أحمد المحلى بالآثار، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٥م.

٣٠. بابائي، علي أكبر، مدارس التفسير الإسلامي، تعريب: محمّد حسين حكمت وكمال السيّد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.

٣١. الحسن، طلال، مراتب فهم القرآن، مؤسسة العرفان للثقافة الإسلاميّة، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٣٢. الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث، مؤسسة الإمام الخوئي، بدون تاريخ.

٣٣. ابن فارس، أحمد بن فارس معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمّد هارون، دار صادر بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣٤. المعتزلي، عبد الجبّار المغني في أبواب التوحيد والعدل، الشركة العربية، مصر، ط١، ١٣٨٠هـ.

٣٥. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، منشورات ذوي القربى، قم المقدّسة، ط٣، ١٤٢٤هـ.

٣٦. الأندلسي، علي بن أحمد الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، ٢٠١٤م.

٣٧. طرابيشي، جورج، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث النشأة المستأنفة، دار الساقي، بيروت، لبنان.

٣٨. الطباطبائي، محمّد حسين الميزان في تفسير القرآن، منشورات ذوي القربى، قم، ط١، ١٤٣٠هـ

٣٩. الحيدري، كمال نظرية تأويل القرآن، دار فراقد، إيران، ط٢، ١٤٢٧ه ـ ٢٠٠٦م.

٤٠. موقع ملتقى أهل التفسير الألكتروني.(vb.tafsir.net//https:)

المصادر الأجنبية

١. قباديانى، ناصر خسرو وجه دين، الناشر: أساطير، طهران، ١٣٩٤هـ. ش (فارسي).

٢. شاكر، محمّد كاظم قرآن در آينه تحقيق، الناشر: هستي نما، ١٣٨٣ هـ.ش.(فارسي).

٣

جذور تدوين القرآن الكريم

الشيخ محمد جبار منصور البهادلي
أستاذ في الحوزة العلميّة ـ قم المقدسة

مقدمة

حمل بحثنا اسم «**جذور تدوين النص القرآني**» وهو من البحوث المهمّة في دراسة علوم القرآن، وقد أثير الجدل حول تدوين القرآن وجمعه في حياة الرسول صلى الله عليه وآله أم في عهد الصحابة.

وإن البحث في تدوين القرآن وجمعه يعد من المسائل الخلافية بين المسلمين إذ اختلفوا في كيفية تدوينه وجمعه، وتساءلوا عن الذي تصدّى لجمعه، وانقسمت الأقوال في ذلك إلى قولين:

الأول: إنه دُوّن وكُتب وجُمع على عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وهذا عليه مشهور الإمامية وبعضٌ من الفرق الأخرى.

الثاني: إنه جمع بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وعلى هذا مشهور العامة وقليل من الخاصة، وينقسم إلى قولين:

أحدهما: إنه جُمع في عهد أبي بكر وعمر.

وثانيها: إنه جُمع في عهد عثمان.

المبحث الأول
تعريف الجذر والتدوين

الجذر لغة: الأصل من كلّ شيء، وقال ابن سيدة: «وجذر كلّ شيء أصله، والجمع جذور»[١].

الجذر اصطلاحاً: كلامنا في جذور تدوين القرآن أي أصل تدوين القرآن.

وعلى هذا يكون المعنى الاصطلاحي متوافق مع المعنى اللغوي.

التدوين لغة: الديوان مجتمع الصحف، وإنما هو فعال من دوّنت، وقال أبو عبيدة هو فارسي معرّب وقال ابن الأثير: الديوان هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء[٢].

التدوين اصطلاحًا: هو قريب للمعنى اللّغوي وتدوين القرآن، أي: كتابة القرآن ويُطلق جماعة كلمة التدوين ويقصدون منه الجمع. وأغلب من كتب في علوم القرآن إذا ذكر التدوين يقصد به الجمع، وهم يريدون القرآن كاملاً، وسيتضح هذا أكثر من خلال البحوث الآتية، ولكن نحن نفرّق بين التدوين والجمع، ونقصد بالتدوين بداية كتابة الآيات والسور كأساس، بعد ذلك يأتي الجمع، فلا يقال: لمن حفظ القرآن: إنه دوّنه، بل يقال: جمعه، ومنه يظهر الفرق؛ لأن الحفظ من معاني الجمع كما يأتي[٣].

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج٤، ص١٢٣. مادة جذر.

(٢) المصدر نفسه:ج ١٣،ص١٦٦. مادة دون.

(٣) حسب تتبعي القاصر ما وجدت تعريفاً مصطلحاً للتدوين إلا الجمع ونحن نفرّق بين الجمع، والتدوين ونعتبر التدوين مرحلة سابقة عن الجمع، كما سيتضح في طيّات البحث فلا يقال للقرآن: إنه ديوان.

تعريف الجمع في اللّغة و الاصطلاح

الجمع لغة:

جمع الشيء عن تفرقه يجمعه جمعاً وجمعه واجمعه، فاجتمع، فاستجمع السيل، أي: اجتمع من كلّ موضعٍ وأمرٍ جامعٍ يجمع الناس، وفي التنزيل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يستأذنونك أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤].

وكما جاء في قول النبي صلى الله عليه وآله: «أوتيت جوامع الكلم»[٥].

وفي صفته صلى الله عليه وآله: أنه كان يتكلّم بجوامع الكلم، أي: إنهُ كثير المعاني وقليل الألفاظ[٦].

الجمع اصطلاحاً: جمع القرآن له معنيان:

أولاً: «حفظه على سبيل الاستيعاب، ومنها: قولنا: جُمّاع القرآن أي: حفّاظه».

ثانياً: «كتابته وتسجيله»[٧].

المبحث الثاني
في معرفة العرب الكتابة قبل نزول القرآن

قبل الحديث عن جذور تدوين القرآن ينبغي لنا الإحاطة بظروف معرفة العرب ـ ولا سيما أهل مكة والمدينة ـ الكتابةَ وقراءةَ المكتوب في الحقبة السابقة لنزول القرآن الكريم.

(٤) سورة النور: ٦٢.
(٥) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٢، ص٢٥٠.
(٦) لسان العرب، ابن منظور: مادة الجمع: ج ٨ ص٥٤.
(٧) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم: ص٢٢.

كتب الكثير في أحوال العرب قبل الإسلام وبما أن بحثنا حول التدوين والكتابة، فسنذكر أحوالهم في هذا الجانب على نحو الاختصار، وقد استفدنا من الدكتور جواد علي في كتابه (المفصّل في تأريخ العرب قبل الإسلام) قال: «وأنا لا أريد أن أثبت هنا أن العرب كانت أمة تقرأ وتكتب ، وإنها كانت ذات مدارس منتشرة في كلّ مكان من جزيرتهم تعلّم الناس القراءة والكتابة والعلوم الشائعة... ولا يمكن أن يدّعيه أحد... فأهل البوادي ولا سيما البوادي النائية عن الحواضر هم أميّون ما في ذلك من شك... وأما أهل الحواضر فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب كما كان بينهم الأمي أي: الجاهل بالقراءة والكتابة، وكان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم المسند، وكان بينهم من يقرأ ويكتب بالقلم الذي دُوّن به القرآن الكريم.

وجاء بشواهد لذلك من أن الأحناف كانوا يكتبون ويقرأون، وبعضهم يكتب بالأقلام العجمية مثل: ورقة بن نوفل وأنه كان في الحيرة معلّمون يعلّمون الأطفال القراءة والكتابة، وإن لقيط بن يعمر الأيادي الشاعر كتب صحيفة إلى قوم أياد، وأن جفينة العبادي وهو من نصارى الحيرة كان كاتباً قدم المدينة في عهد عمر وصار يعلّم الكتابة فيها، وإن خالد بن الوليد حينما نزل الأنبار رآهم يكتبون بالعربية ويتعلّمونها فسألهم: ما أنتم؟ قالوا: قوم من العرب، وإن خالد بن الوليد وجد أهل النقيرة يعلّمون أولادهم الكتاب في كنيستها وهي قرية من قرى عين التمر.. ولما فتح خالد حصن عين التمر وغنم ما فيه وجد في بيعتهم أربعين

غلاماً يتعلّمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم ثم أخرجهم فقسمهم في أهل البلاد.

وإنّا نجد في روايات الأخبار أن عدداً من الشعراء الجاهليين كانوا يكتبون ويقرأون.. ومنهم سويد بن الصامت والزبرقان بن بدر وكعب بن زهير وكعب بن مالك الأنصاري والربيع بن زياد العبسي، وكان هو وإخوته من الكملة، وقد كتب إلى النعمان بن المنذر يعتذر إليه. وأن أهل دومة الجندل كانوا يكتبون ويقرأون، وأن أهل مكة إنما تعلّموا الكتابة من أحدهم وأن قوماً من طي تعلّموا الكتابة من كاتب الوحي لهود، وأن بشر بن عبد الملك السكوني أخا أكيدر بن عبد الملك تعلّم الخط العربي من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية وأبو قيس بن عبد مناف يكتب، فسألاه أن يعلّمهما الخط فعلّمهما الهجاء، ثم أراهما الخط فكتبا.

وكان قيس بن نشبة عم الشاعر العباس بن مرداس السلمي أو ابن عمه من الكتبة والعباس بن مرداس نفسه كان كاتباً، وحرب بن أمية كان يكتب وعمرو بن عمرو بن عدس كان يكتب قبل الإسلام وأسيد بن أبي العيص كان من الكتاب.

وكان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم[٨] في جلد أدم وكان حنظلة بن أبي سفيان ممن يحسن الكتابة والقراءة، وكان بغيض بن عامر بن عامر بن هاشم من كتّاب قريش قبل الإسلام وهو الذي كتب الصحيفة على بني هاشم، وورد أن أبا الروم بن عبد شرحبيل هو الذي كتب الصحيفة.

(٨) وهو جد الرسول ﷺ لأبيه وعرف بالمكارم والخصال الحميدة وقد كان يحب حفيده حباً شديداً و مهتماً برعايته وتعليمه فمن البعيد جداً أن لا يعلم حفيده الكتابة في الحالة البشرية الطبيعية.

وكان نافع بن ظريب القرشي ممن يكتب، وكان حاطب بن أبي بلتعة من الكُتّاب، وكان الحكم بن أبي أحيحة من الكُتّاب، وأمره رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعلّم الكتّاب بالمدينة[٩].

فيظهر من هذا أنَّ الكتابة موجودة قبل الإسلام وإن كانت بهذا الشكل اليسير والعدد القليل، ولكن هذه نواة أولى وعندما جاء الإسلام- وحثّ القرآن والنبي صلى الله عليه وآله على الكتابة بشكل واضح- توسّعت أساليب الكتابة وتنّوعت الأدوات وكثر عدد الكتّاب كما سنبين إن شاء الله تعالى.

المبحث الثالث
أدوات التدوين

١ـ **العسب:** جمع عسيب، وهو جريد النخل بعد تجريده من الخوص يكتب على الطرف العريض منه. ومثلها الكرانيف، مفردها الكرناف وهي أصول الكرب تبقى الجذع بعد قطع السعف[١٠].

٢ـ **اللّخاف:** (بكسر اللام) جمع لَخفة (بفتح اللام)، وهي صفائح الحجارة الرقاق.

٣ـ **الرقاع:** جمع رقعة، وتكون من جلد أو ورق.

٤ـ **الأكتاف:** جمع كتف، وهو عظم بعير أو شاة، إذا جفّ كتبوا عليه.

٥ـ **الأقتاب:** جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليحمل عليه.كان يستعمل لنقش الكتاب عليه. وهذا بالإضافة إلى الحرير الذي كان يكتب عليه[١١] ولا يخفى أن

(٩) مكاتيب الرسول صلى الله عليه وآله، الأحمدي الميانجي: ج١، ص١٩٨، وبعدها باختصار، ونحن أتينا بما جمعه لأنه أوسع.

(١٠) القاموس المحيط، الفيروزبادي: ص٧٨٣.فصل الكاف من الفاء.

(١١) موجز علوم القرآن، داوود العطار: ص١٥٤ـ١٥٥.

هناك ورقا كان يكتب القرآن عليه وهذا سيأتينا في محله إن شاء الله[١٢].

الجهة الأولى: كتابة القرآن الكريم وكتّابه في عهد النبي صلى الله عليه وآله:

١ـ تأكيد القرآن والسنة على الكتابة

الإسلام شجّع على الكتابة بصورة عامة وكتابة القرآن خاصة، فقد انتشرت الكتابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، بل كانت متعارفة في وقته.

أمّا القرآن الكريم: فكانت أول سورة نزلت: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[١٣].

وقال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[١٤] «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون به وظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم ومطلق ما يسطرون به وهو المكتوب، فإن القلم وما يسطر به من الكتابة من أعظم النعم الإلهية التي اهتدى إليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار والمعاني المستكنة في الضمائر، وبه يتيسر للإنسان أن يستحضر كلّ ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجاباً.

وقد امتنّ الله سبحانه على الإنسان بهدايته إليهما وتعليمهما له، فقال في الكلام: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[١٥]، وقال في القلم: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١٦].

فاقسامه تعالى بالقلم وما يسطرون اقسام بالنعمة»[١٧].

ومنها: آية الدّين، فإنها صريحة بالأمر بالكتابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١٢) انظر: ص١٨ من هذا البحث.
(١٣) سورة العلق: ٣ـ٤.
(١٤) سورة القلم: ١.
(١٥) سورة الرحمن: ٣ـ٤.
(١٦) سورة القلم: ٤ـ٥.
(١٧) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي: ج١٩، ص ٣٨٣و...

آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٨].

أيعقل أن الله يأمر بكتابة الدّين ولا يأمر بكتابة القرآن المعجزة والشاهد على صدق دعوى رسولهﷺ؟!. فإن قال قائل: إنها أموال الناس والله أراد الحفاظ عليها، أقول: الأمر ورد في القرآن فلابد من المحافظة على الدستور بكتابته حتى يستمر الحفاظ على حقوق الآخرين ويتيّقن الناس أن هذا الأمر مكتوب في الدستور.

وأما الرسولﷺ فقد وردت روايات عدَّة تحثّ على الكتابة:

وعن عبد الله بن عمرو، قال: «قلت: يا رسول الله أقيّد العلم؟ قال: نعم، قلت: وما تقييده؟ قال: الكتابة»[١٩].

ومن ذلك: أن النبيﷺ أول من دوّن الدواوين، فقد كان عند النبي ديوان فيه أسماء كلّ المسلمين، وديوان فيه أسماء المجاهدين.

(١٨) سورة البقرة: ٢٨٢.

(١٩) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١، ص١٥٢.

عن حذيفة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «اكتبوا لي من تلّفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل، فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة، فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف»[٢٠].

وعن عبد الله بن عمرو، قال: كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا إنك تكتب كلّ شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ورسول الله صلى الله عليه وآله بشر يتكلّم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منى إلا حق»[٢١].

فهذا كلّه يكشف عن شيوع الكتابة أيام البعثة وكان الناس عامة مدركين لفائدتها وضرورتها خاصة في الأمور المهمّة، وقد عدّ ابن عساكر الكتّاب بين يدي النبي صلى الله عليه وآله ٢٤ كاتباً من كتّاب الوحي وغيره، كما في تاريخ دمشق ج٤. فكيف جوّز الرواة والباحثون على النبي صلى الله عليه وآله مع إيمانهم ببعد نظره وعمق تفكيره وتسديده بوحي الله تعالى، أن لا يهتم بكتابة القرآن وجمعه والقرآن هو كتاب الدّعوة الإلهية ومعجزتها، والذي بواسطته كان النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون يدعون الناس إلى الإسلام.

إن الأحاديث تشهد بأن النبي صلى الله عليه وآله أمر بتدوين القرآن وكتابته وترتيبه بوضع كلّ آية في سورتها، بل كان هو الذي يملي على الكتّاب القرآن، أخرج ابن الضريس عن ابن عباس، قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة كتبت بمكّة، ثم يزيد الله فيها ما شاء، وكان أول ما نزل من القرآن: (إقرأ باسم ربك)، ثم المزمل، ثم المدثر[٢٢].

(٢٠) صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري: ج٤، ص٣٣.
(٢١) مسند احمد، احمد بن حنبل: ج٢، ص١٦٢.
(٢٢) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج٦، ص٢٤٩.

٢ـ كُتّاب الوحي:

اختلف أهل التاريخ والمهتمون في علوم القرآن في عدد كُتّاب الوحي في العهدين المكّي والمدني، ونحن نعرض بعض الأسماء التي تثبت ذلك وتكشف في الوقت نفسه أن القرآن كان مدوّناً في عهد النبي صلى الله عليه وآله.

كتّاب الوحي في مكّة

الأول: علي بن أبي طالب عليه السلام

قال الرافعي: «اتفقوا على أن من كتب القرآن فأكمله - وكان قرآنه أصلاً للقرآين المتأخرة - علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود»(٢٣).

وقال الطبري: «علي بن أبي طالب عليه السلام، وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحي، فإن غابا كتبه أبي بن كعب، وزيد بن ثابت»(٢٤).

وقال ابن شهر آشوب في المناقب: «كان علي عليه السلام يكتب أكثر الوحي ويكتب غير الوحي»(٢٥).

الثاني: شرحبيل بن حسنة:

قال عنه في السيرة الشامية: إنه أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقال بعض المؤلفين: «ولا يمكن أن يكون المقصود بالأولية المطلقة هنا إلا ما قبل هجرة هذا الصحابي إلى الحبشة»(٢٦).

الثالث: عثمان بن عفان:

واعتمد بعضهم في ذلك على هذا الخبر: «أما والله أنها لأول كف خطت المفصّل»(٢٧). وغيره من الأخبار، وهو ممن هاجر للحبشة وانقطع عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٢٣) انظر: مكاتيب الرسول، الأحمدي الميانجي: ج١، ص ١٢٥.

(٢٤) تاريخ الطبري، محمد بن جرير: ج٥، ص٢٤.

(٢٥) المناقب ابن شهر آشوب: ج ١، ص ١٤٠.

(٢٦) وثاقة نقل النص القرآني، محمد حسن جبل: ص ١٩٠.

(٢٧) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج١، ص ١٤٠.

الرابع: خالد بن سعيد بن العاص بن أمية:

يقال: إنه أسلم قديماً وأول من كتب البسملة[٢٨].

الخامس: حنظله بن الربيع بن صيفي الأسدي:

وشهرته حنظله الكاتب قال بن حجر: «لأنه كتب للنبي صلى الله عليه وآله الوحي»[٢٩].

كُتّاب العهد المدني:

الأول: علي بن أبي طالب:

كما مرّ سابقا. والمصادر من الفريقين ذكرت ذلك، بل أنه لم يفارق النبي صلى الله عليه وآله وكان صلى الله عليه وآله في كلّ يوم يرفع له علماً، بل ما نزلت آية إلا وأمره بكتابتها[٣٠].

الثاني: أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي:

فإنه من كُتّاب الوحي، كما نصّ عليه كثيرون.

الثالث: زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي.

قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة، فلذلك لم يشهد بدر الصغرى ولا أحداً، وأول مشاهده الخندق والسنة الرابعة أمره النبي صلى الله عليه وآله أن يتعلّم كتاب اليهود.

قال ابن مسعود: «لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وآله بضعاً وسبعين سورة وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان يلعب مع الغلمان»[٣١] فهو تعلّم الكتابة في السنة الثانية بعد بدر وعلى كلّ حال عدّه بعض من الكتّاب الملازمين للكتابة.

الرابع: عثمان بن عفان:

حيث عدّه بعضهم من كتّاب المدينة وكذلك أبان بن سعيد[٣٢].

(٢٨) وثاقة النص القرآني، محمد حسن جبل: ج١، ص١٩٠.

(٢٩) المصدر نفسه: ص١٩١.

(٣٠) انظر: مكاتيب الرسول: ج١، ص ٢٢٣، وما بعدها.

(٣١) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج١، ص٤١١.

(٣٢) وثاقة النص القرآني، محمد حسن جبل: ص١٩٥.

وأضاف بعض الدارسين: من كتّاب الوحي معاوية بن أبي سفيان الذي أسلم بعد عام الفتح وقد أصرّ بنو أمية على نشر هذا والإكثار من الأحاديث في ذلك، وترك من لازم الرسول صلى الله عليه وآله قبل البعثة وبعدها، عيبة علم رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام.

نقد وتحليل

أولاً: لا يخفى على أهل النظر أن الأسماء المذكورة ليست على نحو الحصر؛ لأنه ذُكرت أسماء أخرى يطول الكلام بها.

ثانياً: حاول كثير التركيز على شخصيتين وكثر الحديث فيهما حتى تصوّر بعضهم أنهما الأعلم والأقرب وهما أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وقد التقيا برسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة كما مرّ ولكن ليس من المعقول أنهما ينالان هذه المرتبة عند الرسول صلى الله عليه وآله ويكونان من الأمناء بهذه السرعة والكيفية؟!.

ثالثاً: من الواضح جداً عند أهل النظر والتحقيق أن ممّن ذكرناه لم يكتب القرآن كلّه عن النبي صلى الله عليه وآله إلا علي عليه السلام؛ لأنه كان ملازماً للنبي صلى الله عليه وآله وكتب القرآن وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله في مدة البعثة النبوية المباركة، وإليك رواية تبين مدى حرص النبي صلى الله عليه وآله لتعليم علي عليه السلام.

عن زيد بن علي قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما دخل رأسي نوماً ولا عهد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى علمت من رسول الله صلى الله عليه وآله ما نزل به جبرائيل في ذلك اليوم من حلال أو حرام أو سنة أو أمر أو نهى فيها نزل فيه وفيمن نزل فخرجنا فلقيتنا المعتزلة[٣٣] فذكرنا ذلك لهم، فقال: إن هذا الأمر عظيم كيف يكون هذا وقد كان

(٣٣) فرقة إسلامية اختلفت الأقوال في سبب تسميتها بالمعتزلة وفي تاريخ تسميتها ولها أفكار خاصة بها، وتشترك وتختلف مع باقي الفرق في العقائد. من أراد المزيد فليراجع كتاب الملل والنحل: للشيخ جعفر السبحاني، ج٣.

أحدهما يغيب عن صاحبه فكيف يعلم هذا؟ قال: فرجعنا إلى زيد فأخبرناه بردّهم علينا فقال: يتحفظ على رسول الله صلى الله عليه وآله عدد الأيام التي غاب بها، فإذا التقيا قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي نزل عليّ في يوم كذا وكذا وكذا وفى يوم كذا وكذا حتى يعدّهما عليه إلى آخر اليوم الذي وافى فيه فأخبرناهم بذلك)[٣٤].

هذة الرواية إذا أضفناها إلى روايات كتابة الوحي يظهر لك أن الشخص الوحيد الذي كتب القرآن كلّه بين يدي النبي صلى الله عليه وآله هو وصيه ووزيره الإمام علي عليه السلام.

رابعاً: عدم كتابة القرآن كلّه عن النبي صلى الله عليه وآله من قبل بعض كتّاب الوحي لا يلزم منه عدم الجمع؛ لأن الجمع تارة عن لسان النبي صلى الله عليه وآله كما صنع علي عليه السلام، وأخرى يجمعه من النبي صلى الله عليه وآله وغيره كما صنع زيد، لأنه أدرك النبي صلى الله عليه وآله في المدينة.

خامساً: هناك من جمع القرآن ولم يكن معروفاً من كتّاب الوحي.

(٣٤) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار: ص ٢١٧.

المبحث الرابع:
تدوين القرآن وجمعه أيام الرسول صلى الله عليه وآله

سنذكر في هذا المبحث روايات أمر الرسول صلى الله عليه وآله فوراً بتدوين القرآن النازل وممكن أن نجعلها تحت عنوان فوريّة التدوين، وكذلك نذكر بعض الروايات من نَسَخَ القرآن ووجود المصاحف أيام النبي صلى الله عليه وآله، وبعد ذلك نذكر الروايات التي أمر الرسول صلى الله عليه وآله بها بوضع الآيات في بعض السور وأخيراً نذكر

الروايات الصريحة والظاهرة بجمع القرآن أيام الرسول صلى الله عليه وآله، وهو ما نريد أن نثبته في هذا البحث إن شاء الله.

الجهة الأولى: روايات فوريّة تدوين القرآن

روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

١ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله أجابني، وإن فنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت عليه آية في ليلٍ ولا نهارٍ ولا سماءٍ ولا أرضٍ ولا دنيا ولا آخرةٍ ولا جنةٍ ولا نارٍ ولا سهلٍ ولا جبلٍ ولا ضياءٍ ولا ظلمةٍ إلا أقرأنيها وأملاءها عليّ وكتبتُها بيدي وعلّمني تأويلها وتفسيرها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها...»[٣٥].

٢ـ عن الحسن بن راشد، قال: سمعت أبا إبراهيم عليه السلام يقول (في حديث طويل): «ثم نزل الوحي على محمّد صلى الله عليه وآله فجعل يملي على عليّ عليه السلام ويكتب علي عليه السلام...»[٣٦].

٣ـ عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن علي عليه السلام، قال: ما كتبنا عن النبي صلى الله عليه وآله إلا القرآن[٣٧].

روايات مدرسة الصحابة:

١ـ قال ابن عباس: «...فدعا الرسول صلى الله عليه وآله الكُتّاب وكتبوها من ليلتهم إلا ست آيات فإنها مدنيات...»[٣٨].

٢ـ عن البراء قال: لمّا نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٩] قال النبي صلى الله عليه وآله: ادعوا فلاناً فجاءه ومعه الدواة واللّوح أو الكتف، فقال: اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وخلف

(٣٥) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار: ص٢١٨.
(٣٦) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي: ج٢٦،ص٢٧.
(٣٧) صحيح البخاري، البخاري: ج٤، ص٦٩.
(٣٨) تفسير الرازي، فخر الدين الرازي: ج ١٢، ص١٤١.
(٣٩) النساء: ٩٥.

النبيﷺ ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله أنا ضرير، فنزلت مكانها﴿لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ...﴾(٤٠).

٣ ـ عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت، قال: «كنت أكتب لرسول اللهﷺ فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول اللهﷺ ينظر ما ينزل عليه...الخبر»(٤١).

هذه الروايات واضحة تكشف عن حرص النبيﷺ على تدوين القرآن وأن التدوين كان على عهدهﷺ، وتكشف في الوقت نفسه عن استعداد الكُتّاب في كلّ وقت حتى لا يفارقهم القلم، انظر إلى النبيﷺ لم ينتظر إلى الصباح لكتابتها كما في الرواية الأولى، أيعقل ممّن يملك هذا الحرص أن يترك القرآن من غير جمع؟!

الجهة الثانية: توقيفية الآيات والسور

عقد السيوطي في الإتقان فصلاً في توقيفية الآيات والسور وذكر فيه بعض الروايات ونحن نستفيد من هذه الروايات لإثبات التدوين و الجمع أيام الرسولﷺ.

قال السيوطي: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك. وأما الإجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفهﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين انتهى.

(٤٠) صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري: ج٥، ص ١٨٣.

(٤١) تفسير ابن أبي حاتم، ابن أبي حاتم الرازي: ج٦، ص ١٨٤. إذا كان زيد كتب براءة فكيف ينسجم مع روايات الجمع وأنه لم يكتبوها حتى جاء خزيمة ؟.

ومنها: ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر * (بسم الله الرحمن الرحيم) * ووضعتموها في السبع الطول؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وآله تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل في المدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر * (بسم الله الرحمن الرحيم) * ووضعتها في السبع الطول.

وقال ابن الحصار ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وآله ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»[٤٢].

فلا يبقى مجال لادعاء الزركشي وغيره بأن النبي والمسلمين لم يكتبوا القرآن في عهده صلى الله عليه وآله بحجة أنهم كانوا ينتظرون اكتمال نزوله!. قال: «وإنما لم يكتب في عهد النبي صلى الله عليه وآله مصحف لئلا يفضي إلى تغييره في كلّ وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته صلى الله عليه وآله»[٤٣].

(٤٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ج ١، ص١٦١ وما بعدها. ونحن أخذنا منه موضع الحاجة.

(٤٣) البرهان، الزركشي: ج ١، ص ٢٦٢.

فهذا المؤلف يتكلّم عن التغيير في القرآن كأنه كتاب تحت التأليف لأمثاله، ينتظر الناشرون اكتماله لينشروا نسخته ! ولكن السورة الواحدة من القرآن كانت حدثاً عقدياً وفكرياً وسياسياً، وكان المسلمون يستقبلون نزولها بأرواحهم قبل ألسنتهم، ويكتبونها لأنفسهم ولدعوة الناس بها إلى الإسلام! ثم إذا نزلت آية أو سورة جديدة كتبوها أيضا![٤٤].

ولا ينقضي العجب ممن يقرّ أن النبي صلى الله عليه وآله كان مهتماً بترتيب الآيات ونظمها وأن الترتيب بأمر السماء ولا يهتم بنظم القرآن كلّه وكتابته وجمعه.

ولا يعترض قائل: بإن هذه تدل على الترتيب في القلوب؛ لأن كلماتها صريحة في التأليف والكتابة..

أما ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن... الحديث، فلا ينافي ذلك لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتّب السور»[٤٥].

هذا إقرار منهم على أن القرآن كلّه مكتوب على عهد النبي صلى الله عليه وآله، إلا إنهم يدّعون أنه لم يكن مجموعاً لكن هذه الدّعوى لا تصمد أمام الروايات الظاهرة بالتأليف والجمع.

الجهة الثالثة: روايات نسخ القرآن ووجود المصحف

سيتضح لكل منصف كيف يأمر النبي صلى الله عليه وآله بكتابة القرآن ونسخه وكان المسلمون ينسخون القرآن والمصحف وأن الرجل

(٤٤) تدوين القرآن، علي الكوراني: ص٢٣٦.
(٤٥) الإتقان، جلال الدين السيوطي: ج١، ص١٦٠.

المسلم كان يأتي بالورق إلى النبيﷺ فيأمر النبي الصحابة فينسخوا له القرآن.

١ـ عن علي بن الحسين عن ابن عباس، قال: «كانت المصاحف لا تباع، كان الرجل يأتي بورقه عند النبيﷺ فيقوم الرجل فيحتسب فيكتب، ثم يقوم آخر فيكتب، حتى يفرغ من المصحف»(٤٦).

٢ـ عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «سألته عن شراء المصاحف وبيعها، فقال: إنما كان يوضع الورق عند المنبر وكان ما بين المنبر والحائط قدر ما تمر الشاة أو رجل منحرف قال: فكان الرجل يأتي ويكتب من ذلك. ثم إنهم اشتروا بعد ذلك. قلت: فما ترى في ذلك ؟ قال لي: أشتري أحب إلي من أن أبيعه، قلت: فما ترى أن أعطي على كتابته أجراً؟ قال: لا بأس ولكن هكذا كانوا يصنعون»(٤٧).

٣ـ عن أنس قال: «قال رسول اللهﷺ: سبعة يجري للعبد أجرهن من بعد موته وهو في قبره: من علّم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته»(٤٨).

وعلى هذا لا يبقى مجال لما روي عن زيد بن ثابت أنه جمعه من قلوب الرجال المعرّضة للتبدّل والنسيان.

الجهة الرابعة: روايات الجمع عند مدرسة الصحابة

افرد السيوطي في كتابه (علوم القرآن) في النوع العشرين عنواناً سماه (في معرفة حفّاظ القرآن ورواته) ولكنه غفل عن أن

(٤٦) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج١، ص٨٣.
(٤٧) فروع الكافي، الكليني: ج٥، ص١٢١.
(٤٨) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج١، ص٦٧.

العنوان لا ينطبق كليا على المعنون؛ لأن أغلب الروايات تدلّ على الجمع وهو لغة واصطلاحاً يفيد جمع آيات القرآن وسوره في السطور أيام الرسول صلى الله عليه وآله وهذا ظاهر جداً من الروايات والحكم للقارئ المنصف.

١ـ وروى البخاري عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أربعة كلّهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي[٤٩].

٢ـ روى أيضاً عن طريق ثابت عن أنس قال: مات النبي صلى الله عليه وآله ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[٥٠].

وقد علق أبو بكر الباقلاني رادّاً على حصر أنس الجمع بالأربعة بقول: «المراد بالجمع الكتابة فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظاً عن ظهر قلبه، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب»[٥١].

ونحن لا نريد أن نعلّق على الحصر بالأربعة؛ لأنه واضح البطلان في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وفي مدرسة الصحابة، وبما أن الرواية في صحيح البخاري فلم يقدروا على ردّها فحاول كثير توجيهها بتوجيهات بعيدة جداً عن المراد بكلمة الجمع، ولا يخفى ظهور الرواية بجمع القرآن أيام الرسول صلى الله عليه وآله.

٣ـ وأخرج النسائي عن عبد الله بن عمر، قال: جمعت القرآن فقرأت به كلّ ليلة فبلغ النبي صلى الله عليه وآله فقال: أقرأه في شهر... الحديث.

(٤٩) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي: ج١، ص ١٨٥.
(٥٠) المصدر نفسه.
(٥١) المصدر نفسه: ص ١٨٥.

٤ـ وأخرج البيهقي في المدخل عن ابن سيرين، قال: جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة لا يُختلف فيهم: معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد، وأبو زيد، واختلفوا في رجلين من ثلاثة أبي الدرداء، وعثمان، وقيل: عثمان، وتميم الداري.

٥ـ وقال ابن حجر: قد ذكر ابن أبي داود فيمن جمع القرآن قيس بن أبي صعصعة، وهو خزرجي يكنى أبا زيد، فلعله هو وذكر أيضاً سعد بن المنذر بن أوس ابن زهير وهو خزرجي لكن لم أر التصريح بأنه يكنى أبا زيد، قال: ثم وجدت عند ابن أبي داود ما رفع الإشكال، فإنه روى بإسناد على شرط البخاري إلى ثمامة عن أنس أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن قال وكان رجلاً منّا من بني عدي بن النجار أحد عمومتي ومات ولم يدع عقباً ونحن ورثناه[٥٢].

٦ـ (...عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله نؤلّف القرآن من الرقاع. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وفيه الدليل الواضح أن القرآن إنما جمع في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله»[٥٣].

وقال السيد الخوئي قدس سره: «ولعل قائلاً يقول: إن المراد من الجمع في هذه الروايات هو الجمع في الصدور لا التدوين، وهذا القول دعوى لا شاهد عليها، أضف إلى ذلك ـ أنك ستعرف ـ أن حفّاظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا أكثر من أن تحصى أسماؤهم، فكيف يمكن حصرهم في أربعة أو ستة؟! وإن المتصفّح لأحوال الصحابة وأحوال النبي صلى الله عليه وآله يحصل له العلم اليقين

(٥٢) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي: ج١، ص ١٨٨.
(٥٣) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج٢، ص ٦١١.

بأن القرآن كان مجموعاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأن عدد الجامعين له لا يستهان به[٥٤].

أقول: ممكن أن يكون الجامع للقرآن غير حافظ له والعكس أيضاً صحيح يعني بينهما عموم وخصوص من وجه.

إذاً، أصبح من الواضح جدّاً أن جمع القرآن كان على عهد النبي صلى الله عليه وآله، بل كان مجموعاً عنده وكلّه مكتوب ومدوّن فلا يصح القول: إنه قد جمع على عهد الصحابة، وأما تجميع المكتوب وربطه بخيطٍ أو بجلدٍ واحد فلا يصدق عليه الجمع المصطلح والمقصود من هذا البحث، وإن صح التعبير هو عملية تجليد أو حفظ في كيس، أو غيرها ليحافظ على أوراقه، أو صفحاته والروايات المتقدّمة خير دليل على هذا المعنى ولا سيّما الأخيرة.

(٥٤) البيان، الخوئي: ص٢٤٩.

فلو أُشكل علينا بما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام من طرق الفريقين بأنه جمع القرآن بعد الرسول صلى الله عليه وآله فكيف ينسجم هذا مع ما تقدّم من روايات الجمع في عهد الرسول صلى الله عليه وآله.

الجواب: إن جمع علي عليه السلام هو جمع القرآن على ترتيب نزوله وأسبابه مع تفسيره وإلا فان علي عليه السلام قد دوّن القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وآله كما مرّ عليك.

الردّ على روايات جمع القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله

لعل قائل يقول: فماذا نصنع بالروايات التي ذكرت الجمع بعد الرسول صلى الله عليه وآله واختلفوا في نسبته هل هو لأبي بكر، أو عمر، أو زيد، أو عثمان؟. أكتفي في الجواب عن هذه الروايات والشبهة

بما ردّ بعض علمائنا من أهل النظر والتحقيق في هذه النقاط.

١ ـ تناقض أحاديث جمع القرآن:

إنها متناقضة في أنفسها، فلا يمكن الاعتماد على شيء منها.

٢ ـ إنها معارضة بروايات الجمع في عهد الرسول صلى الله عليه وآله:

إن هذه الروايات معارضة بما دلّ على أن القرآن كان قد جُمع، وكتب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله[٥٥].

٣ ـ تعارض أحاديث الجمع مع الكتاب:

إن هذه الروايات معارضة بالكتاب، فإن كثيراً من آيات الكتاب الكريمة دالة على أن سور القرآن كانت متميّزة في الخارج بعضها عن بعض، وإن السور كانت منتشرة بين الناس، حتى المشركين وأهل الكتاب، فإن النبي صلى الله عليه وآله قد تحدّى الكفّار والمشركين على الإتيان بمثل القرآن، وبعشر سور مثله مفتريات، وبسورة من مثله، ومعنى هذا: أنَّ سور القرآن كانت في متناول أيديهم. وقد أطلق لفظ الكتاب على القرآن في كثير من آياته الكريمة، وفي قول النبي صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتي»[٥٦]، وفي هذا دلالة على أنه كان مكتوباً مجموعاً، لأنه لا يصح إطلاق الكتاب عليه وهو في الصدور.

٤ ـ مخالفة أحاديث الجمع مع حكم العقل:

إن هذه الروايات مخالفة لحكم العقل، فإن عظمة القرآن في نفسه، واهتمام النبي صلى الله عليه وآله بحفظه وقراءته، واهتمام المسلمين بما يهتم به النبي صلى الله عليه وآله وما يستوجبه ذلك من الثواب، كلّ ذلك ينافي جمع القرآن على النحو المذكور في تلك الروايات، فإن في

(٥٥) انظر: البيان، السيد الخوئي: ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٥٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام الشيخ الصدوق: ج١، ص ٢٠٨.

القرآن جهات عديدة كلّ واحدة منها تكفي لأن يكون القرآن موضعاً لعناية المسلمين، وسببا لاشتهاره حتى بين الأطفال والنساء منهم، فضلاً عن الرجال.

٥ ـ مخالفة أحاديث الجمع للإجماع:

إن هذه الروايات مخالفة لما أجمع عليه المسلمون قاطبة من أن القرآن لا طريق لإثباته إلا التواتر، فإنها تقول: إن إثبات آيات القرآن حين الجمع كان منحصراً بشهادة شاهدين، أو بشهادة رجل واحد إذا كانت تعدل شهادتين، وعلى هذا فاللازم أن يثبت القرآن بالخبر الواحد أيضاً، وهل يمكن لمسلم أن يلتزم بذلك ؟ ولست أدري كيف يجتمع القول بصحة هذه الروايات التي تدلّ على ثبوت القرآن بالبيّنة، مع القول بأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، أفلا يكون القطع بلزوم كون القرآن متواتراً سبباً للقطع بكذب هذه الروايات أجمع؟ ومن الغريب أن بعضهم كابن حجر فسّر الشاهدين في الروايات بالكتابة والحفظ[٥٧].

(٥٧) المصدر نفسه: ص١٥٠، وما بعدها.

أحاديث جمع الصحابة والتحريف

إن هذه الروايات لو صحت، وأمكن الاستدلال بها على التحريف من جهة النقص، لكان اللازم على المستدل أن يقول بالتحريف من جهة الزيادة في القرآن أيضاً، لأن كيفية الجمع المذكورة تستلزم ذلك، ولا يمكن له أن يعتذر عن ذلك بأن حدّ الإعجاز في بلاغة القرآن يمنع من الزيادة عليه، فلا تقاس الزيادة على النقيصة، وذلك لأن الإعجاز في بلاغة القرآن وإن كان يمنع عن

الإتيان بمثل سورة من سوره، ولكنه لا يمنع من الزيادة عليه بكلمة أو بكلمتين، بل ولا بآية كاملة، ولا سيما إذا كانت قصيرة، ولولا هذا الاحتمال لم تكن حاجة إلى شهادة شاهدين، كما في روايات الجمع المتقدّمة، فإن الآية التي يأتي بها الرجل تثبت نفسها أنها من القرآن أو من غيره. وإذاً فلا مناص للقائل بالتحريف من القول بالزيادة أيضاً وهو خلاف إجماع المسلمين(٥٨).

وأما على القول بجمع القرآن أيام النبيﷺ كما ظهر لا يبقى لمدّعي التحريف حجة سواء بالزيادة أو النقيصة.

تذييل:

لو دققنا النظر في رواية زيد لكفى في بطلان فكرة جمع القرآن من قبل الصحابة.

(إن زيد بن ثابت الأنصاري كان ممن يكتب الوحي قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرّاء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول اللهﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر قال زيد بن ثابت وعمر، عنده جالس: لا يتكلّم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول اللهﷺ فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من

(٥٨) البيان، الخوئي: ص٢٤٥ وما بعدها. وانظر: كتاب مدخل التفسير، الشيخ الفاضل اللنكراني: ص٢٧٨.

جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وآله، فقال أبو بكر: هو والله خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر، وعمر فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم...»[٥٩] إلى آخرها وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[٦٠].

وإليك بعض الملاحظات التي سجلناها على ذلك:

أولاً: إن رواية زيد تكشف عن فتح باب جديد للاجتهاد أو حفظ المصالح على مصراعيه بذريعة الخير وذلك مما يظهر من اعتراض زيد من أن هذا الأمر لم يعمله رسول الله صلى الله عليه وآله، فأجابوه بأنه خير، فهل فات رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخير فلم يجمع القرآن أو لم يوصي بجمعه لو تنزلنا أنه لم يجمعه؟ وهل الجماعة أحرص من الله جلّ وعلا و النبي صلى الله عليه وآله على حفظ القرآن. اعتقد أن هذه الذريعة هي التي شجّعت عمر على الاجتهاد مقابل النص من إبداع أشياء جديدة و منع أمور مشروعة لم ينسخ حكمها[٦١].

ثانيا: ذكر صاحب الإتقان عن الصحاح إن من القرّاء والحفّاظ هو زيد من ثابت، بل ممن جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وآله.

يظهر أن زيداً مأمور بالجمع والآمر لم يتهمّه في دينه ولا في عقله، فلمَ لم يكتب ما حفظه؟ ويكفي المؤمنين المسألة ولا ينتظر

(٥٩) سورة التوبة: ١٢٨، ١٢٩.

(٦٠)صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري: ج٥، ص٢١١.

(٦١) تجد التفصيل باجتهاده مقابل النص في كتابي الغدير للأميني، والنص والاجتهاد. للسيد عبد الحسين شرف الدين.

آخر سورة التوبة حتى يأتي بها خزيمة، ولِمَ ردّ عمر عندما ادّعى بعض الآيات وطلب منه شاهداً ولم يقل له أنا حافظ ولا يوجد هذا في القرآن؟

ثالثًا: بعض أخبار القوم ذكرت أن أبا بكر كان حافظاً للقرآن «قال والذي يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ففي الصحيح أنه بنى مسجداً بفناء داره فكان يقرأ فيه القرآن»(٦٢).

فلمَ لم يجتمع أبو بكر مع زيد ويكتبونه وهما شاهدان على مبناهم؟

رابعاً: أضف إلى ذلك، أنَّ الرواية كانت خالية من طلب الشاهدين وهل طلب الشاهدين مع مدعي الآيات كما هو الظاهر فيكون خزيمة يحتاج إلى شاهد واحد معه، أو يقصد شاهد واحد مع مدعي الآيات وهذا اجتهاد مقابل النص.

خامساً: أقول دلالة رواية زيد هذه تنافي الرواية السابقة(٦٣) من أن زيداً كتب سورة التوبة بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله فكيف فقد آخر التوبة وانتظرها عند خزيمة ؟؟

سادساً: رواية قتل القرّاء باليمامة ما المقصود منها هل هم قرّاء فقط أم قرّاء وحفّاظ؟ فالعدد مبالغ فيه لأن بعض الأخبار تقول: الحفّاظ للقرآن حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله أقل من هذا العدد، بل هي متضاربة العدد مما يجعل استفهام حولها، وإن كان أُكثر فيعلّم الباقي غيرهم ويبقى الحفظ مستمر ولا داعي للخوف.

خلاصة أهل التحقيق

قال السيد الخوئي قدس سره: «إن إسناد جمع القرآن إلى الخلفاء أمر موهوم، مخالف للكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، فلا يمكن

(٦٢) الإتقان، السيوطي: ج١، ص ١٨٧.

(٦٣) انظر: ص ١٦ من هذا البحث.

القائل بالتحريف أن يستدل به على دعواه، ولو سلّمنا أن جامع القرآن هو أبو بكر في أيام خلافته، فلا ينبغي الشك في أن كيفية الجمع المذكورة في الروايات المتقدمة مكذوبة، وأن جمع القرآن كان مستنداً إلى التواتر بين المسلمين، غاية الأمر أن الجامع قد دوّن في المصحف ما كان محفوظاً في الصدور على نحو التواتر»(٦٤).

وقال السيد محمد باقر الحكيم قدس سره: «والواقع أن النصوص والروايات التي جاءت تتحدث عن قصة الجمع ليست متفقة على صيغة واحدة ولا على مضمون واحد، فهي تنسب الجمع إلى أشخاص مختلفين، كما أنها تختلف في زمان الجمع وطريقته والعهد الذي تم فيه. وهي من أجل ذلك كلّه لا يمكن الأخذ بمضمونها الفعلي للتعارض الذي يسقطها عن الاعتبار والحجية ـ كما ذكر علماء الأصول ـ وإنما يمكن أن نفسّر وجودها بأحد تفسيرين:

الأول: إن هذه الروايات جاءت بصدد الحديث عن جمع القرآن بشكل (مصحف) منتظم الأوراق والصفحات، الأمر الذي تم في عهد الصحابة، وليست بصدد الحديث عن عملية أصل تدوين القرآن وجمعه بمعنى كتابته عن بعض الأوراق المتفرقة أو صدور الرجال كما تشير إليه بعض هذه الأحاديث. وهذا التفسير يقوم على أساس فرض الالتزام بصحة المضمون الإجمالي الذي تؤكده الروايات بأكملها وهو حدوث عملية جمع للقرآن الكريم بعد النبي صلى الله عليه وآله.

الثاني: إن هذه الروايات إنما هي قصص وضعت في عهود متأخرة عن عهد الصحابة لإشباع رغبة عامة لدى المسلمين في معرفة كيفية جمع القرآن»(٦٥).

(٦٤) البيان، الخوئي: ص٢٥٦.
(٦٥) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم: ص١٣.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، المطبعة: نور، الطبعة الأولى، سنه ١٣٨٠، قم المقدسة.

٢- ابن كثير، البداية والنهاية تحقيق: علي شيري، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ م المطبعة: الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٣- الزركشي، البرهان تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٣٧٦ ـ ١٩٥٧ م المطبعة: الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

٤- الموسوي الخوئي، السيد أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، سنه ١٤١٣ـ ١٣١٧، قم المقدسة.

٥- المجلسي، العلامة محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار. تحقيق: محمد الباقر البهبودي، عبد الرحيم الرباني الشيرازي الطبعة: الثانية المصححة سنة الطبعة: ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م المطبعة: الوفاء، الناشر: مؤسسة الوفاء ـ بيروت ـ لبنان.

٦- الصفار، محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات، تحقيق: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٤ ـ ١٣٦٢ ش، المطبعة: مطبعة الأحمدي ـ الناشر: منشورات الأعلمي ـ طهران.

٧- الكوراني العاملي، الشيخ علي، تدوين القرآن، معاصر، الطبعة: الأولى سنة الطبع: ١٤١٨ هجري، المطبعة: باقري، الناشر: دارالقرآن الكريم.

٨- فخر الدين الرازي، تفسير الرازي: الطبعة: الثانية سنة ٢٠٠٤م، طبع ونشر دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٩- الرازي، محمد بن إدريس، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطبيب المطبعة: دار الفكر، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ـ لبنان.

١٠- معرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، دار التعارف

للمطبوعات، قام بطبعه الوجيه المهندس وحيد خاكي قم المقدسة، سنه ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١ م.

١١- السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق الطبعة، المطبعة: الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

١٢- القشيري النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم المؤلف: المطبعة: دار الفكر، الناشر: دار الفكر - بيروت - لبنان.

١٣- البخاري، صحيح البخاري، سنة الطبع: ١٤٠١ ـ ١٩٨١م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٤- الحكيم، السيد محمد باقر، علوم القرآن، منشورات المجمع العلمي الإسلامي، مطبعة الاتحاد، سنه ١٤٠٣ هـ، طهران.

١٥- الأميني النجفي، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٣٩٧ - ١٩٧٧م المطبعة: والناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

١٦- الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، طبعه الثانية، سنه ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م، لبنان.

١٧- الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٣٦٣ ش، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية – طهران.

١٨- ابن منظور، لسان العرب المؤلف، سنة الطبع: محرم هـ، ١٤٠٥ المطبعة : الناشر: نشر أدب الحوزة

١٩- شرف الدين، السيد عبد الحسين، النص والإجتهاد، تحقيق: أبو مجتبى، الطبعة: الأولى سنة، الطبع: ١٤٠٤، المطبعة: سيد الشهداء عليه السلام - قم. الناشر: أبو مجتبى.

٢٠- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن. الطبعة:

الأولى سنة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، طبع ونشر: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات لبنان- بيروت.

٢١- الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي الطبعة: سنة الطبع: المطبعة والناشر: دار المعرفة - لبنان، بيروت.

٢٢- أحمد بن حنبل، مسند أحمد، المطبعة: الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.

٢٣- الأحمدي الميانجي، مكاتيب الرسول، تحقيق: الطبعة: الأولى ـ مصحّحة ومنقحة ومزيدة، سنة الطبع: ١٩٩٨م، المطبعة: دار الحديث، الناشر: دار الحديث.

٢٤- الهيثمي، مجمع الزوائد، سنة الطبع: ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨م، الناشر: دار الكتب العلمية لبنان.

٢٥- الفاضل اللنكراني، محمد، مدخل التفسير، نشر مركز فقه الأئمة الأطهار عليهم السلام، الطبعة الأولى ١٤٢٨هجري قمري، المطبعة: اعتماد ـ قم المقدسة.

٢٦- العطار، داوود، موجز علوم القرآن، الطبعة الأولى.سنة١٤٢٥ قمري، المطبعة: اُفق، نشر: منشورات ذي القربى.

٢٧- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف سنة الطبع : ١٣٧٦ - ١٩٥٦ م المطبعة: الحيدرية - النجف الأشرف، الناشر: المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف

٢٨- محمد حسن حسن جبل، وثاقة نقل النص القرآني الكريم، معاصر، مكتبة الآداب الطبعه: الأولى، سنه ٢٠٠٩م، القاهرة.

٢٩- الطبرسي، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تحقيق: نخبة من العلماء، ط الرابعة، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ـ لبنان.

٣٠- الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تحقيق: الشيخ حسن الأعلمي المطبعة: مطابع مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ لبنان، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٤

إضاءات قرآنية حول موضوع الفتنة

السيد محمد خلف علي الشوكي
ماجستير تفسير وعلوم قرآن

مقدمة

تشهد أمتنا الإسلامية في عصرها الراهن دوّامات عنيفة، وتيارات عاتية من الفتن والمحن المتعدّدة الأوجه والأبعاد، فمن الفتن السياسية الظالمة إلى الفتن الفكرية القاتمة إلى الفتن الدينية التي أخذت تستشري في المجتمعات الإسلامية وتهدّد وحدتها وانسجامها وتمزّق نسيجها الاجتماعي المتماسك.

ولابد في النجاة من الفتن وعدم الغرق في لُجّتها من وعي الفتنة ومعرفة طبيعتها ومكوّناتها وأساليبها وآثارها، فإن وعي الفتن يحصّن الإنسان من تداعياتها التي تفسد دنياه وآخرته.

ولم يغفل القرآن الكريم هذا الموضوع الخطير والحسّاس الذي عانى منه المسلمون في الصدر الأول، بل أكثر الحديث عنه وتناوله عبر شبكة من الآيات التي غطّته من زوايا متعدّدة.

وفي هذه المقالة المقتضبة نحاول أن نلقي بعض الإضاءات حول هذا الموضوع من زاوية قرآنية.

مفهوم الفتنة في القرآن

قبل الخوض في تفاصيل موضوع الفتنة وأبعاده المختلفة لابد أن نقوم بجولة مفاهيمية سريعة لتحديد مفهوم الفتنة في القرآن الكريم؛ لأن ذلك يشكلّ أمراً مفتاحياً مهمّاً في فهم بنية موضوع الفتنة في الكتاب العزيز.

وعندما نرجع إلى المعاجم اللغوية والتفاسير المختلفة نجد أنها أبرزت مجموعة من المعاني لمفردة الفتنة، فقالوا: إن الفتنة تعني: إدخال الذّهب في النار لتظهر جودته، وهي أيضاً تعني: الإحراق، وذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[١]. أي: يحرقون.

وهي تأتي بمعنى: الاختبار والامتحان، كما في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[٢]. أي: يمتحنون ويختبرون. وكذلك قوله تعالى: ﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٣].

وكذلك تأتي بمعنى: العذاب، كما ذكروا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[٤]. إذ قالوا في معنى: (فتنوا المؤمنين والمؤمنات)، أي: عذّبوهم. وتأتي بمعنى الشرك، وذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٥]. أي حتى لا يكون هناك شرك على الأرض ويكون الدّين كلّه لله تعالى. وذكروا: أن من معانيها الجنون كما في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾[٦].

(١) سورة الذريات: ١٣.
(٢) سورة العنكبوت: ٢.
(٣) سورة الانبياء: ٣٥.
(٤) سورة البروج: ١٠.
(٥) سورة البقرة: ١٩٣.
(٦) سورة القلم: ٦.

وذكروا لها معانٍ أخرى، كالإضلال، والفضيحة، وشدة العشق والوله، والإعجاب، والمحنة وغير ذلك[٧].

ويرى المصطفوي رحمه الله في (التحقيق): أن الفتنة في الأصل تعني: الاختلال والاضطراب[٨]. وهو معنى جامع لا بأس به، ويمكن إرجاع كلّ المعاني الأخرى إليه. فالامتحان والاختبار مثلاً يتم عندما تختلُّ حالة الإنسان السابقة وتتبدّل إلى حالة أخرى، كمن كان غنياً فيختبره الله بالفقر ويمتحنه بأن تختل حالته المادية ويضطرب حاله عندما يصاب بالفقر، والشرك والكفر الذي هو من معاني الفتنة يُعدّ نوع اختلال واضطراب في الفطرة والعقيدة السليمة. وفتنة الذّهب بمعنى: إدخاله النار غير خارجة عن هذا المعنى، فإن فيه اختلالاً واضطراباً عند إدخاله النار وصهره.

وكذلك ما ذُكر من معنى العذاب فيها، فإن العذاب يشكلّ اختلالاً واضطراباً في النفس والجسم، وأيضاً ما ذُكر من معنى الجنون، فإن الجنون اختلال واضطراب في العقل، وأيضاً الوله وشدة العشق، فإنه يسبّب اختلالاً واضطراباً في نفس الإنسان، فترى العاشق الولهان المفتون مضطرب الحال مضطرب القلب مضطرب النوم وغير ذلك.

فالذي أراه أن ما ذكره المصطفوي متين، وهو أن كلّ ما يوجب اختلالاً واضطراباً في الجسم أو النفس أو العقل أو العقيدة أو في السلوك أو في المجتمع أو في المال فهو فتنة.

نعم ورد كثيراً في الاستعمال القرآني والروائي للفظ الفتنة معنى الإبتلاء والاختبار وما يرتبط به، فقد استعمله القرآن كثيراً في هذا المعنى، وهو لا يتنافى مع المعنى المذكور كما عرفت.

(٧) راجع لسان العرب، ابن منظور: ج ١٣، ص٣١٧ وما بعدها، ومفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص٣٧١، وغير ذلك.

(٨) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي: ج٩، ص ٢٤.

الفتنة سنة عامة:

قلنا آنفاً: إن القرآن الكريم استعمل الفتنة كثيراً في معنى الإبتلاء والاختبار والامتحان، وبناء على ذلك نرى القرآن الكريم يصرّح بأن الفتنة هي سُنّة تاريخية عامّة في جميع المجتمعات البشرية غير قابلة للاستثناء، فما من فرد من الأفراد إلا ويتعرّض للفتنة في حياته الخاصة أو العامة؛ وذلك لأن الدنيا في الأساس هي دار ابتلاء واختبار يمتحن الله فيها عباده بالخير والشر حتى يتميّز الخبيث من الطيب، فينال الطيب ما يستحقه من الثواب باستحقاق وجدارة، وينال الخبيث ما يستحقه من عذاب ونكال كذلك، يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[٩].

فالحياة الدنيا هي دار ابتلاء واختبار، ولهذا لا تنفكّ عن الفتنة في أوجهها المتعدّدة، ولا ينفكُّ الفرد فيها من أن يتعرّض للفتنة في حياته. يقول تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ﴾[١٠].

إذاً لا ينجو من الفتنة أيُّ أحد حتى الإنسان المؤمن، فلا يظن الإنسان أنه بدخوله في الإيمان سوف يملك حصانة من الفتن، وذلك أن الله تعالى يفتنه بين الفينة والأخرى؛ ليختبر صدق إيمانه، إذ أنَّ الإيمان ليس مجرد ادّعاء، بل لابد أن يثبت الإنسان صدق إيمانه وعمقه، لذلك يعرّض الله عباده للفتنة من أجل أن يتميّز الصادق والكاذب في الإيمان، بل أكثر من هذا فإن الفتنة

(٩) سورة الملك: ٢.
(١٠) سورة العنكبوت: ١-٣.

لا تقتصر على الإنسان المؤمن فحسب، بل تشمل حتى الأنبياء والمرسلين، يقول تعالى في داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾[١١]. ويقول في موسى عليه السلام: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾[١٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في الأنبياء عموماً: «كانوا قوماً مستضعفين، قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخّضهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضى والسخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والاقتدار»[١٣].

فالله تعالى سوف يفتننا كما فتن الذين من قبلنا، بل يظهر من النصوص الشريفة أن فتن آخر الزمان من أبعد الفتن غوراً وأشدها خطراً، جاء في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام عن جده أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ألا إن بليتّكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله، والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة، ولتغربلنّ غربلة، ولتساطنّ سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سباقون كانوا قصروا، وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا»[١٤].

وقوله عليه السلام: «ولتساطن سوط القدر» فيه تشبيه دقيق لشدة الفتنة وعنف دوامتها بحيث تلفُّ الناس وتدور بهم حتى يختلط بعضهم ببعض كما تختلط أجزاء الطعام ومكوناته عندما تساط في القدر ويغدو أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها.

وعن أبي جعفر عليه السلام: «إنه لابد من أن تكون فتنة يسقط فيها

(١١) سورة صّ: ٢٤.
(١٢) سورة طه: ٤٠.
(١٣) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ج٢، ص١٤٤، خطبة: ١٩٢.
(١٤) الكافي، الكليني: ج١، ص٣٦٩.

كلّ بطانة ووليجة، حتى يسقط فيها من يشق الشعر بشعرتين»[١٥].

وهنا أيضاً يتحدث الإمام عليه السلام عن شدة تلك الفتنة، وعظم تلك المحنة، واختلاط الحق والباطل فيها بحيث يصعب حتى على الخبير البصير أن يبصر فيها ويتلمس مواضع الحق، فهي فتنة يسقط فيها الخبراء البصراء المدققون فضلاً عن عامة الناس وعوامهم. «من يشق الشعر» كناية عن الدّقة في التشخيص.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «لتكسرنّ كسر الزجاج، وإن الزجاج ليعاد فيعود، والله لتكسرّن كسر الفخار وإن الفخار ليتكسرُنّ ولا يعود كما كان، والله لتغربُلنّ، ووالله لتُميزنّ، ووالله لتمحصّنّ حتى لا يبقى منكم إلا الأقل»[١٦].

ويفهم من كلامه عليه السلام أن تلك الفتن والمحن والابتلاءات يسقط فيها قوم ثم يرجعون إلى الحق والهدى كما يرجع الزجاج بعد تكسره، ويسقط فيها آخرون سقوطاً أبدياً فيعيشون الحيرة والضلال إلى آخر عمرهم.

وعن أبي جعفر عليه السلام: «لتمُحصُنّ يا شيعة آل محمد تمحيص الكحل في العين، وإن صاحب الكحل يدري متى ما يقع الكحل في عينه، ولا يعلم متى يخرج منها، وكذلك يصبح الرجل على شريعة من أمرنا ويمسي وقد خرج منها، ويمسي على شريعة من أمرنا ويصبح وقد خرج منها»[١٧]. فإن تلك الفتن تفقد كثيراً من الناس معرفة الحق والثبات عليه، فترى التلوّن والتقلّب في العقائد والمواقف هو الطابع العام لأكثرهم، ولا يستقيم على الحق إلا القليل.

(١٥) الكافي، الكليني: ج١، ص ٣٧٠.
(١٦) الغيبة، الشيخ الطوسي: ص ٣٤٠.
(١٧) الغيبة، النعماني: ص ٢١٤.

وفي حديث أبي عبد الله عليه السلام: «ولتكفأن كما تكفأ السفن في أمواج البحر». وفيه كناية عن شدة تلك الدوّامات من الفتن، التي تشبه أمواج البحر العاتية في شدتها، فتكون الأمة فيها تتكفأ وتموج ولا تستقر كما تتكفأ السفينة في أمواج البحر العاتية.

الفتنة بالنعمة والنقمة:

ذكرنا أن القرآن الكريم استعمل الفتنة في كثير من الآيات بمعنى الاختبار، والاختبار بحدّ ذاته يمتدّ ليشمل الخير والشر، النعمة والنقمة على حدّ سواء. وإلى هذا المعنى يشير الباري عزّ وجلّ بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[١٨].

فعلى سبيل المثال نجد أن الله تعالى كما يفتن الإنسان بالفقر ليرى هل يصبر على فقره ويسلّم أمره إلى ربه ويرضى بما قسم الله له أم لا؟ كذلك يفتن الإنسان بكثرة الأموال والغنى والثراء المفرط ليرى هل يشكر هذه النعمة أم يبطر؟.

وفي بعض الأحيان يكون الإبتلاء بالغنى والنعمة أشدّ وأخطر من الإفتتان بالفقر؛ لأن الفقر يذكّر والغنى ينّسي. الفقير يذكر ربه ويلجأ إليه ويستعين به ويدعوه في أن يغنيه ويكشف غمّه ويفرّج همّه، ولكن النعمة تقسّي وتنسّي.

ولذلك ترى بعض الأثرياء لا ينسون الفقراء فقط، بل ينسون ربهم ويتكبّرون عليه، كما صنع قارون الذي آتاه الله ﴿مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[١٩] فتكبّر على ربه وأنكر عظيم نعمته عليه. فلما قال له الصالحون من قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ

(١٨) سورة الأنبياء: ٣٥.
(١٩) سورة القصص: ٧٦.

﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢٠]، أجابهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي...﴾[٢١]، من هذا المنطلق نرى النبي صلى الله عليه وآله يحذّر المسلمين من فتنة الغنى، فقد مرّت عليهم سنين عجاف ذاقوا فيها ألواناً من الفقر والحرمان، ولكنهم لم يفقدوا إيمانهم، فكان يتخوّف عليهم أن تمرّ عليهم بعد ذلك سنين من النعمة والرّخاء فتدّمر إيمانهم. روى الشيخ الصدوق في الخصال بسنده عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنما أتخوف على أمتي من بعدي ثلاث خصال: أن يتأوّلوا القرآن على غير تأويله، أو يتبّعوا زلة العالم، أو يظهر فيهم المال حتى يطغوا ويبطروا»[٢٢]. وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس فقال: «لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدُّنيا»[٢٣]. وروى ابن ماجة في سننه بسنده عنه صلى الله عليه وآله قال: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكنّي أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[٢٤].

نعم، فتنة المال شديدة، وكذلك فتنة الأولاد، ولهذا نرى القرآن الكريم يرّكز عليهما. يقول تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢٥]. فالأولاد أيضاً من مواضع الفتنة الشديدة، وذلك باعتبار العلاقة الخاصة والرابطة الوجدانية الشديدة التي تربط الإنسان بأولاده، والتي قد تؤدي

(٢٠) سورة القصص: ٧٦-٧٧.
(٢١) سورة القصص: ٧٧.
(٢٢) الخصال، الشيخ الصدوق: ص١٦٤.
(٢٣) صحيح مسلم، مسلم: ص٣، ج١٠١.
(٢٤) سنن ابن ماجة، ابن ماجة: ٢ج، ص ١٣٢٣.
(٢٥) سورة الأنفال: ٢٨.

بالإنسان إلى أن يقوم ببعض الأعمال الخاطئة في سبيلهم، كما لو يتعامل بأمور غير مشروعة ويكسب كسباً حراماً في سبيل التوسعة عليهم أو تأمين مستقبلهم، ولا سيما في أجواء المنافسة الشديدة مع الأسر الأخرى، أو مع الوضع الاجتماعي ككل.

وقد يمنعه أولاده من ممارسة بعض الواجبات الإسلامية أو بعض الخصال الحسنة، فقد روي عن النبيﷺ يقول: «الولد مجبنة مبخلة مجهلة محزنة»[٢٦].

ومعنى مجبنة: أنه يؤدي إلى الجبن؛ لأنه يشدُّ الأب إلى الحياة وكراهية الموت ما يدفعه إلى التقاعس عن فريضة الجهاد مثلاً. ومعنى مبخلة: أنه يجعل الإنسان يمسك يده عن العطاء حتى يوفر لعياله وأولاده حياة مرفهة. ومعنى مجهلة: أن الأب يعزُّ عليه أن يفارقه ويذهب مهاجراً لطلب العلم.

ومعنى محزنة: أنه سبب لحزن الأبوين، فإذا مرض حزنا وإذا أصيب حزنا، وإذا اصابه مكروه لم يناما ليلهما، وهذا من مصاديق الفتنة في الأولاد.

وكذلك من مواضع الفتنة في الأولاد هو انجرار الآباء وراء مواقف الأبناء بدافع العاطفة الكبيرة، فربما ينجرُّ الأب إلى موقف ما؛ لأن ابنه يقف ذلك الموقف ويسير في خط معين، ولدينا في التاريخ أمثلة كبيرة على ذلك.

الفتن الفردية والاجتماعية:

من الفتن ما هو فردي يتعلّق بذات الفرد دون غيره من بقية أفراد المجتمع، وذلك كفتنة المال والولد التي سبق الحديث

(٢٦) الجامع الصغير، السيوطي: ج١، ص ٣٢٩.

عنها، إذ تنصبّ الفتنة على الإنسان ذاته بغض النظر عن الآخرين، ففرد يفتتن بماله، وآخر بجماله، وثالث بولده، ورابع بقوته، وما إلى ذلك.

وكذلك فتنة الشيطان التي أشار إليها القرآن الكريم بالقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢٧).

فإن فتنة الشيطان بعضها يسير على نحو فردي إذ يمارس كلّ أساليب الإغواء في صرف الإنسان عن الحق والهدى ورميه في مهاوي الضلال والفساد. هذه الفتنة تلازم الإنسان بطريقة فردية حتى لو كان منعزلاً لوحده عن المجتمع.

وهناك بطبيعة الحال الفتن المجتمعية، التي تعُم المجتمع بأجمعه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾(٢٨).

فالفتنة منصّبة هنا على جماعة المؤمنين.

وتتنوّع الفتن الاجتماعية بين فتن فكرية وثقافية، وأخرى دينية، وثالثة سياسية، وغير ذلك، إلا أن الفتن الدينية تُعدّ من أهم الفتن وأخطرها على الإطلاق، وهذا ما دعا القرآن الكريم لأن يعدها أكبر من القتل ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾(٢٩). وبطبيعة الحال فإن الفتن الدينية لا تبقى دينية صرفة، وإنما تدخل فيها عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية كثيرة كما سنشير بعد قليل.

(٢٧) سورة الأعراف: ٢٧.
(٢٨) سورة البروج: ١٠.
(٢٩) سورة البقرة: ٢١٧.

خطورة الفتنة الدينية:

إن الآية من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣٠].

تتحدّث بالأساس - كما نفهم من سياقها- عن الفتنة الدينية التي يمارسها الكفار والمشركون، ويعدها القرآن الكريم أشدّ من القتل بالرغم من أن القتل من أكبر الجرائم في الحياة البشرية، وذلك لأن الفتنة تنتج القتل أساساً، ولكنه ليس القتل العادي، وإنما القتل العشوائي غير المنضبط.

ففي القتل الفردي يعمد الشخص إلى قتل شخص ما لخصومةٍ ما، أو لغير ذلك من الدوافع، بينما في أجواء الفتنة يكون القتل بالجملة وبلا حساب، إذ يُقتل الصغير، والكبير، والمرأة، والطفل، والرجل المسالم دون أن يدري لماذا قتل وبأي سبب.

ولعل الإمام علي عليه السلام يشير إلى ذلك بقوله: «وَالٍ ظَلُومٌ غَشُومٌ خَيْرٌ مِنْ فِتْنَةٍ تَدُومُ»[٣١].

وإنَّ القتل العادي يفقد الإنسان حياته الدنيوية، بينما الفتنة ولاسيما الدينية منها - وهي مورد حديثنا - تفقد الإنسان حياته الأخروية فضلاً عن الدنيوية، وهذا هو الأخطر، فإن الحياة الأخرى هي الحياة الحقيقية الخالدة، وأما الدنيا، فإنما هي محطة

٣٠) سورة البقرة: ٢١٧.
(٣١) عيون الحكم والمواعظ، علي الواسطي ص٥٠٥.

من المحطات التي نقف فيها ثم نغادرها باتجاه المقر. يقول تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٣٢).

وإنَّ الفتنة الدينية إذا ما حدثت فلا تقتصر على البعد الديني فقط، وإنما لها انعكاسات وتبعات كثيرة: اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، ونفسية وغير ذلك. وفي كثير من الأحيان يكون الدّين في الواجهة، ولكن هناك مصالح سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية هي التي تحرّك الفتنة وتديرها، فيستغل بعضُ المغرضين الدّين كوسيلة يستغفلون بها الناس، أو يدفعونهم من خلالها إلى أجواء الفتنة، بحيث يبرز أرباب الفتنة على أنهم إنما يدافعون عن دين الناس وفي الحقيقة هم يدافعون عن مصالحهم الخاصة أو يريدون تمرير بعض الأهداف الأخرى من خلال فوضى الفتنة وتحت عباءة الدّين.

(٣٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

الفتن الخارجيّة والدّاخليّة:

من خلال رصدنا للآيات التي تتحدّث عن موضوعة الفتن نرى أن مصادر الفتن قد تكون خارجية يقوم بها الكافرون المناوئون للإسلام من أجل صدّ الناسِ وردّهم عن الدّين، وقد تكون داخليّة يقوم بها بعض أفراد المجتمع المنتمين إليه ظاهراً من أجل مصالح خاصة بهم.

وهذه الفئة الداخليّة يقوم بها ما يعبّر عنه القرآن الكريم بتيّار (النفاق).

هؤلاء في الحقيقة هم مشاريع فتنة على طول الخط، يقول

تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾(٣٣).

فليست هذه هي المرة الأولى التي يحاولون فيها إيقاعكم في الفتنة وإنما من قبل ذلك كانوا يبتغون الفتنة ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾(٣٤) ويخططون لها ويضعون لها البرامج الخاصة ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾(٣٥)، فهم دائماً مشاريع فتن، وذلك لأن وجودهم لا يستقرُّ ولا يستمرُّ إلا في ظل الفتن والاضطرابات؛ لأنهم لا يتصيّدون إلا في الماء العكر.

عندما تكون أوضاع المجتمع مستقرّة آمنة، فإن هؤلاء سيعزلون تلقائياً من الحياة العامة، ولكن عندما تحدث فتنة أو فوضى فسيبرز هؤلاء إلى العلن مستغلّين حالة الانقسام أو التعصّب أو البغضاء، التي يعيشها المجتمع ليلعبوا على أكثر من حبل وليحصلوا على كثيرٍ من الامتيازات التي ما كانت لتمنح لهم أيام الاستقرار. من هنا تراهم يسارعون إلى أيّ دعوة فتنة ويكونون في الواجهة الأمامية دائماً حتى وإن كان البلد يتعرّض لتهديد خطير يستوجب مزيداً من اللّحمة والاتحاد، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾(٣٦).

أحد أهم أهداف هؤلاء هو ارباك أوضاع المؤمنين وبث الفوضى والاضطراب بين صفوفهم من أجل النيل من وحدتهم وتفتيت قوتهم. يقول تعالى عنهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٣٧). فهم يعملون على محورين:

(٣٣) سورة التوبة: ٤٨.
(٣٤) سورة التوبة: ٤٨.
(٣٥) سورة التوبة: ٤٨.
(٣٦) سورة الأحزاب: ١٤.
(٣٧) سورة التوبة: ٤٧.

الأول: بثّ (الخبال) بين صفوفهم، والخبال هو الاضطراب في العقل وفساد الرأي، فيحاولون أن يفقدوكم اتّزانكم العقلي في التعامل مع الأمور.

والثاني: بثّ الفرقة بينكم ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ﴾[٣٨] من خلال النميمة بينهم أو بث الإشاعات الكاذبة أو التحريض وغير ذلك.

فإذا فقد الإنسان اتّزانه العقلي في التعاطي مع الأحداث وأصبحت العاطفة والإنفعال والعصبية هي التي تقوده، أصبح مستعداً للاستجابة لكلّ مثيرات الفتن من دعوات التحريض أو الإشاعات الكاذبة أو غير ذلك.

وقد رصد لنا التأريخ بعضاً من محاولاتهم تلك، ففي رجوع المسلمين من غزوة بني المصطلق ازدحم الناس على الماء، وكان مع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه، فازدحم هو وسنان الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبي سلول وهو من رؤوس النفاق قائلاً: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا في بلادنا، أما والله، ﴿لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ﴾[٣٩]، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحّولوا إلى غير بلادكم. وكادت أن تحدث الفتنة حينئذ لولا أن النبي صلى الله عليه وآله تدارك الأمر بحكمته وصبره[٤٠].

(٣٨) سورة التوبة: ٤٧.

(٣٩) سورة المنافقون: ٨

(٤٠) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢، ص١٩٣.

إن الفتن الداخليّة التي يقوم بها المنافقون أشدُّ خطراً من كلّ الفتن التي تأتي من الخارج، ولذلك حذر النبيﷺ منها أمته قائلاً فيما رواه المحدّثون: «إني لا أتخوّف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوّف عليكم منافقاً عليم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون»(٤١).

رؤوس الفتن وأذنابها:

في كلّ مشروع فتنة توجد قيادة وقاعدة، القيادة هي التي تخطّط وتدير الفتن، والقاعدة هي التي تنفّذ بوعي أو من دون وعي، وأيّ مشروع فتنة لا ينجح في المجتمع مهما خطّط له صانعوه إذا لم يلق استجابة من المجتمع أو من بعض فئاته، وهي الفئة التي يعبّر عنها القرآن الكريم بفئة السمّاعين ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ﴾(٤٢)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٤٣).

إن فئة السمّاعين هي الفئة التي تستجيب لدعاة الفتنة بلا وعي، انخداعاً بكلماتهم البراقة أو شعاراتهم الخلّابة، فيكونون وقود الفتنة التي تستعر به، ويكونون الخاسرين دائماً في هذه المعادلة، يخسرون دينهم ودنياهم.

هؤلاء هم الذين يسميهم الرسولﷺ بالإمعة، والإمعة هو: الإنسان غير البصير الذي لا يزن الأمور بمنطق العقل، وإنما ينساق وراء الهتافات دون وعي أو بصيرة، ويسير مع التيار من دون علم

(٤١) المعجم الصغير، الطبراني: ٢ج، ص٩٣.
(٤٢) سورة التوبة: ٤٧.
(٤٣) سورة التوبة: ٤٧.

أو معرفة، هم يُستغلون ويُستغفلون بمكرٍ من قبل صناع الفتن كأدوات لتنفيذ خططهم ومشاريعهم.

من هنا فإن على الإنسان المؤمن أن يكون واعياً بصيراً لا تستخفّه الشعارات ولا يستجيب لجميع الناعقين من دون تمحيص وتدقيق، لكي لا يكون أداة بيد أصحاب الفتن الذين يسعون لإفساد البلاد والعباد.

ولعل إلى هذا الأمر يشير الإمام علي عليه السلام بقوله: «كن في الفتنة كابن اللّبون، لا ظهرٌ فيركب، ولا ضرعٌ فيحلب»[٤٤]. أي: لا تجعل نفسك أداة بيد أصحاب الفتن يفيدون منك في الوصول إلى أهدافهم.

(٤٤) نهج البلاغة، خطب الامام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٣، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام.

شرعنة الفتن:

أصحاب الفتن لا يطرحون مشاريعهم عارية أمام المجتمع؛ لأنه حينذاك سوف لن يتبعها أو يقتنع بها أحد، ولذلك يعمدون إلى إلباسها لباساً شرعيّاً بغية تسويقها للناس.

ويعمد أصحاب الفتن إلى شرعنة مشاريعهم الفتنوية من خلال تأويل النصوص الدينية وتطويعها لتدعيم مشاريعهم، فيعمدون إلى النصوص الدينية المتشابهة ويؤولونها تأويلاً يصبّ في صالح تلك المشاريع المغرضة، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ

﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤٥]. فهم لا يذهبون إلى النصوص المحكمة؛ لأنها بيّنة الدّلالة واضحة المعنى لجميع الناس، ويصعب عليهم أن يتلاعبوا بمداليلها من أجل خدمة أهدافهم، ولهذا يذهبون باتجاه الآيات المتشابهة ليقوموا بتأويلها ابتغاءَ الفتنة في المجتمع.

ربما إلى هذا المعنى يشير الإمام علي عليه السلام بخطبته المعروفة التي يتعرّض فيها إلى مراحل حدوث الفتن إذ يقول: «إنما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تُتبّع وأحكامٌ تُبتدع»[٤٦]. فالمرحلة الأولى في تكوّن الفتنة هي: اتباع الأهواء من قبل الذين في قلوبهم زيغ بتعبير الآية الكريمة، والمرحلة الثانية هي: مرحلة شرعنة مشروع الفتنة من خلال ابتداع الأحكام، وذلك عبر تأويل النصوص إن أمكن، أو من خلال اختراعها وابتداعها إن تعذّر التأويل.

من هنا على الإنسان المؤمن أن يكون واعياً بصيراً حتى لا تنطلي عليه تلك المشاريع المطلية بالكلمات والشعارات البراقة، أو المدعومة بنص هنا ونص هناك، وإنما عليه أن يكون ناقداً وأن يتعاطى مع الأمور بعقليّة نقدية تبيّن الصحيح من الزائف وتضع الأمور في نصابها الصحيح.

وهناك كلمة للسيد المسيح عليه السلام يرويها بعض المحدّثين يقول فيها: «خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، وكونوا نقاد الكلام، فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله كما زخرف الدرهم من النحُاس بالفضة المموّهة، النظر إلى ذلك سواء، والبصراء به خبراء»[٤٧]. فهو يدعو الناس إلى أن يتعاطوا مع مختلف الدعوات والأفكار والمشاريع بروح

(٤٥) سورة آل عمران: ٧.
(٤٦) نهج البلاغة، خطب الامام علي عليه السلام: ج١، ص١٠٠، الخطبة رقم ٥٠.
(٤٧) المحاسن، البرقي: ج١٢، ص٣٠.

نقدية، وأن لا يقبلوها ببساطة وسذاجة؛ لأنها تستشهد بآية أو رواية، فهناك كثيرٌ من الضلالات التي تزخرف بآية من كتاب الله، كما يزخرف الدرهم من النحاس مما لا قيمة له بالفضة من أجل التمويه على البسطاء، إذ عندما ينظر عامة الناس إليه يظنونه درهماً من الفضة ولكن من يملكون الخبرة والبصيرة يعرفون الحقيقة.

آثار الفتنة تعمّ الجميع:

إنَّ الفتن المتنوّعة سواء أكانت فتناً دينية أم سياسية أو اجتماعية أو غير ذلك عندما تقع في مجتمع ما ولا يسعى أبناء المجتمع تطويقها فإنها سوف تشمل الجميع بلا استثناء حتى أولئك الذين لم يكونوا طرفاً فيها، تماماً كما هي النار التي تشبُّ في بيت من البيوت ولا يسعى بقية الناس إخمادها، فإنها سوف تلتهم بيوتهم جميعاً، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٤٨].

إن هذه هي طبيعة المسائل الاجتماعية فإن قانونها يشمل الجميع بلا استثناء إن تخلّى الجميع عن مسؤولياتهم في التصدّي لها، وقد جاء في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الله عزّ وجلّ لا يعذّب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصة والعامة»[٤٩].

من هنا فإن مسؤولية جميع أفراد المجتمع إذا كانوا حريصين على دينهم وأمنهم واستقرارهم أن يتصدّوا لأيّ مشروع فتنة

(٤٨) سورة الأنفال: ٢٥.
(٤٩) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٤، ص١٩٢.

يلوح في الأفق، وأن يتعاملوا بحزم مع كلّ من يريد أن يشعل نيران الفتنة في المجتمع، وأن يتقوا الفتنة بأجمعهم ويتحدّوا في مواجهتها.

إن اتقاء الفتنة المأمور به في الآية - والاتقاء مرحلة سابقة على وقوع الفتنة - يتمُّ عبر مجموعة عوامل، ومن أهم تلك العوامل الوحدة في مواجهتها؛ لأن الفرقة والاختلاف توفّر البيئة المناسبة لنمو الفتن وانتشارها كما هو واضح من الواقع ومن التاريخ. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الشيطان يسني لكم طرقه، ويريد أن يعطيكم بالجماعة الفرقة، وبالفرقة الفتنة»(٥٠).

كذلك الوعي والبصيرة في مواجهة الفتن قبل وقوعها، فإن الوعي والبصيرة يشكلّ ضمانة بل مناعة تجاه الفتن المختلفة، وكلّما ازداد وعي المجتمع كلّما ازداد حصانة تجاه الفتن المختلفة، وأما المجتمع الفاقد للوعي والبصيرة فهو مجتمع هشٌّ يسبح في بحار من الفتن كلّما خرج من لُجّةٍ دخل في أخرى.

كذلك من العوامل المهمّة في اتقاء الفتن وعدم الاحتراق فيها هو: امتلاك الثقافة القرآنية الصحيحة، واللّجوء إلى محكمات الكتاب، فإن فيه عصمة للمعتصمين من الفتنة، ولذا يركز النبي عليه كثيراً في وصاياه، يقول صلى الله عليه وآله: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشّفع، وماحل مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار..»(٥١).

(٥٠) نهج البلاغة، خطب الامام علي عليه السلام: ج١، ص٢٣٥، الخطبة رقم: ١٢١.

(٥١) الكافي، الشيخ الكليني: ج٢، ص٥٩٩.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١ ـ الإفريقي المصري، محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، الناشر: نشر أدب الحوزة، قم المقدسة، ١٤٠٥ هـ.

٢ ـ المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الطبعة: الأولى، الناشر: مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران ـ طهران، ١٤١٧هـ.

٣ ـ الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، الناشر: دفتر نشر الكتاب، الطبعة الثانية: ١٤٠٤ هـ.

٤ ـ خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ محمد عبده، الناشر: دار الذخائر – قم – ايران، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ – ١٣٧٠ ش.

٥ ـ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: دار الكتب الإسلامية – طهران، الطبعة: الخامسة، المطبعة: حيدري، ١٣٦٣ ش.

٦ ـ الطوسي، محمد بن الحسن، الغيبة، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، الشيخ علي أحمد ناصح، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية – قم المقدسة، الطبعة: الأولى، المطبعة: بهمن، شعبان ١٤١١ هـ.

٧ ـ النعماني، محمد بن ابن إبراهيم، الغيبة، تحقيق: فارس حسون كريم، الناشر: أنوار الهدى، الطبعة: الأولى، المطبعة: مهر – قم، ١٤٢٢ هـ.

٨ ـ الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تحقيق: تصحيح: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٣ – ١٣٦٢ ش.

٩ ـ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الناشر: دار الفكر – بيروت – لبنان.

١٠ ـ القزويني، محمد بن يزيد المعروف بابن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١١ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ - ١٩٨١ م.

١٢ ـ الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الصغير، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

١٣ ـ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، مسند أحمد، الناشر: دار صادر - بيروت - لبنان.

١٤ ـ الشيباني المعروف بابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، الناشر: دار صادر للطباعة والنشر - دار بيروت للطباعة والنشر، المطبعة: دار صادر - دار بيروت، ١٣٨٦ - ١٩٦٦م .

١٥ ـ الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، الناشر: دار الحديث، المطبعة: دار الحديث، الطبعة: الأولى.

١٦ ـ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية المصححة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.

٥

تربية الأولاد وتعليمهم في القرآن الكريم

الشيخ طالب غاتي المنصوري
باحث وأستاذ في الحوزة العلمية

مقدمة

لقد جاءت التربية في اللغة بمعنى: الزيادة والنمو، قال الجوهري: «وربيته تربية وتربيته، أي: غذوته. هذا لكلّ ما ينمي، كالولد والزرع ونحوه»[١].

وفي لسان العرب: «وربّ ولده والصبي يربه ربّا، وربه تربيباً وتربة، ... وتربيه، وارتبه، وربّاه تربية، على تحويل التضعيف، وتربّاه، على تحويل التضعيف أيضاً: أحسن القيام عليه، ووليّه حتى يفارق الطفوليّة، كان ابنه أو لم يكن»[٢].

وجاءت التربية في الاصطلاح القرآني بالمعنى نفسه الذي ذكره أرباب اللغة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[٣]، قال الطبرسي: «والتربية تنشئة الشيء حالاً بعد حال، معناه: ألم تكن فينا صبيّاً صغيراً فربيناك»[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٥]، قال الطبرسي: «معناه أدعُ لهما بالمغفرة والرّحمة في حياتهما، جزاءً لتربيتهما إياك في صباك»[٦].

وأما التعليم في اللغة، فقد جاء في تاج العروس: «التعليم تنبيه النفس لتصور المعاني. والتعلم: تنبه النفس لتصور ذلك، وربما استعمل في معنى الإعلام إذا كان فيه تكثير نحو قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾»[٧].

وقال الفيومي: «إنّ العلم نقيض الجهل، وجاء بمعنى المعرفة أيضاً»[٨].

وفي الاصطلاح القرآني جاء التعليم بمعنى الإعلام والتعلّم،

(١) الصحاح، الجوهري: ج٦، ص ٢٣٥٠.
(٢) لسان عرب، ابن منظور: ج١، ص٤٠١.
(٣) سورة الشعراء: ١٨.
(٤) المصدر السابق: ج ٧، ص٣٢٤.
(٥) سورة الإسراء: ٢٤.
(٦) تفسير مجمع البيان، الطبرسي: ج٦، ص٢٤١.
(٧) تاج العروس، الزبيدي: ج١٧، ص ٤٩٦. سورة المائدة: ٤.
(٨) المصباح المنير، الفيومي: ص٤٢٧؛ وكذا مجمع البحرين، الطريحي: ج٢، ص ١٢٥٩.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً* قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[٩]، وكذا جاء في الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «ما أخذ الله على الجهّال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا»[١٠].

الفرق بين التربية والتعليم

إن مفهوم التربية عام يشمل كلّ ما يحتاج إليه الولد في نموّه ورشده، من إنفاق وتأديب وتعليم، بخلاف التعليم، فإنّه يعدُّ وسيلة من وسائل التربية، فهو يختص بما يخرج الإنسان من الجهل إلى العلم، ويمكن أن يقال أيضاً: إن التعليم مصداق من مصاديق التربية وفرد منها، وإنّما خصّصنا التعليم بالذكر من بين الأقسام الأخرى للتربية؛ لأنّ مسألة تعليم الأولاد بالغة الأهمية والخطورة في نظر الإسلام[١١].

دور الإسلام في تربية الأولاد وتعليمهم

حثَّ الإسلام على تعليم الأولاد وتربيتهم على الأمور الدّينية، ولا سيما الضرورية منها، كتربية الولد منذ صغره على الإيمان بالله تعالى والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وتعليمه جميع العقائد الحقة، وكذا تعليمه الواجبات، كالطهارة والصلاة والصوم... فضلا عن تربيتهم على اجتناب المحرّمات والرذائل، وتعليمهم محاسن الأخلاق، كالصدق والأمانة والإخلاص وغيرها من الصفات الحسنة.

(٩) سورة الكهف: ٦٥-٦٦.
(١٠) الكافي، الكليني: ج١، ص٤١.
(١١) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، علوان: ج١، ص٢٥٦.

وينبغي أيضاً تعليمهم وتربيتهم في صغرهم الأمور التي حبّب إليها الشارع المقدّس، كإتيان الصلاة اليومية في وقتها، وتلاوة القرآن والأدعية المأثورة...، وكذا تعليمهم الصناعات والحرف التي تنفعهم عند الكبر، وغير ذلك من الأمور المستحبّة التي وردت في الشريعة الإسلامية، والروايات الواردة في هذا الباب كثيرة، منها: عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه قال: «الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلّم الكتاب سبع سنين، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين»[١٢].

وربمّا هذا ما دفع الفقهاء إلى الإفتاء باستحباب تربية الأولاد وتعليمهم الأمور الدّينية، قال العلامة الحلي: «إذا بلغ الطفل سبع سنين، كان على أبيه أن يعلّمه الطهارة والصلاة، ويعلمه الجماعة وحضورها، ليعتادها، لأن هذا السنّ يحصل فيه التمييز من الصبي في العبادة، وإذا بلغ عشر سنين، ضرب عليها - وإن كانت غير واجبة - لاشتماله على اللّطف، وهو: الاعتياد والتمرّن»[١٣].

وذكر السيد الخوئي: «ينبغي على الأب تعليم أولاده الأحكام الشرعية، والوظائف الدّينية، من الواجبات والمحرّمات، والله العالم. التبريزي: بل لا يبعد الوجوب إذا تركوا الواجبات، وفعلوا المحرّمات بسبب ترك التعليم، نعم لا فرق في التعليم بين المباشرة والتسبيب»[١٤].

ونتعرّض هنا لأهم الأمور التي أوصت بها الشريعة الإسلامية:

تعليم الأولاد الأمور العقائدية وتربيتهم عليها

لا شك أن تعليم الأولاد الأمور العقائدية وتربيتهم عليها منذ الصغر من الأولويات التي ينبغي على الأبوين الاهتمام بها؛ وذلك

(١٢) الكافي، الكليني: ج٦، ص٤٧، ح٣.
(١٣) تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي: ج٤، ص٣٣٥.
(١٤) صراط النجاة، التبريزي: ج٣، ص ٢٦٤.

لأنّها القاعدة الأساس التي تبنى عليها شخصية الإنسان واستقامته في الحياة الدنيوية وحسن عاقبته الأخروية، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١٥).

قال بعض الباحثين: «لا تقتصر الفطرة على الإقرار والإيمان بالله فحسب، بل تميل بطبعها إلى الخير وتحبّه، وتبغّض الشرّ وترفضه، وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة، فإنّه من السهل توجيه الطفل وتركيز ذلك المفهوم الحسن في نفسه، فيتأكد عنده بأن الله عزّ وجلّ، هو الذي خلقنا ورزقنا... ومما لا شك فيه أنّ الطفل يكون مستجيباً بدافع فطرته إلى كلّ هذه المعاني الحسنة، وعندها يعمل الأب على تركيزها في نفسه، وربطها في واقع حياته...»(١٦).

فعلى الوالدين أن يستثمرا هذه الفرصة المناسبة، وأن يهتما بتفتح مشاعر الأولاد، ويقظة فطرتهم الإيمانية، ويعملا منذ الصغر على تنمية الإيمان بالله تعالى والنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام في أنفسهم؛ ولذا وردت روايات عدة تعلّم الآباء كيفية تربية أبنائهم على معرفة الله سبحانه وتعالى، وكيفية الارتباط به، منها ما عن عبد الله بن فضالة، عن أبي عبد الله عليه السلام، سمعته يقول: «إذا بلغ الغلام ثلاث سنين يقال له سبع مرات: قل لا إله إلا الله، ثم يترك حتى يتم له ثلاث سنين وسبعة أشهر وعشرون يوماً، فيقال له: قل محمد رسول الله، سبع مرات، ويترك حتى يتم له أربع سنين، ثم يقال له سبع مرات: قل صلى الله على محمد وآله ...»(١٧).

(١٥) سورة التحريم: ٦.
(١٦) الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب، جمعة، أحمد خليل: ص١٢١.
(١٧) الأمالي، الصدوق: ص٤٧٥؛ وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج١٥، ص١٩٣، ح٣.

فمن جملة الأمور الدّينية العقائدية الأساسية، هي:

١- معرفة الله تعالى والارتباط به

إنّ معرفة الله تعالى وكيفية الارتباط به من الأمور الدّينية المهمّة التي ينبغي على الآباء تعليم الأولاد وتربيتهم عليها، فهي وإن كانت فطرية عند كلّ إنسان، ولكن مع ذلك تحتاج إلى توجيه وتنمية، ولا سيما عند الصغار، كما عليه سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام، ودأبهم في تربية أولادهم عن طريق بيان أوصاف الله تعالى ومخلوقاته، وذكر نعمه، أو تخويفهم عذاب الله تعالى.

ففي وصية للإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام، قال فيه: «... اعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه. لا يضاده في ملكه أحد، ولا يزول أبداً. ولم يزل أول قبل الأشياء بلا أولية، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية ...»[١٨].

ومن وصايا لقمان الحكيم لابنه صلى الله عليه وآله: «يا بني أقل الكلام واذكر الله عزّ وجلّ في كلّ مكان فإنه قد أنذرك وحذّرك و بصّرك وعلّمك.... يا بني من ذا الذي عبد الله فخذله، ومن ذا الذي ابتغاه فلم يجده. يا بني ومن ذا الذي ذكره فلم يذكره، ومن ذا الذي توكّل على الله فوكله إلى غيره، ومن ذا الذي تضرّع إليه جلّ ذكره فلم يرحمه.... بني خف الله مخافة لا تيأس من رحمته وارجه رجاء لا تأمن من مكره»[١٩].

وغير ذلك من الروايات التي تحكي كيفية تعليم الأولياء أولادهم على الارتباط بالله تعالى والإيمان به[٢٠].

(١٨) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ج٣، ص٤٤.
(١٩) الاختصاص، المفيد: ص٣٣٦-٣٣٨.
(٢٠) انظر: الكافي، الكليني: ج٢، ص٦٧، ح١؛ الأمالي، الصدوق: ص٧٦٦.

٢- تعليمهم القرآن وتربيتهم عليه

وردت روايات عديدة في الحثّ على تعلّم القرآن وحفظه وتعليمه، منها ما روي عن عبد الله بن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «ما من مؤمن ذكر أو أنثى، حرّ أو مملوك، إلا ولله عليه حق واجب، أن يتعلّم من القرآن ويتفقه فيه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[٢١]»[٢٢]. وغيرها الكثير من الروايات[٢٣].

ولذا ينبغي على الآباء تعليم أولادهم القرآن وتربيتهم عليه، ففي الكافي بسند إلى السكوني قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وأنا مغموم مكروب، فقال لي: يا سكوني مما غمك ؟ قلت: ولدت لي ابنة فقال: يا سكوني على الأرض ثقلها وعلى الله رزقها، تعيش في غير أجلك وتأكل من غير رزقك، فسرّى والله عني، فقال لي: ما سميتها ؟ قلت: فاطمة، قال آه آه آه، ثم وضع يده على جبهته فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حق الولد على والده إذا كان ذكراً أن يستفره أمه، ويستحسن اسمه، ويعلّمه كتاب الله ويطهّره، ويعلّمه السباحة وإذا كانت أنثى أن يستفره أمها، ويستحسن اسمها، ويعلّمها سورة النور، ولا يعلّمها سورة يوسف، ولا ينزلها الغرف، ويعجل سراحها إلى بيت زوجها، أما إذا سميتها فاطمة فلا تسبّها ولا تلعنها ولا تضربها »[٢٤].

وفي وصية لأمير المؤمنين لابنه الحسن، يقول فيها: «...وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه ....»[٢٥].

(٢١) سورة آل عمران: الآية ٧٩.
(٢٢) مستدرك الوسائل، المحدث النوري: ج٤، ص٢٣٢-٢٣٣.
(٢٣) انظر، وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج٤، أبوب قراءة القرآن، مستدرك الوسائل، المحدث النوري: ج٤، ابواب قراءة القرآن.
(٢٤) الكافي، الكليني: ج٦، ص٤٩.
(٢٥) شرح نهج البلاغة، محمد عبده: ج٣، ص٤١.

وعنه أيضاً عليه السلام أنّه قال: «وحق الولد على الوالد أن يحسّن اسمه، ويحسّن أدبه، ويعلّمه القرآن»[٢٦].

وربما لهذه الروايات وغيرها قال بعض الفقهاء باستحباب تعليم الأولاد القرآن الكريم[٢٧].

٣ـ حب النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام

من الثابت عندنا أنّ حبّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام شرط الإيمان، وبدونه لا يجد العبد طعم الإيمان، وقد فرض الله تعالى ذلك على جميع المسلمين في آية المودة، قال تعالى: ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[٢٨].

فمن أعظم ألوان تربية الأولاد أن نربطهم بحبّ الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، وعلى الأب المربّي أن يعرف ما يتعلّق بحياتهم عليهم السلام، بحيث يغرس محبتهم في نفوسهم، كما أشارت إلى ذلك النصوص الروائية العديدة، فقد روى السيوطي في الجامع الصغير بسنده عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أدّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه»[٢٩].

وروى الصدوق في الأمالي، عن أبي الزبير المكي، قال: « رأيت جابراً متوكئاً على عصاه وهو يدور في سكك الأنصار ومجالسهم، وهو يقول: علي خير البشر، فمن أبى فقد كفر. يا معشر الأنصار، أدّبوا أولادكم على حبّ علي، فمن أبى فانظروا في شأن أمه»[٣٠].

(٢٦) شرح نهج البلاغة، المعتزلي، ابن أبي الحديد: ج١٩، ص٣٦٥.
(٢٧) تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي: ج٤، ص٣٣٥.
(٢٨) سورة الشورى: ص ٢٣.
(٢٩) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، السيوطي: ج١، ص٥١.
(٣٠) الأمالي، الصدوق: ص١٣٦.

وغيرها من الروايات الكثيرة التي تحثّ الآباء والمربين على تربية الأولاد على محبة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

تعليم الأولاد الأمور العبادية وتربيتهم عليها

فقد جاء في بعض الروايات ما يحث الآباء على تعليم أولادهم العبادات وتربيتهم عليها في الصغر، منها:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «...،ثم يترك حتى يتّم له خمس سنين، ثم يقال له: أيهما يمينك، وأيهما شمالك ؟ فإذا عرف ذلك حوّل وجهه إلى القبلة ويقال له: اسجد، ثم يترك حتى يتم له ست سنين، فإذا تمّ له ست سنين صلّى وعلّم الرّكوع والسجود، ثمّ يترك حتى يتمّ له سبع سنين، فإذا تمّ له سبع سنين، قيل: له اغسل وجهك وكفيك، فإذا غسلهما قيل له: صلّ، ثمّ يترك حتى يتمّ له تسع سنين، فإذا تمّت له علّم الوضوء وضُرب عليه، وأمر بالصلاة وضرب عليها، فإذا تعلّم الوضوء والصلاة غفر الله لوالديه إن شاء الله تعالى...»[٣١].

وسنتعرض هنا لبعض العبادات التي تؤثّر في تربية الأولاد خلقياً ونفسياً وجسدياً وتعوّدهم على الفضائل والمحاسن:

أولاً: الطهارة

بما أن كثيراً من العبادات متوقفة على الطهارة فنقول: إنه ينبغي على الآباء تعليم أولادهم الطهارة وتربيتهم على جميع أنواعها، ففي الكافي بسنده عن أبي عبد الله: «حق الولد على والده...ويطهرّه...»[٣٢].

(٣١) وسائل الشيعة- الحر العاملي: ج١٥، ص١٩٣، ح٣. الأمالي، الصدوق: ص٤٧٥، ح ١٩.

(٣٢) الكافي: الكليني: ج٦، ص٤٩، ح٦.

وكذلك فيما رواه ابن فضالة، عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه قال: «...ثم يترك حتى يتم له سبع سنين، فإذا تمّ له سبع سنين قيل له: اغسل وجهك وكفيك...»[٣٣].

ثانياً: الصلاة

الصلاة من أهم العبادات، وأفضلها، وهي عمود الدّين، ومن أحبّ الأعمال إلى الله تعالى...، وقد حكى الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام في القرآن، ومن جملته أنّه قال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ**﴾[٣٤] وعن داود بن سليمان، عن الرضا عليه السلام، عن آبائه، قال: «إذا كان يوم القيامة يدعى بالعبد فأول شيء يُسأل عنه الصلاة، فإن جاء بها تامة وإلا زُخّ في النار»[٣٥].

ولكن هناك تأكيد خاص في بعض الآيات والروايات، من أنّه ينبغي تعليم الأولاد الصلاة، وتعويدهم فعلها والتمرين عليها، قال تبارك وتعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...**﴾[٣٦].

وقوله سبحانه وتعالى في حكاية عن لقمان الحكيم: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ**﴾[٣٧].

وأمّا الروايات، فكثيرة، منها:

عن معاوية بن وهب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام في كم يؤخذ الصبيّ بالصلاة؟ قال عليه السلام: «فيما بين سبع سنين وست سنين»[٣٨].

وأيضاً ما في تهذيب الأحكام عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا أتى الصبي ست سنين وجبت عليه الصلاة...»[٣٩].

(٣٣) الأمالي، الصدوق: ص٤٧٥.
(٣٤) سورة إبراهيم: ٤٠.
(٣٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الصدوق: ج١، ص٣٥.
(٣٦) سورة طه: ١٣٢.
(٣٧) سورة لقمان: ١٧.
(٣٨) تهذيب الأحكام، الطوسي: ج٢، ص٣٨١، ح١٥٩٠.
(٣٩) تهذيب الأحكام، الطوسي: ج٢، ص٣٨١، ح١٥٩١.

ثالثاً: الصوم

وردت روايات يستفاد منها أنّه ينبغي للآباء أن يأمروا أولادهم المميّزين بالصوم، حتى يتعوّدوا ويتمرّنوا عليه حين يصلوا سنّ البلوغ، وهي كثيرة بلغت حدّ الاستفاضة، منها: ما في الكافي بسنده عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه قال: «إنّا نأمر صبياننا بالصيام إذا كانوا بني سبع سنين بما أطاقوا من صيام اليوم فإن كان إلى نصف النهار وأكثر من ذلك أو أقل فإذا غلبهم العطش والغرث أفطروا حتى يتعوّدوا الصوم ويطيقوه فمروا صبيانكم إذا كانوا أبناء تسع سنين بما أطاقوا من صيام فإذا غلبهم العطش أفطروا»[٤٠].

وفي التهذيب عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا أتى على الصبي ست سنين وجبت عليه الصلاة وإذا أطاق الصوم وجب عليه الصيام»[٤١].

التعامل برفق مع الأولاد

الإسلام سمح سهل، ولا يحمل الإنسان فوق طاقته، ولا يكلّفه بما فيه مشقة وعناء ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤٢] فينبغي للآباء أن يشجعوا أبناءهم على فعل العبادات بشكل تدريجي، ولا يحملوهم فوق طاقتهم، وهذا ما دلّت عليه النصوص كما في صحيحة الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام: «...فمروا صبيانكم إذا كانوا بني تسع سنين بالصوم ما استطاعوا من صيام اليوم فإذا غلبهم العطش أفطروا»[٤٣].

(٤٠) الكافي، الكليني: ج٤، ص١٢٤-١٢٥، ح١.
(٤١) تهذيب الأحكام، الطوسي: ج٢، ص ٣٨١، ح١٥٩١.
(٤٢) سورة البقرة: ٢٨٦.
(٤٣) الكافي، الكليني: ج٣، ص٤٠٩؛ ج٤، ١٢٥، ح١.

وأيضا عنه عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، عن الإمام علي عليه السلام، أنّه قال: «يُؤمر الصبي بالصلاة إذا عقل، وبالصوم إذا أطاق»(٤٤)، وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «رحم الله من أعان ولده على برّه، قال: قلت: كيف يعينه على برّه؟ قال: يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه...»(٤٥).

فهذه الروايات وغيرها(٤٦) تحثّ على لزوم التعامل مع الأولاد وتعليمهم الأمور العبادية وتربيتهم عليها برفق ولين، وإنّ على الآباء أن يقبلوا الميسور منهم، ولا يحملوهم ما لا يطيقونه.

تعليم الأولاد الأخلاق الإسلامية وتربيتهم عليها

أكدّت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّه ينبغي على الآباء والأمهات وكلّ من اهتم بأمر التربية أن يعلّموا الأولاد منذ الصغر على الصدق والوفاء بالعهد والأمانة والاستقامة والإيثار والتصدّق ... فضلا عن تعليمهم الآداب الحسنة، كآداب السلام، وآداب الطعام وغيرها، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله «أكرموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم»(٤٧).

وهي كثيرة تعرّض لها علماء الأخلاق وغيرهم، نقتصر على ذكر نماذج منها:

أولاً: الصدق

الصدق من الصفاة الأساس التي ورد تأكيدها في القرآن الكريم، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(٤٨)، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ

(٤٤) المحدّث النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل، ج٧، ص ٣٩٣، ح ٢.
(٤٥) الكافي، الكليني: ج٦، ص ٥٠، ح٦.
(٤٦) انظر، من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ج١، ص ٢٨١، ح ٨٦٣.
(٤٧) سنن ابن ماجه، ابن ماجه: ج٢، ص ١٢١١.
(٤٨) سورة التوبة: ١١٩.

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾[٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ فضلا عن الروايات الكثيرة في هذا الباب، كما في الكافي، بسنده إلى أبي جعفر عليه السلام، قال: «ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صديقا وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذابا»[٥٠].

فالصدق مصدر كل فضيلة، كما أن الكذب مصدر كل فاحشة ورذيلة، وفي المستدرك بسنده إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، قال: «جعلت الخبائث في بيت وجعل مفتاحه الكذب»[٥١].

فينبغي للآباء تعليم أولادهم الصدق وتربيتهم عليه، والابتعاد عن الكذب والكذابين، ففي الكافي بسنده إلى محمد بن مسلم أو أبي حمزة، عن أبي عبد الله، عن أبيه صلى الله عليه وآله قال: «قال لي علي بن الحسين صلى الله عليه وآله: يا بني انظر خمسة فلاتصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق فقلت: يا أبه من هم؟ قال: إياك ومصاحبة الكذاب فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويباعد لك القريب...»[٥٢].

ثانياً: الوفاء بالعهد

من الأخلاق الإسلامية التي ورد تأكيدها في القرآن الكريم، هو الوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[٥٣].

هذا بصورة عامة، وأما بخصوص الأولاد، فقد ورد تأكيد خاص من النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لزوم الوفاء بالعهد من

(٤٩) سورة مريم: ٥٤.
(٥٠) الكافي، الكليني: ج٢، ص٣٣٨، ح٢.
(٥١) مستدرك الوسائل، المحدّث النوري: ج٩، ص٨٥، ح٣.
(٥٢) الكافي، الكليني: ج٢، ص٣٧٦، ح٧.
(٥٣) الطفل بين الوراثة والتربية، فلسفي: ج٢، ص٣٥.

جانب الوالدين اتجاه أولادهم، وتعوديهم على رعايتها، وهي كثيرة، منها: ما ورد في الكافي بسنده الى النبي عليه السلام أنه قال: «أحبوا الصبيان وارحموهم وإذا وعدتموهم شيئا ففوا لهم فإنهم لا يدرون إلا أنكم ترزقونهم»(٥٤).

وفي الكافي أيضا عن كليب الصيداوي، قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: «إذا وعدتم الصبيان ففوا لهم فإنهم يرون أنكم الذين ترزقونهم إن الله عزّ وجلّ ليس يغضب لشيء كغضبه للنساء والصبيان»(٥٥).

وغيرها من الأحاديث التي تتحدث عن أهمية تعليم الأولاد الوفاء بالعهد وتربيتهم عليها.

ثالثاً: الآداب الحسنة

الإسلام منهاج حياة متكامل يبدأ مبكراً مع الإنسان من البداية إلى النهاية، فهو ينظّم حياة الإنسان في جميع أطوارها، وسائر مراحلها، وكل علاقتها وارتباطاتها، وكلّ حركاتها وسكناتها، ومن ثمّ يتولى بيان الآداب التربوية اليومية...

وهذه الآداب التربوية كثيرة في الإسلام، نقتصر على مجموعة منها كشواهد على ذلك:

أ: أدب النظافة

جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ما دلّ على الاهتمام بنظافة الولد، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «اغسلوا صبيانكم من الغمر، فإن الشيطان يشم الغمر فيفزع الصبي في رقاده ويتأذى بها الكاتبان»(٥٦).

(٥٤) الكافي، الكليني: ج٦، ص٤٩، ح٣.
(٥٥) الكافي، الكليني: ج٦، ص٥٠، ح٨.
(٥٦) مكارم الأخلاق، الطبرسي: ج١، ص ٤٧٨، ح١٦٥٢.

وأيضا هناك روايات دلت على لزوم اهتمام الآباء بمظهر أولادهم، كما في الكافي عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام: «اتي النبي صلى الله عليه وآله بصبي يدعو له وله قنازع[٥٧] فأبى أن يدعو له وأمر بحلق رأسه وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بحلق شعر البطن»[٥٨].

ب: آداب الطعام

من الآداب التي ورد ذكرها عن أهل البيت عليهم السلام، هي آداب الطعام والشراب، وهي كثيرة ينبغي للمؤمن رعايتها وتعليمها لأولاده، ففي الخصال عن الأصبغ بن نباته قال: «قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للحسن ابنه عليه السلام: يا بني ألا أعلّمك أربع خصال تستغني بها عن الطب، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، قال: لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهيه، وجود المضغ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء . فإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب»[٥٩].

وقال المحدّث الكاشاني: «أوّل ما يغلب على الصبي من الصفات، شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلاّ بيمينه، ويقول بسم الله عند أخذه، ويأكل مما يليه، ولا يبادر إلى الطعام قبل غيره، ويحدق إلى الطعام، ولا إلى من يأكل، ولا يسرع في الأكل...»[٦٠].

وقد أفتى علماؤنا باستحباب رعاية آداب الطعام والشراب، وذكروا في كتاب الأطعمة والأشربة، آداباً كثيرةً[٦١].

(٥٧) عن ابن القداح، عن أبي عبد الله عليه السلام... وذكر أن القزع أن يحلق الرأس إلا قليلاً ويترك وسط الرأس يسمى القزعة.

(٥٨) الكافي، الكليني: ج٦، ص٤٠، حديث ٣.

(٥٩) الخصال، الصدوق: ج١، ص٢٢٩، حديث ٦٧.

(٦٠) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني: ج٥، ص١٢٤.

(٦١) انظر، جواهر الكلام، النجفي: ج٣٦، ص٤٤٧- ٤٥٧.

ج: أدب السلام

من الآداب الاجتماعية التي اهتم بها الإسلام، هو أدب السلام، وهذا ما تعرّض له القرآن صريحاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٦٢).

فينبغي على الآباء أن يعلموا أولادهم ويربوهم على تحية السلام، ويربوهم على مبادرة الناس بالسلام، فإنّه من خلق النبيّ صلى الله عليه وآله وأهداف شريعته التي جاء بها، فعن علي بن موسى الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «خمس لا أدعهن حتى الممات، ... والتسليم على الصبيان ليكون سنة من بعدي»(٦٣).

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ليسلّم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير»(٦٤).

وفي وصية لقمان الحكيم لابنه صلى الله عليه وآله، قال فيها: «...يا بني إبدأ الناس بالسلام والمصافحة قبل الكلام...»(٦٥).

(٦٢) سورة النور: ٢٧.
(٦٣) علل الشرائع، الصدوق: ج١، ص١٣٠ حديث ١.
(٦٤) الكافي، الكليني: ج٢، ص٦٤٦.
(٦٥) الإختصاص، الصدوق: ص٣٣٨.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١ ـ الجوهري ـ إسماعيل بن حماد الجوهري ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط: الرابعة ـ سنة الطبع: ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧ م، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان.

٢ ـ الكليني، الشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط: الخامسة، سنة الطبع: ١٣٦٣ هـ المطبعة: دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

١. الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مقاصد الشريعة ـ تحقيق: الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط: الخامسة، عام: ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٢. الزبيدي، محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، سنة الطبع: ١٤١٤ ـ ١٩٩٤م، المطبعة: دار الفكر، بيروت، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

٣. الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ط: الأولى ـ الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

٦ ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، نشر أدب الحوزة، ط ١، قم: ١٤٠٥هـ.

٧ ـ الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، الناشر: المكتبة العلمية ـ بلد الناشر: بيروت.

٨ ـ عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة: ٢١، ١٩٩٢ م.

٩ ـ العلامة الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، تذكرة الفقهاء، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، الطبعة: الأولى، المطبعة: مهر - قم، ١٤١٤ هـ.

١٠ ـ الخوئي، تعليقة التبريزي، السيد أبو القاسم والميرزا الشيخ جواد التبريزي، صراط النجاة، الناشر: دفتر نشر برگزيده، المطبعة: سلمان الفارسي، الطبعة: الأولى، جمادي الأولى ١٤١٦ هـ.

١١ ـ أحمد خليل جمعة، الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.

١٢ ـ الصدوق، محمد بن علي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ.

١٣ ـ محمد عبده، شرح نهج البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان.

١٤ ـ العكبري، محمد بن النعمان، الإختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري، السيد محمود الزرندي، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣ م.

١٥ ـ النوري الطبرسي، حسين، مستدرك الوسائل، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى المحققة، ١٤٠٨ - ١٩٨٧ م.

١٦ ـ المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٨ - ١٩٥٩ م.

١٧ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ - ١٩٨١ م.

١٨ ـ الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت – لبنان، المطبعة: مطابع مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م .

١٩ ـ الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران، المطبعة: خورشيد، الطبعة: الثالثة ـ ١٣٦٤ ش .

٢٠ ـ الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة: الثانية.

٢١ ـ القزويني، محمد بن يزيد(ابن ماجة)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٢ ـ الفلسفي، محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية، تعريب: فاضل الحسيني الميلاني، دار التعاريف للمطبوعات بيروت ـ لبنان.

٢٣ ـ الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، الناشر: منشورات الشريف الرضي، الطبعة: السادسة، ١٣٩٢ - ١٩٧٢ م .

٢٤ ـ الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٨ ذي القعدة الحرام ١٤٠٣ - ١٣٦٢ ش .

٢٥ ـ النجفي، محمد حسن، جواهر الكلام، تحقيق: الشيخ عباس القوچاني، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة: الثانية، المطبعة: خورشيد، ١٣٦٥ ش .

٢٦ ـ الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع، تحقيق: السيد محمد صادق بحر العلوم، الناشر: منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها - النجف الأشرف، ١٣٨٥ - ١٩٦٦ م.

٦

التعايش السلمي وأثره في بناء المجتمع
رؤية قرآنية

الشيخ عبد السلام عبد الحسن مجيبل
باحث إسلامي

مقدمة

الإنسان مدنيٌّ بطبعه واجتماعي بفطرته، ويصعب عليه جداً أن يعيش منفرداً عن بني جنسه، ولا يستطيع أن يقوم بمفرده بتأمين مستلزمات ومتطلبات الحياة، بدءاً بالأسرة، ثم انتقل إلى القبيلة، ثم إلى الدّولة والمنظمات والجمعيّات.

ويعد الإسلام التعايش السلمي أصلاً من أصول الحياة الدّينية ومبدءاً من المبادئ الأساس التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي السعيد، فالشريعة الإسلامية وعلى رأسها القرآن الكريم تحتوي على رصيد معرفي غزير وواسع يدعو إلى إرساء قيم التعارف والتعايش، وهو في أغلب الأحيان شعورٌ فطريٌّ وذاتيٌّ عند الإنسان إلا أن القرآن جاء ليؤكّد هذه الفطرة والشعور الذاتي؛ لما لهذا المبدأ من تأثيرٍ كبيرٍ في بناء مجتمعٍ متماسكٍ يصبو لتحقيق التكامل والسعادة المنشودة له.

من هنا حرص القرآن الكريم على بناء العلاقات بين المجتمع الواحد والمجتمعات الأخرى على أساس الأهداف الصالحة والتعارف فيما بينهم ممّا يجعل المجتمع يعيشون في أمان وسعادة وسلم أهليّ.

المقوّمات الاجتماعية للتعايش السلمّي في القرآن الكريم

إن المجتمع من منظور القرآن الكريم يقوم على عناصر أربعة، وهي العلقة بين الإنسان وأخيه الإنسان من جانب، والإنسان مع الطبيعة الموجود فيها من جانب آخر، إذ لا يمكن تصّور وجود مجتمع من دون وجود الطبيعة والإنسان، وهذا متفقٌ عليه بين علماء الاجتماع، ولكن الاختلاف في تفسير العنصر الثالث وهو طبيعة هذه العلاقة بين أفراد المجتمع فيما بينهم من جهة، وبينهم والطبيعة من جهة أُخرى، بحيث هل يوجد قانون يحكمهم؟ وما طبيعة هذا القانون؟ أو قل: هل يوجد عنصر رابع أو لا يوجد؟ فذهب بعض العلماء -خصوصاً علماء الغرب- إلى عدم وجود هذا العنصر، أي: إن المجتمع هو الذي يحكم نفسه بنفسه. أما علماء الإسلام، فقالوا بوجود هذا العنصر الرابع وهو الله سبحانه وتعالى الذي يحكم المجتمع بالقوانين والسُنن والتي تصبُّ في مصلحة المجتمع وسعادته[١].

ومن أهم هذه المقوّمات التي ذكرها القرآن الكريم هي كالآتي:

١ـ التعايش على أساس البرُّ والتقوى:

أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة المائدة إذ قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرّوَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢]. وفي الآية تأكيد على أبرز مصاديق التعايش في المجتمع ألا وهما البرُّ والتقوى.

(١) انظر: المدرسة القرآنية، الشهيد الصدر: ص١٠٦-١٠٨.

(٢) سورة المائدة: ٢.

فمعنى البرُّ هو: الإحسان في العبادات والمعاملات والتوسّع في أفعال الخير، بدلالة ما قاله عليه السلام وقد سأله أبو ذر عن البرّ، فتلا عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ البرّأَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البرّ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٣]. فذكر جملة أفعال الخير، فرائضها، ونوافلها، ومكارم الأخلاق كلّها. إذ قسّمه الراغب إلى ثلاثة أقسام؛ البرُّ في معاملة الله تعالى وعبادته، والبرُّ في معاملة الأقارب ومراعاة حقوقهم، والبرُّ في معاملة الأجانب وإنصافهم[٤].

وأما معنى التقوى، «فهي: مراقبة أمر الله ونهيه، فيعود معنى التعاون على البرّ والتقوى إلى الاجتماع على الإيمان والعمل الصالح على أساس تقوى الله وهو الصلاح والتقوى الاجتماعيين»[٥].

والتعاون على البرّ والتقوى يتناول المؤازرة في كلّ عمل ينتج عنه الخير سواء كان ممّا ينهض بأحوال الأمة في هذه الدنيا التي هي دار ممّر أو كان من وسائل النجاح والسعادة في الآخرة.

«ومقابله التعاون على الإثم الذي هو العمل السيء المستتبع للتأخّر من أمور الحياة السعيدة وعلى العدوان وهو التعدّي على حقوق الناس الحقّة بسلب الأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم»[٦]، بحيث يدخل فيه كلّ عملٍ يعود على الفرد أو المجتمع بالضرر والفساد. وهو خلاف لما دعانا الله إليه من التعاون فيما بيننا وتقوية اللّحمة الاجتماعية المبنية على البرّ والتقوى وحذّرنا من التعاون فيما بيننا على الظلم والعدوان من نشر الفساد كالرشوة والغش ممّا يؤدي إلى تمزيق اللّحمة

(٣) سورة البقرة: ١٧٧.
(٤) تفسير الراغب، الراغب الاصفهاني: ج ١، ص١٧٤.
(٥) الكمال الاجتماعي بين الشريعة والقوانين الوضعية، عبد الله المياحي: ص٤٨.
(٦) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: ج ٦، ص١٧٣.

الاجتماعية والاقتتال، فينعكس سلبياً على المواطن بذهاب الأمن وضيق العيش، ويعيش المجتمع ازدواجية مقيتة، وما يحصل اليوم في مجتمعاتنا الإسلامية من تفشّي الفساد الاداري والاقتصادي والسياسي وحتى الدّيني خير دليل على ذلك، فكثرت الفقر والجهل والجريمة والمشاكلّ الأُسرية وعدم زواج كثير من الشباب والبطالة ووو... في مجتمعاتنا أصبح ظاهرة اجتماعية وليس فرضية.

وهذا نتيجة ابتعادنا عن مقوّمات الدّين الحنيف، إذ ذكر الإمام علي عليه السلام في وصيته: «فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم»[٧]. فمن خلال التقوى يكون المجتمع خالياً من آفة الفساد.

فالأديان أنزلها الله سبحانه لا للقتتال، وإنما للتعاون بين أفراد ومجتمع وآخر. وجميع الأديان السماوية تدعو الناس إلى التعاون والتعارف والتآخي فيما بينها، وأن ينشر كلُّ واحد منّا نعمة الأمن ونعمة السلام في كلّ مكان لتحيا المجتمعات بهذه النعم الإلهية، ولا تدعو الناس إلى التخريب والقتل ونشر الكراهية التي تقطع أواصر المحبّة والألفة بين المجتمعات، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٨]، فالآية تدعوا جميع الناس وليس قبيلة بعينها أو شعباً بعينه؛ لأن جميع البشر من أصل واحد، وميزان التفاضل هو

(٧) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ص ٣٧٤، ح ١٩٨.
(٨) سورة الحجرات: ١٣.

الإيمان والتقوى، وليست العلاقة قائمة على أساس المصالح الشخصية والفئوية والحزبية والقوميّة الضيّقة، فاليوم بعض المجتمعات يسودها التنافس الحزبي والاقتتال على السلطة والمناصب والوصول إلى دكّة الحكم والنفوذ، حيث يكون همّ هذه المجاميع الحفاظ على مواقعها وكراسيها، فتخطط على كيفية التخلّص من الخصوم المنافسين في الحكم ويصل بهم الحال إلى الاقتتال على حساب تدمير المجتمع والتضحية فيه، وهذا هو التعاون الذي نهى المولى سبحانه وتعالى عنه إذ عبّر عنه بالتعاون على الإثم والعدوان، وأمرنا بالتعاون على أساس البرّ والإيمان. لما لهذا المقوّم من أثر على بناء المجتمع وإشاعة الإحسان والمحبّة ونبذ البغض والعداء.

٢ـ التعايش على أساس الأخوّة :

أشار القرآن إلى أن الإسلام دين التآخي والتآلف ويقيم علاقاته الاجتماعية على أساس المحبّة والتآخي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٩].

ولم تقم الأخوّة الإسلامية على أساس القوميّة والجنس والقبيلة والعشيرة وإنما بُنيت على أساس إنساني وهذه الأخوّة الإسلامية تساعد على إيجاد الوحدة والتماسك في المجتمع الإسلامي والتفاهم والتعاون والمحبّة والإيثار، لا بمفهومها الخاطئ الذي استغلها أصحاب النفوس الضعيفة لمصالحهم ومآربهم الشخصية ونشر الفتنة والقتل والتكفير في المجتمع لتمزيقه ونهب ثرواته باسم الدّين والدّين منهم بُراء.

(٩) سورة الحجرات: ١٠.

وإن كثيراً من النصوص تؤكد على الأخوّة الإنسانية وهي دائرة أوسع من الأخوّة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١٠]، كما يعطي الإسلام لأبناءه رؤيةً وثقافةً تجعلهم ينظرون إلى كلّ الناس نظرة احترام ويعاملونهم على أساس الأخوّة والمودّة ومحبّة الخير للجميع بغض النظر عن انتماءاتهم وأديانهم، وهذا واضح من خلال مراجعة آيات القرآن الكريم الذي نصّ على كرامة الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١١]. «وهذه الآية عامة في دلالتها على تكريم الانسان كإنسان دون النظر إلى انتمائه ولونه ولغته ودينه»[١٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[١٣]. من خلال هذه الآيات نستطيع أن نقسّم الأخوّة في القرآن الكريم إلى قسمين: الأخوّة الإنسانية من خلال الآية الدالّة على أن الخلق واحد ومن نفس واحدة، وآية التكريم كذلك. وهذا يعني شمولية الدّعوة الإلهية من خلال الأنبياء وليس لفئةٍ أو قبيلةٍ أو حزبٍ. والقسم الثاني: الأخوّة الإيمانية، وهي أوسع من الأخوّة الإنسانية، المبنية على البرّ والتقوى.

(١٠) سورة الحشر: ١٠.
(١١) سورة الاسراء: ٧٠.
(١٢) الدّين بين المظهر والجوهر، حسن الصفار: ص٢٩.
(١٣) سورة النساء: ١.

كما أشارة الإمام علي عليه السلام في كتابه إلى مالك الأشتر: «إما أخٌ لك في الدّين وإما نظيرٌ لك في الخلق»[١٤].

وقد نصّ القرآن الكريم على كيفية التعامل بين المجتمعات البشرية والإنسانية على نحو الأخوّة والمحبّة والتسامح والمودّة والابتقاد عن كلّ ألوان التعصّب والعنف ولغة التكفير والقتل وعن نفي الآخر وإلغائه بسبب الاختلاف الدّيني والمذهبي والقومي، وقد أشار الشهيد الصدر إلى ذلك بقوله: «إنّ تجسيد روح الأخوّة العامة في كلّ العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلّط. فما دام الله سبحانه وتعالى واحداً ولا سيادة إلا له والناس جميعاً عباده ومتساوون بالنسبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا إخوة متكافئين في الكرامة والإنسانية والحقوق كأسنان المشط»[١٥].

ونظراً لكون المسلمين إخوة فعليهم إحلال السلام فيما بينهم. والمعروف أن نبينا الكريم صلى الله عليه وآله في أول خطواته في المدينة قام بالمؤاخاة بين المسلمين في وقتٍ كان العداء بين هؤلاء شديداً، فبفضل الإسلام حلّ الإخاء مكان العداء، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[١٦]. فاليوم أين نحن من هذه الآيات الشريفة التي تشرح الصدر وتملأ الروح الإنسانية بالحبّ والأخوّة وتبني مجتمعاً متماسكاً متعايشاً على القيم السامية.

٣ـ التعايش على أساس الحوار بالتي هي أحسن:

الحوار يؤدي وظيفة مهمّة على صعيد تحقيق الاستقرار والأمن الاجتماعي، لأن قسماً كبيراً من المشاكل والأزمات

(١٤) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ص٥٠٠.

(١٥) الإسلام يقود الحياة، الشهيد الصدر محمد باقر: ص١٢٩.

(١٦) سورة آل عمران: ١٠٣.

الدّينية و الاجتماعية والسياسية تنشأ من جهل الناس بعضهم بعضاً وتصوّر كلّ طرفٍ للآخر على غير حقيقته، وذلك بسبب التباعد والقطيعة، أو لحدوث سوء ظنٍ، أو سوء فهم في البين بتفسير كلام ما أو عملٍ ما تفسيراً خاطئاً، أو لوصولٍ معلومات كاذبة لدى جهة عن الآخر، أو لوجود دور تخريبي بإثارة فتنة قوميّة أو مذهبية أو دينية، وهذا ما يحدث في وسائل الإعلام اليوم، إذ تقوم بتهويل الصراع والخلافات في المجتمع والنفخ فيها وتحويلها إلى أزمة وفتنة تؤدي إلى قتل الأطفال والنساء والشيوخ ويخربون البلاد.

فلابد من حوارٍ صادقٍ مبني على الأخوّة الإنسانية والاعتماد على التثبت في نقل الأخبار والوقائع وقبول الرأي الآخر والتهويل على المشتركات في بناء جسور المودة والمحبة الاجتماعية.

واليوم نحن بحاجة ماسّة إلى الحوار القرآني القائم على أسس حضارية لا يفرض الحق على أحدٍ لأنه لايحتاج إليه، وإنما الفرد والمجتمع بحاجة إلى هذا المنهج ليحقق فيه السعادة والأمن والتعايش السلمّي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١٧]، وهنا إشارة جميلة من علماء التفسير إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلّم الناس على كيفية التحاور مع الآخر وطرح أفكاره وتداولها مع الغير.

كما في تفسير البيان: «إنما قال ذلك على وجه الإنصاف في الحجاج دون الشك»[١٨].

(١٧) سورة سباء: ٢٤.
(١٨) مجمع البيان، الطبرسي: ج٨، ص ١٨٧.

فنلاحظ لم يطرح الأفكار بأنها صوابٌ وحقٌ مطلقٌ أو هي خطأ وغير حق مطلق. بل طرح المسألة على أساس يتساوى فيها احتمال الخطأ والصواب، كما تتساوى فيها صفة الهدايا والضلال، وهذا منهج قرآني مهم في طرح الأفكار والتحاور مع الآخر بحيث يؤسّس إلى حوار حرّ وهادئ ممّا يفتح باب التفكر والتعقّل والرجوع إلى الفطرة الإنسانية الصالحة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١٩]، انظر كيف يعبّر المولى سبحانه في الدعوى إليه وكيفية الحوار الهادئ ممّا يشعر باحترام الآخر، وهذا الأصل القرآني يتنافى مع إجبار الناس على اعتناق فكرة الآخر بالقوّة، ومن شأن هذا التعليم القرآني أن يساهم في عملية التعايش والتعاون السلمي مع المختلف معي فكريّاً وليس إلغائه وإقصائه، بحيث يأمرنا القرآن بالتحاور وتبادل الأفكار وحلحلت الخلافات وتجاوز الجزئيات التي لا نتفق عليها إلى الأشياء المشتركة التي نتفق عليها جميعا ونستطيع أن نتعايش على أساسها في أمن وأمان، ولا يأمرنا بالتناحر وإقصاء الآخر ونشر العداوة وتفكّك المجتمع.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الطبيعة الايجابية في الحوار بين الأديان في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢٠]. «فالآية الكريمة تدعو إلى الحوار الدّيني بين

(١٩) سورة النحل: ١٢.
(٢٠) سورة آل عمران: ٦٤.

المسلمين وأهل الكتاب وتشير إلى عناصر الاتفاق بين اليهودية والمسيحية والإسلام التي تكون أساساً للحوار بينهم، وتستبعد ضمنًا عناصر الاختلاف التي أدّى إليها التطوّر التاريخي لكلّ من اليهودية والمسيحية.

بل إن الإسلام يتجاوز تاريخ الاختلاف بين الديانات الثلاث ويطالب بالعودة إلى شكلّ بسيط وفطري للتوحيد يمثلّه دين إبراهيم عليه السلام الذي هو دين الفطرة» (٢١).

الحوار الدّيني يشير بطبيعته إلى حرية التعبير الدّيني، فالمحاور له كلّ الحرية في إعطاء رأيه الديني الذي يمثّل ديانته أو مذهبه في كلّ القضايا الدّينية المطروحة في الحوار مع الأديان الأخرى ، كما أنه يتفهّم في الوقت نفسه الرأي الدّيني الآخر المعبّر عن آراء الأديان الأخرى المشتركة في الحوار، وذلك انطلاقًا من الاعتقاد بالتعدّدية الدّينية والاعتراف بالأديان الأخرى، وكذلك انطلاقًا من تفهّم المشاعر الدّينية للآخرين، والاعتراف باختلاف التجارب والخبرات الدّينية.

وهذا المناخ الدّيني المتسامح مناخ يعترف بالتعدّدية الدّينية ويقبلها على أساس من قاعدة الاختلاف الطبيعي بين البشر، وقد اعترف الإسلام باختلاف البشر وأنه يمثل ظاهرة طبيعية وسنة إلهية. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (٢٢).

ومن مقوّمات الحوار بالتي هي أحسن، انتقاء اللّفظ النظيف والعبارة المهذّبة حين يريد المرء أن يتكلّم، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي

(٢١) الحوار الديني ودوره في مواجهة التطرّف الديني، محمد خليفة حسن: ص١٣.
(٢٢) سورة هود: ١١٨-١١٩.

يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[٢٣]. وما لهذا المقوّم من آثار قيّمة في بناء المجتمع خصوصاً في حلحلة الخلافات من خلال الحوار.

لقد جاء الإسلام داعياً إلى التناصح والتشاور، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٢٤]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٢٥] كما أن الدّين النصيحة، ومن الخير أن نفهم هذه المعاني السامية الجليلة، وأن نعمل على تحقيق هذه المقاصد.

وإنّ على المسؤولين أن يفتحوا صدورهم، وأن يدركوا أن من الخير لهم وللأمة جمعاء أن يتقبلوا المشورة والتحاور والنقد برحابة صدر، وأن يعملوا للتخلّص من العادات الضارّة، وأن يقدّموا المصلحة الكبرى على المصالح الشخصية والحزبية، وأن يعملوا بحزم وسرعة وتجاوب لكلّ ما فيه مصلحة المجتمع والأمة، حرصاً على تجنيب المجتمع الكثير من الشرور والأخطار، كهدر الدّماء والأموال، وتشريد العوائل الآمنة، وقتل الأطفال الأبرياء. فلا بد من التحاور بين السياسيين والمفكرين والعلماء، وتقديم النصيحة والتحاور على الأنسب والأفضل للصالح العام. إنه واجب يمليه الدّين والضمير والعقل السليم، أن ننبذ الغطرسة والغرور، وأن لا ننقاد لعنجهية سخيفة، ومظاهر دخيلة، يمد في حبلها ملق المنافقين البعيدين كلّ البعد عن الإنسانية والدّين، ويعجّل بظهور نتائجها الرهيبة صدودٌ عن ذوي الضمائر الحيّة الصالحة، واستخفاف بالمخلصين، وعزوف عن الأعمال المثمرة النافعة، اتباعاً للنزوات الشهوانية والمصالح الضيّقة، وتأثيراً للأنانيات الصبيانية، والوجاهة الوهمية.

(٢٣) سورة الإسراء: ٥٣.
(٢٤) سورة آل عمران: ١٥٩.
(٢٥) سورة الشورى: ٣٨.

٤ـ التعايش على أساس حرية الفكر:

حرية الفكر على منهجين؛ منهج التفكير الصحيح والذي يعتمد على الحرية ، والذي ينتج منه حرية المعتقد وعدم إلغاء الآخر أو تكفيره إذا اختلفا. ومنهج التفكير غير الصحيح المنغلق والذي يعتمد على التلقين والتقليد الأعمى، والذي ينتج منه التطرُّف والتعصّب الفكري وإلغاء الآخر وتكفيره واستحالة دمه، والذي ينتج من خلاله نشر الفساد في الأرض والاقتتال في المجتمع وتكون البيئة الاجتماعية مفكّكة مضطربة اجتماعياً ونفسياً واقتصادياً وسياسياً ودينياً.

ولا شك أن ما تواجهه المجتمعات وبالخصوص العربية والإسلامية من ضخامة التحدّيات وتزاحم المشكلات سببه ما في النفوس من مفاهيم متضاربة وتصوّرات خاطئة، وقيم واتجاهات ومناهج في التفكير مختلفة، وحسب فهمي إن المشكلة ليست في الموروث الإسلامي من القرآن والسنة، وإنما المشكلة في فهم هذا الموروث والمناهج والمباني، فنحن نحقن عقولنا وعقول ناشئتنا بالأفكار والمناهج من خلال التقليد الأعمى، ولا نهضمها وننقّحها من خلال التفكير والتفكّر، والنتيجة هي قتل التفكير والابتكار.

والفرق بين هضم الأفكار وحقنها كالفرق بين الحقن بالطعام وهضمه؛ فهضم الأفكار يمرّرها بالعقل، أي: يحكم العقل ليقوم بتحليلها وإعادة تركيبها، ثم يستعمل حصيلة التقويم لبدء دور حرية الفكر. أما حقن الأفكار، فهو يترك تحكيم العقل فيتناول

الأفكار رأساً من مصدرها كوجبات جاهزة، لتكون النتيجة إفساد أساليب التفكير وتمزيق حلقات السلوك وقمع الحريات ونشر أُسلوب التكفير والقتل وخصوصاً في المجتمعات التي يكثر فيها الفقر والجهل واستغلالها باسم الدّين.

ولذلك فإن الحاجة جدّاً ماسّة لهذا المقوّم وتفعيله في المجتمع، ولهذا فإن القرآن الكريم في كثير من المواقف طلب من الإنسان أن يحكّموا العقل في كلّ تصرفاتهم، قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢٦)، وقوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(٢٧)، والحث على التفكر والتدبر في القرآن كثير جدّاً وهذا يدلّ على أهميته في بناء المجتمع وزادهاره ورفاهيته.

وعلى ذلك كانت أهم دعوة في القرآن هي الدّعوة إلى حرية العقيدة لكلّ إنسان، فلا يُجبر إنسان على ترك دينه للتحوّل إلى الإسلام أو التحوّل إلى أيّ ديانة آخرى، فحرية المعتقد هي مقوّم عام في القرآن، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين﴾(٢٨).

فلا يوجد في هذه النصوص من تكفير واستحلال الدّم، وإنما السبيل إلى نشر الإسلام بالفكر والحوار وليس في القتل والسيف والجبر كما تصوّره بعض الدراسات الغربية، بل أن الإسلام دين الإنسانية والأخلاق والرّحمة والعدل ورفع الظلم ونشر السعادة في المجتمعات.

وانظر كيف تعامل الإسلام مع الأديان الأخرى من العيش بسلام والتساوي في الحقوق والواجبات، ووضع قانوناً لحماية غير المسلمين بحيث أن المواطنين غير المسلمين في المجتمع

(٢٦) سورة الأعراف: ١٧٦ سورة النحل: ٤٤ - سورة الحشر: ٢١.
(٢٧) سورة البقرة ٤٤، بحيث ذكرت في القرآن ١٣ مرة.
(٢٨) سورة البقرة ٢٥٦.

الإسلامي يُسمّون بأهل الذّمة، وهو تعبير فقهي، إذ أن الدّولة الإسلامية كانت ترتبط بالمسلمين من خلال العقيدة الإسلامية؛ أما غير المسلمين فارتباطهم في بلاد الإسلام بعهد المسلمين وذمتهم وأصبحوا بهذا العهد أهل ذمة، لهم ما للمسلمين من حقوق وواجبات وأن يتركوا أحراراً في عقائدهم وعباداتهم وأحوالهم الشخصية. ولكن اليوم تغير عقد الذمة إلى المواطنة، فالمواطنة حقٌ لكلّ مسلم وغير مسلم، الجميع يرتبطون بالوطن يعيشون فيه ويدافعون عنه جميعاً ويدينون بالولاء له على الرغم من تعدّد العقائد والمذاهب، وهذا ما يسود العالم اليوم من مفهوم المواطنة أو الهوية.

والإنسان الذي يتمرّس على التربية الإسلامية الصحيحة لا يعطّل عقله ولا مواهبه الفكرية، فلا يصدّق الوهم ولا يأخذ بالظن؛ لأن الظن لا يغني من الحق شيئًا، وإنما يحكم العقل والفكر فيما يعرض له من مسائل الدّين والكون والطبيعة والحياة؛ ليصل إلى العلم وليبلغ اليقين، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٢٩]، أي: لا تقل علمت، والحال أنك لم ترَ؛ لأن الله سبحانه سيسأل الإنسان من أين جاءه العلم عن كلّ ما رآه وسمعه وعلمه. ومنها اتباع أهدى السبل وأقوم المناهج وأولى بالحق في العمل، يقول سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٣٠].

(٢٩) سورة الإسراء: ٣٦.
(٣٠) سورة الزمر: ١٧-١٨.

إن إلغاء حرية الفكر يرتبط دائماً بالتعصّب الأعمى والانغلاق الفكري وعدم قبول الرأي الآخر، لعدم الحرية في الفكر والمعتقد، الأمر الذي يؤدي إلى سلسلة لا متناهية من العنف المضاد الذي يؤدي في النهاية إلى صراعات مدمّرة داخل المجتمع وبتالي يعجز المجتمع في التفكير عن حلول مبدعة لمشكلاته وعن تطوير ذاته، وبذلك يصبح مجتمعاً مضطرباً وغير مستقر وتكثر فيه الحروب والاقتتال الطائفي والقومي، وعلى هذا فإن مواجهة ذلك يتطلب ضرورة نشر الفكر الوسطي للإسلام والتطوير الحقيقي لمناهج الفكر والتعدّدية الفكرية وتشجيع النقاش والحوار والبعد عن الغلو في فهم النصوص الدّينية والتعصّب المذهبي بكثير من الدواعي ومنها الخوف على الهوية مثلاً، بل من المفترض أن نخاف على إنسانية الإنسان وأمانه في المجتمع والعيش في سلام.

والاختلاف بين البشر سبب مهم من أسباب اجتماعهم وتعارفهم وتبادلهم للمعارف وهو سنة كونيّة كما ذكرنا سابقاً.«فعندما نفهم الاختلاف فهماً صحيحاً في الطبيعة الإنسانية، عند ذلك يمكن أن نطلّ على طبيعة خلافاتنا بقراءة جديدة، والخلاف يقع على نوعين: أحدهم نتيجة هوى وضلالة وجهالة وزيغ، وثانيهما: نتيجة واقع طبيعي للأشياء يتعالى عن كلّ معايير النقد الأخلاقي على مستوى العقل العملي، فإنني سوف أتفهّم ظهور الرأي الآخر في المجتمع، ولن يكون هذا الرأي شراً أو هوى أو نية سوء»[٣١].

ولابد أن يتعامل الناس فيما بينهم بخلقٍ حسنٍ، وليس فقط

(٣١) حوارات في الفكر الديني المعاصر، حيدر حب الله: ج١ ص١٨٠-١٨١.

بالقول، وإنما بالسلوك العملي، والحرية الفكرية لا تتيح إليك تسقيط الآخر المختلف معك ولا إلغائه أو تهميشه ويصبح صراعاً دمويّاً باسم الحرية أو الديمقراطية، فهذه ليست حرية، بل الحرية هي الاعتراف بالآخر المختلف معك واحترامه وأن تحسن إليه، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣٢)، وفي الآية تأسيس إلى العدل والقسط حتى مع المختلفين معك دينياً. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٣٣) وفي الآية الكريمة إشارة إلى اعتماد معاملة والمساواة والعدل مع العدو وليس مع المختلف معك فقط، بحيث الذي يسيء إليك تحسن إليه وتبّره وتقسط إليه وليس تعفو عنه فقط.

فالإسلام يمنح حرية الإرادة والاختيار في المعتقد ولا يرضى أن يصادر أحد هذه الحرية من الناس، فقد بُيّن في القرآن حدود التذكير والتبليغ، قال تعالى:﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾(٣٤).

وكان منهج كلّ الأنبياء في الدّعوة إلى الله الذي كان قائماً على أساس مخاطبة العقل والوجدان وكانوا يستخدمون أفضل أساليب الجذب والاستقطاب بالموعظة الحسنة والأخلاق الطيّبة والتعامل السليم والتذكير بالفطرة الإلهية.

فاليوم نحتاج إلى هذا المقوّم وفي بناء المجتمع الذي يتعامل مع الاختلافات العقدية والمذهبية بسعة افق وحرية فكرٍ ورحابة

(٣٢) سورة الممتحنة: ٨.
(٣٣) سورة فصلت: ٣٤.
(٣٤) سورة الغاشية: ٢١-٢٢.

صدر، خصوصاً في الزمان الحاضر إذ تعاني الأمة الويلات والمآسي من تصرّفات وممّارسات بعض المتطفّلين الجهلة بنشر الفساد من الاقتتال والتناحر في البلدان الإسلامية مع الأسف والاقتتال باسم الدّين، وهذا نتيجة غياب الخط الواعي في المجتمع، وعدم تصدّيه لهذه الهجمة الشرسة على المسلمين والإسلام واستغلالها من قبل أعداء الإسلام.

٥ـ التعايش على أساس العدالة والمساواة:

إذا تأملنا فيما شرّعه الإسلام من مبدأ المساواة وتعزيزه لهذا المفردة في ربوع المجتمع الإسلامي بأسلوب مثالي فريد نجد أن أيّ تشريع سماوي أو وضعي لم يصل في مبلغ الحرص على المساواة إلى ما وصل إليه الدّين الحنيف، فقد قرّر الإسلام مساواة جميع الناس في القانون والحقوق والواجبات، فأفراد المجتمع ذكوراً وإناثاً، بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، أغنياء وفقراء، كلّهم في شرعة الإسلام سواسية كأسنان المشط لا يتفاضلون إلّا بالتقوى والعمل الصالح وهو المقوّم الأول الذي ذكرناه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣٥].

والاعتقاد بمساواة الناس شرط لابد منه لقيام العدل الذي جعله القرآن الكريم غاية النبوّات، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٣٦]. كيف يقام ويطبق البرُّ والقسط في الأمة إذا كانوا يعتقدون أنهم طبقات متمايزة أو أُسر متفاضلة، وهذه الفكرة رائجة حتى في عصرنا الحاضر، والتي سبّبت مشاكل عديدة وخصوصاً تشكيل

(٣٥) سورة الحجرات: ١٣.

(٣٦) سورة الحديد: ٢٥.

النظام الطبقاتي الذي قام على أساس التمايز بين الناس بمعايير جاهلية، كالأسرة الحاكمة، والحزب الحاكم، والقوميّة والعنصرية وحتى الدّينية كالأسرة العلمية، ففي مثل هذا النظام لا يمكن أن يقيم البرّ والقسط ولا يمكن للمستضعف أن ينال حقوقه في بيئة كهذه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وذريته الأطهار عليهم السلام المثل الأعلى في تطبيق مبدأ المساواة والدّعوة إليه قولاً وعملاً.

وفي الوقت الذي قرّر الإسلام فيه المساواة، فإنه قرّرها بأسلوب منطقي حكيم يلائم العقول النيّرة والفطرة السليمة ويساير مبادئه الخالدة في إشاعة العدل وإتاحة فرص التكافئ بين عامة المجتمع وإناطة التفاضل والتمايز بينهم فيما هو مقدور لهم وداخل في امكاناتهم من أعمال الخير والصلاح دون ما كان خارجاً عن طاقتهم وإرادتهم من وفرة المال أو سعة الجاه.

والعدل والمساواة من المقوّمات الرئيسة للتعايش السلمي في المجتمع، لأن عدم العدل والمساواة بين المجتمع هو من يساعد على نشر الفساد والظلم بين أفراد المجتمع، لأن المظلوم أو المقهور إن لم يستطع نيل حقوقه بالطرق المشروعة، فقد يعلن عن غضبه بقيامه رد الظلم بمثله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣٧]. وانطلاقاً من مبدأ البرّ والعدل في الإسلام وعالميته، فإن الله يأمر المسلمين بالعدل الشامل الكامل، حتى مع المختلف معهم والذين يسيئون إليهم؛

(٣٧) سورة النحل: ٩٠.

لأن العدل حق لله، ولا ينبغي تجاوزه، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣٨).

كما ذكر الطبري في تفسير: «يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حدّدت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصروا فيما حدّدت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمري، ولا يحملّنكم عداوة قوم على ألّا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة، اعدلوا أيها المؤمنون، على كلّ أحد من الناس وليّاً لكم كان أو عدواً، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه»(٣٩).

وهذا هو عدل الإسلام في أحكامه مع جميع الناس، ونشر العدل في المجتمع من شأنه جعل الناس صلحاء عادلين مع أنفسهم وأبناء جلدتهم، بل ومع أعدائهم، ووسيلة لإعلاء كلمة الله، والدّعوة إلى هداية الناس إلى الإسلام ورسالته رسالة الاعتدال من نشر المحبّة والأمن والأمان لجميع بقاع الأرض، فهذا المقوّم له آثار في بناء المجتمع وخصوصاً في المرحلة الراهنة؛ لأن الأمة الإسلامية تمرُّ بمرحلة من أدقّ المراحل في حياتها،

(٣٨) سورة المائدة: ٨.
(٣٩) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: ج١٠، ص٩٥.

ومن الخير لها أفراداً وجماعات أن يقوم كلّ بما يفرضه عليه دينه وعقيدته في هذا الشأن، من توحيد الصفوف على كلمة التوحيد والتشاور فيما بينهم على تقديم الأفضل من نشر الإسلام وعدالته في مجتمعاتنا بحيث يصبح المجتمع المثالي كما هو معبّر عليه في القرآن الكريم «خير أمة» وفي طليعتهم علماء وفقهاء الأمة الإسلامية جمعاء، وأثر هذا يصبُّ في بناء المجتمع وازدهاره والعيش في أمان.

النتائج:

١- إن التعايش السلمي ضرور في المجتمع الإنساني. ولهذه الضرورة مقوّمات.

٢- إن البرّ والتقوى من مقوّمات الفرد والمجتمع في سبيل العيش في أمان وسعادة.

٣- إن الأخوّة من مقوّمات المجتمع، إذ أشرنا إلى قسمين: الأخوّة العامة، والأخوّة الخاصة، وإن المجتمع يبتني على كليهما في سبيل العيش بأمان في تكاتف ولحمة هذا المجتمع.

٤- الحوار وأهميته في حلّ المشاكلّ والخلافات وتقريب وجهات النظر في المجتمع ممّا يساعد على نشر الهدوء والاطمئنان في المجتمع والتعايش السلمي.

٥- الحرية الفكرية وإبداء الرأي له أثر في ازدهار الفكر ونشره في المجتمع والتعايش على أساس الإنسانية والتآخي.

٦- العدل وهو المصداق الأبرز في المجتمع ومدى احتياج المجتمع إليه لأنه المقوّم الرئيس إليه في العيش بأمن وأمان في ظل وجود هذا المقوّم.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، المكتب الإسلامية، دمشق سوريا، ١٩٩٩ م.

٢. حب الله ، حيدر كامل، إضاءات في الفكر والدّين و الاجتماع، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ٢٠١٣ م .

٣. حب الله، حيدر كامل، حوارات ولقاءات في الفكر الدّيني المعاصر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ٢٠١٤ .

٤. الصفّار، حسن بن موسى، التعددية والحرية في الإسلام، مركز الحضارة، بيروت لبنان، ٢٠١٠ م ط ٤ .

٥. الصفّار، حسن بن موسى، الدّين بين المظهر والجوهر، أطياف للنشر، القطيف الحجاز، ٢٠١٢ م . ط ١ .

٦. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، تفسير الراغب، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٧. الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، دار الصدر، مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ط ٤، قم، ١٤٢٨ هـ .

٨. الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة، مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ط ٤، قم، ١٤٢٨ هـ .

٩. الطباطبائي، السيد العلامة محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت لبنان، ١٤١١هـ ط ١ .

١٠. الطبرسي، أبو الفضل الحسن، مجمع البيان، مؤسسة الأعلمي بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥م.

١١. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير جامع البيان في تأويل القرآن، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٩٩٥ م .

١٢. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٣٠ هـ.

١٣. محمد خليفة حسن أحمد، الحوار الدّيني ودوره في مواجهة التطرُّف الدّيني، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٩ م.

١٤. مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، وزارة الإرشاد الإسلامي، إيران، ١٩٧٩ م، ط١.

١٥. المياحي، عبد الله خزعلي، الكمال الاجتماعي بين الشريعة والقوانين الوضعية، دار إحياء التراث، بيروت لبنان، ٢٠٠٠ م.

٧

منهج التفسير الانتزاعي للنبي والأئمة المعصومين

الدكتور فارس علي حسن العامر
جامعة المصطفى العالمية

مقدمة

وبعد؛ فإنَّ القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تحدّى بها المصطفى صلى الله عليه وآله الإنس والجن على الإتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً إلى يوم القيامة هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فهو المصدر الأساس للشريعة الاسلامية.

ومن هذا المنطلق اهتم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من بعده بالقرآن وبتفسيره وتطبيق أحكامه في حياة المسلمين، واحتذى حذوهم عليهم السلام الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يومنا هذا.

والذي لفت نظري من خلال المطالعات لأجوبة وكلمات المعصومين عليهم السلام الفقهية، والعقائدية، والأخلاقية، والارشادية أنَّ الكثير منها منتزَعٌ من القرآن الكريم، بحيث لو قيل لهم عليهم السلام: من أين هذا؟ لقالوا: من كتاب الله وذكروا الآية أو الآيات ؛ بل ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عنه من كتاب الله ...»[1].

لذا أحببت طرح هذا البحث، وأسميت منهج التفسير هذا بـ«منهج التفسير الانتزاعي»، وهذا المنهج لم يذكره أحد من علماء تفسير القرآن وعلومه.

ومن نافلة القول أن أشير إلى أنَّ هذه خطوة أولية لعلَّ الله عزَّ وجلَّ يوفّق من يعطي الموضوع حقَه بدراسة مستوعبة إنه ولي التوفيق.

(١) اصول الكافي، الكليني: ج ١، ص، ٤٨.

معنى التفسير ومناهجه

أولاً - معنى التفسير:

أ - معنى التفسير لغة:

قال ابن منظور (ت/ ٧١١هـ): «الفَسْرُ: البيان، وفَسَرَ الشيءَ يَفْسِرُهُ «بالكسر»، ويَفْسُرُهُ «بالضَّمّ»: أبانه.

والتفسير: مثله، قال تعالى: «وأحسنَ تفسيراً»[٢].

الفَسْرُ: كشف المغطَّى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل[٣].

وسَفَرتِ المرأة وجهها إذا كشفت النّقاب عن وجهها[٤].

وقال الفيومي (ت/ ٧٧٠هـ): «فَسَرْتُ الشيء فَسْراً من باب ضرب: بينّته وأوضحته، والتفعيل مبالغة[٥].

وقال الطريحي: (ت/١٠٨٥هـ): التفسير في اللغة: كشف معنى اللفظ وإظهاره، مأخوذ من «الفَسْر»، وهو مقلوب «السَّفْر»، يُقال: أسفرتِ المرأة عن وجهها إذا كشفته، وأسفر الصبح إذا ظهر ... بيّنْتُهُ وأوضحتُهُ[٦].

إذاً المعنى اللغوي للتفسير، سواء أُخِذ من «الفَسْرِ» أم من «السَّفْرِ» معنى واحد، وهو «الكشف والبيان».

ب - معنى التفسير اصطلاحاً:

مفردة التفسير لها عدة تعاريف اصطلاحية اخترنا منها ثلاثة:

١ - قال الزرقاني(ت/ ١٩٤٨م): «والتفسير في الإصطلاح: علمٌ يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية »[٧].

(٢) سورة الفرقان: ٣٣.

(٣) لسان العرب، ابن منظور: ج١٠، ص ١٦١.

(٤) المصدر السابق: ج ٦، ص ٢٧٦.

(٥) المصباح المنير، الفيومي: ص ٢٤٥.

(٦) مجمع البحرين، الطريحي: ج ٣، ص ٤٣٧.

(٧) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني: ج ١، ص٤٢٣.

وقال السيد الخوئي (ت ١٤١٣هـ): «هو إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز»[٨].

وقال السيد الطباطبائي (ت/ ١٩٨١م٩): «هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها»[٩].

وعليه، فإنَّ التفسير الاصطلاحي هو: بيان مراد الله عزّ وجلَّ من أقواله في كتابه العزيز .

وبهذا يلتقي المعنى الاصطلاحي للتفسير مع المعنى اللغوي، وهذا يعني بأنَّ المعنى الاصطلاحي منحدر عن المعنى اللغوي[١٠].

ثانياً _ مناهج التفسير:

أ - معنى المنهج لغة:

قال ابن منظور: ««أنهج» الطريقُ: وضح واستبان، وصار «نَهْجاً» واضحاً، بيّناً، و«المنهاج»: الطريق الواضح»[١١].

وقال الفيومي: ««النهج» مثل فلْس: الطريق الواضح، و «المنهج، والمنهاج» مثله، و«نَهَجَ الطريقُ» «ينهج نهوجاً...» وضح واستبان»[١٢].

و جاء في المعجم الوسيط: «المنهاج: الطريق الواضح...» [١٣].

إذاً المنهج لغة: «هو الطريق الواضح البيّن».

ب - معنى المنهج اصطلاحاً:

ذُكرت لتعريف المنهج اصطلاحاً عدّة تعاريف، منها:

١ - المنهج هو: «مجموعة من القواعد العامة يعتمدها الباحث في تنظيم ما لديه من أفكار، أو معلومات من أجل أن توصله إلى النتيجة المطلوبة»[١٤].

٢ - هو: « الخطّة المرسومة الدقيقة، التي تتمثّل في القواعد

(٨) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي: ص٣٩٧.

(٩) الميزان في تفسير القرآن، السيد الطباطبائي: ج ١، ج ١، ص٧.

(١٠) دراسات قرآنية، المبادئ العامة لتفسير القرآن، محمد حسين الصغير: ص ١٨.

(١١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٤، ص ٣٠٠.

(١٢) المصباح المنير، الفيومي: ص٣٢٢.

(١٣) معجم اللغة العربية، ناصر خسرو: ج ٢، ص ٩٥٧.

(١٤) اصول البحث، عبد الهادي، الفضلي: ص٥٠.

والأسس والمنطلقات التي تعرَّف عليها المفسّر، والتي انطلق منها في فهمه للقرآن الكريم، والتي التزم بها في تفسيره له، هذه القواعد والأسس كانت ضوابط له ولتفسيره حكمته وهو يتعامل مع كتاب الله، ويفهمه ويفسّره، فلم يخالفها، ولم يخرج عنها»[١٥].

إذاً المعنى الاصطلاحي هو: «الطريقة الواضحة التي يسلكها المفسّر ؛ معتمداً على المصادر الخاصّة التي يتضح من خلالها معاني ومقاصد الآيات القرآنية ؛ بغية الوصول إلى نتائج معينة».

ونظراً لاختلاف المصادر التي يعتمدها المفسرون اختلفت مناهجهم التفسيرية وتعدّدت.

أهمّ المناهج التفسيرية:

١ - منهج التفسير الروائي، ويشمل:
أ - منهج تفسير القرآن بالقرآن.
ب - منهج تفسير القرآن بالسُّنَّة.
جـ - منهج تفسير القرآن بأقوال الصحابة.
د - منهج تفسير القرآن بأقوال التابعين.
٢ - منهج التفسير العقلي والاجتهادي.
٣ - منهج التفسير العلمي.
٤ - منهج التفسير الأدبي.
٥ - منهج التفسير الصُّوفي.
٦ - منهج التفسير الموضوعي.
٧ - منهج التفسير الفقهي[١٦].

(١٥) تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، الخالدي: ص١٧.

(١٦) دراسات قرآنية، المبادئ العامة لتفسير القرآن، محمد حسين الصغير: ص٢٥ - ٨١. ومعرفة، التفسير والمفسرون، محمد هادي معرفة: ج٢، ص ١٩ -٢٧، المفسرون حياتهم ومنهجهم، أيازي: ص٣٦ - ٦٥.

٨ - منهج التفسير الانتزاعي للمعصومين عليهم السلام.

وهذا المنهج الأخير لم يُذكر في منهج المفسرين، وإنّما استنتجناه من خلال روايات وسيرة النبي صلى الله عليه وآله، وأهل بيته المعصومين عليهم السلام، وهو موضوع بحثنا الذي بين يدي القارئ الكريم.

وسوف نتناوله من خلال محورين: المحور الأل: المقصود من المنهج الانتزاعي. المحور الثاني: نماذج من التفسير الانتزاعي.

منهج التفسير الانتزاعي للمعصومين عليهم السلام

المحور الأول: المقصود من منهج التفسير الانتزاعي:

أ - معنى التفسير الانتزاعي لغةً:

جاء في «المصباح المنير»: «نَزَعتُهُ من موضعه « نَزْعاً» من باب ضَرَبَ: قَلَعْتُهُ، و«انتزعْتُهُ»: مثله»[١٧]. أي: اقتلعْتُهُ.

وفي «المعجم الوسيط»: «انتزعَ» الشيءُ: انقلع، و«انتزع» الشيءُ اقتلعَ[١٨].

وفي المنجد: «نَزَعَ» الشيءَ من مكانه نزْعاً»: قلعه. و«انتزعَ» الشيءُ: انقلعَ، و«انتزعَ» الشيءَ: اقتلعه... ويقال لمن استنبط معنى آية: قد انتزعَ معنى جديداً[١٩].

وفي «مفردات ألفاظ القرآن»: «تَنزِعُ الناسَ»[٢٠]، قيل: تُقلعُ الناسَ من مقرّهم لشدَّة هبوبها، وقيل تنزع: «أرواحهم من أبدانهم»[٢١].

وعليه، فإنَّ معنى التفسير الانتزاعي لغة هو: «الاقتلاع»؛ أي اقتلاع معاني الآيات.

(١٧) المصباح المنير، مصدر سابق حرف النون: ص٣٠٩.
(١٨) المعجم الوسيط، حرف النون: ج ٢، ص٩١٣.
(١٩) المنجد في اللغة لويس معلوف، حرف النون، ص٨٠١.
(٢٠) سورة القمر: ٢٠.
(٢١) مفردات الفاظ القرآن، حرف النون الراغب، الأصفهاني: ص٧٩٨.

ب - معنى التفسير الانتزاعي اصطلاحاً:

هو استنباط؛ أي: استخراج معاني آيات القرآن الكريم وتفسيرها تفسيراً صحيحاً صائباً بما لا يكاد يدور في خَلَد العلماء فضلاً عن غيرهم.

وهذا المنهج الفريد نجده عند مَن نزل القرآن في بيوتهم، وهم محمد المصطفى صلى الله عليه وآله، وأهل بيته المعصومون عليهم السلام.

وقد أشار إبراهيم بن العبّاس الصولي عند وصفه للإمام الرضا عليه السلام إلى «انتزاعاته» من القرآن بقوله: «ما رأيتُ الرّضا يُسأل عن شيء قطُّ إلا علمه، ولا رأيتُ أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كلّ شيءٍ فيجب فيه، وكان كلامه كلُّه، وجوابه، وتمثّله «انتزاعات» من القرآن»[٢٢].

(٢٢) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢، ص ١٨٠.

ومنهج التفسير «الانتزاعي» هذا يتجلّى بوضوح من خلال النماذج التي سنذكرها في المحور الثاني الآتي من محاور البحث.

المحور الثاني: نماذج من المنهج الانتزاعي:

نذكر في هذا المحور نماذج من منهج «التفسير الانتزاعي».

ولابدَّ من الإشارة إلى أننا سوف نقتصر على ذكر ما نستطيع ذكره من تلك النماذج؛ نظراً لكثرتها، وعدم استيعابها الآن:

أ - ما جاء من التفسير «الانتزاعي» عن النبي صلى الله عليه وآله:

١ - جاء في جامع البيان لابن الطبري، عن عبد الله بن عباس، قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «يا ابن عباس، ارضَ عن الله بما قدّر، وإن كان خلاف هواك، فإنَّه مثبت في كتاب الله، قلت:

يا رسول الله فأين - وقد قرأت القرآن؟ قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكمْ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٣].

والتقدير يشمل التشريع والتكوين[٢٤].

٢ - عن العياشي، عن عبد الله بن سنان، عن ابي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا نُشِرَت الدواوين، ونُصِبت الموازين، لم يُنصب لأهل البلاء ميزان، ولم يُنشر لهم ديوان»، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢٥].

٣ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ الأرض لتخبر يوم القيامة بكلّ ما عُمل على ظهرها، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[٢٦]، قال: أتدرون ما أخبارها ؟ جائني جبريل قال: خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكلّ عملٍ عُمِلَ»[٢٧].

٤ - وفي «الدُّرّ المنثور»: أخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في «شُعب الإيمان»، عن أبي زهير يحيى بن مصعب، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أُعطي أحد أربعة فمُنعَ أربعة: ما أعطي أحد الشكر فمُنعَ الزيادة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢٨]، وما أُعطي أحد الدعاء فمُنع الإجابة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكمْ﴾[٢٩]، وما أُعطيَ أحدٌ الإستغفار فمُنعَ المغفرة ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾[٣٠]، وما أُعطيَ أحدٌ التوبة فمُنِعَ التقبل؛ لأنَّ الله تعالى

(٢٣) سورة البقرة: ٢١٦.
(٢٤) الطباطبائي، الميزان، ج ٢، ص١٩٢.
(٢٥) الطبرسي، مجمع البيان، ج ٨، ص٤٨٩، والآية: سورة الزمر: ١٠.
(٢٦) سورة الزلزال: ١ ـ ٤.
(٢٧) الدر المنثور، السيوطي: ج ٨، ص٥٩٢.
(٢٨) سورة ابراهيم: ٧.
(٢٩) سورة غافر: ٦٠.
(٣٠) سورة نوح: ١٠.

التوبة فمُنعَ التقبل ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾(٣١).

٥ - روى أيمن بن خزيم، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه خطبنا فقال: «أيّها الناس عُدلَت شهادة الزور بالشرك بالله ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾(٣٢).

٦ - اخرج عبد الرزاق، وابن جرير، والحاكم، والبيهقي، عن الحسن قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله يوماً مسروراً، وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عسر يسرين»، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾(٣٣).

٧ - عن روضة الواعظين، عن الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منه، وإن ازداد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكسِبُونَ﴾(٣٤).

ب _ ما جاء من تفسير «انتزاعي» عن الإمام علي عليه السلام:

١ - عن الصدوق قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا توضأ لم يدع أحداً يصبُّ عليه الماء، فقيل له: يا أمير المؤمنين لِمَ لا تدعهم يصبُّون عليك الماء؟ فقال لا أحبُّ أن أُشرك في صلاتي أحداً، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾»(٣٥).

٢ - عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام: أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إذا فرغ أحدكم من الصلاة فليرفع يديه إلى

(٣١) تفسير الميزان، مصدر سابق، الطباطبائي: ج ١٢، ص ٣٤، ٣٥. والآية الأخيرة : سورة الشورى: ٢٥.

(٣٢) تفسير مجمع البيان المصدر سابق، الطبرسي: ج ٧، ص ١٤٨، والآية: سورة الحج: ٣٠.

(٣٣) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج ٢، ص ٥٢٨ شُعب الإيمان، البيهقي: ج ٧، ص ٢٠٦. والآية: سورة الانشراح: ٥- ٦.

(٣٤) الطباطبائي، الحر العاملي :ج ٢٠، ص ٢٦٣، والآية: سورة المطففين: ١٤.

(٣٥) الوسائل، ج ١، ص: ٤٧٧، والآية : سورة الكهف: ١١٠.

السماء، ولينصب في الدعاء، فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين، أليس الله في كلّ مكان؟ قال: «بلى»، قال: فَلِمَ يرفع يديه إلى السماء؟ فقال عليه السلام: أما تقرأ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٣٦]، فمن أين يُطلب الرزق إلا من موضعه، وموضع الرزق وما وعد الله السماء»[٣٧].

٣ - رووا: أنَّ رجلاً حضرته الوفاة، فوصّى بجزء من ماله، ولم يعيّنه، فاختلف الوارث في ذلك بعده، فترافعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقضى عليهم بإخراج (السُّبع) من ماله، وتلا قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[٣٨].

٤ - وروي: «أنه عليه السلام قضى في رجل وصّى عند الموت بسهم من ماله، ولم يبيّنه، فلما مضى اختلف الورثة في معناه، فقضى عليهم بإخراج «الثُّمن» من ماله، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ...﴾[٣٩] وهم ثمانية أصناف، لكلّ صنف منهم سهم من الصدقات»[٤٠].

٥ - وقضى الإمام علي عليه السلام في رجل وصىّ بإعتاق كلّ عبد قديم في ملكه فلما مات لم يعرف الوصي ما يصنع، فسأل الامامَ عن ذلك، فقال عليه السلام: «يعتق عنه كلَّ عبد ملكه ستة أشهر، وتلا قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[٤١]، إنّما ينتهي إلى الشّبه بالهلال في تقويسه بعد أشهر من أخذ الثمرة منه[٤٢].

٦ - وقضى الإمام عليه السلام في رجل نذر أن يصوم «حيناً»، ولم يسمّ وقتاً بعينه، أن يصوم ستة أشهر، وتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تُؤْتِي

(٣٦) سورة الذاريات: ٢٢.
(٣٧) وسايل الشيعة، مصدر سابق: ج ٦، ص٤٨٧.
(٣٨) الارشاد المفيد: ج١، ص١١٨.
(٣٩) سورة التوبة: ٦٠.
(٤٠) الإرشاد، مصدر سابق: ج١، ص٢٢١.
(٤١) سورة يس: ٩٣. العرجون القديم: عود عذق النخلة إذا يبس وأعوج.
(٤٢) البحار، المجلسي، ج ٤٠، ص٢٦٥.

﴿أُكُلَهَا كلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[٤٣] وذلك في كلّ ستة أشهر[٤٤].

٧ - وعنه عليه السلام قال: «ما تأكل الحامل شيئاً، ولا تبدأ به أفضل من الرُّطب، قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾»[٤٥].

٨ - في «الدُّرّ المنثور»، اخرج ابن أبي حاتم، عن علي عليه السلام قال: «إذا تمّت النطفة أربعة أشهر بُعث إليها ملك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً ءَاخَرَ﴾، يعني نفخ فيه»[٤٦].

٩ - وعنه عليه السلام قال: «الزُّهد كلُّهُ بينَ كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾، ومَنْ لم يأسَ على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه»[٤٧].

جـ - ما جاء عن الإمام الحسن السبط عليه السلام:

١ - سُئل الإمام الحسن عليه السلام عن شاهد و مشهود، فقال عليه السلام: «أما الشاهد فرسول الله صلى الله عليه وآله، وأما المشهود فيوم القيامة ؛ أما سمعته عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[٤٨]، ويقول: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[٤٩].

٢ - وعنه عليه السلام قال: «وأوصاكم بالتقوى، وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كلّ توبة، ورأس كلّ حكمة، وشرف كلّ عمل، بالتقوى فازَ مَن فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾[٥٠] ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ

(٤٣) سورة ابراهيم: ٢٥.
(٤٤) الإرشاد، مصدر سابق: ج١، ص٢٢٢.
(٤٥) المصدر سابق، والآية: سورة مريم: ٢٥.
(٤٦) الدر المنثور، السيوطي: ج٥، ص٧. والآية: سورة المؤمنون: ١٤.
(٤٧) نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح: ص٥٥٣، حكمة: ٤٣٩؛ والآية: سورة الحديد: ٢٣.
(٤٨) سورة الأحزاب: ٤٥.
(٤٩) الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي: ص١٥٥، والآية: سورة هود: ١٠٣.
(٥٠) سورة النبأ: ٣١.

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٥١] فاتّقُوا الله عبادَ الله واعلموا أنَّه مَن يتقِ الله يجعل له مخرجاً من الفتن، ويسّدده في أمره»[٥٢].

د - ما جاء عن الإمام الحسين عليه السلام:

١ - رُوي أنَّه عليه السلام قال: «مَن أحبَّنا كان منّا أهل البيت»، فقلت - أي الراوي - منكم أهل البيت؟ فقال عليه السلام: «منّا أهل البيت»، حتى قالها ثلاثاً، ثم قال عليه السلام: «أما سمعتَ قول العبد الصالح: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾[٥٣].

٢ - ورُوي أنَّه عليه السلام كان يتصدّق بالسُّكَّر، فقيل له في ذلك، فقال: «إنّني أُحبُّه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٥٤].

هـ - ما جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

١ - عن مالك بن عطية، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: علي بن الحسين عليه السلام: «ضمنت على ربي أنَّ الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في يد الرّبّ، وهو قوله: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٥٥].

٢ - وعنه عليه السلام: «أنَّ الذنوب التي تغيّر النّعم: البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير، واصطناع المعروف، وكفران النّعم، وترك الشُّكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٥٦]، والذنوب التي تورث النَّدَم: قتل النفس التي حرّم الله، قال الله تعالى في قصة قابيل حين قتل أخاه، فعجز عن دفنه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[٥٧]، وترك صلة الرحم حين يقدر...»[٥٨].

(٥١) سورة الزمر: ٦١.
(٥٢) تحف العقول، الحراني: ص١٦٥.
(٥٣) الشريفي، موسوعة كلمات الامام الحسين، ج ٢، ص٦٩. والآية: سورة ابراهيم: ٣٦.
(٥٤) ن. م، ص١١٢، والآية: سورة آل عمران: ٩٢.
(٥٥) الفيض الكاشاني، الصافي، ج ٣، ص ٤٥٩، والآية: سورة التوبة: ١٠٤.
(٥٦) سورة الرعد: ١١.
(٥٧) سورة المائدة: ٣١.
(٥٨) عدة الداعي، ابن فهد الحلي: ص٢١٣.

و - ما جاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام:

١ - عنه عليه السلام أن الحسن والحسين صلى الله عليه وآله ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لأعطينّك من كتاب - عزَّ وجلَّ - أنّهما من صلب رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يردّه إلا كافر»، قال أبو الجارود: قلت: وأين ذلك جُعلت فداك؟ قال: «من حيث قال الله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ... وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾[٥٩]، يا أبا الجارود هل كان يحلُّ لرسول الله صلى الله عليه وآله نكاح حليلتهما؟ فأن قالوا: نعم، كذبوا وفجروا، وأن قالوا: لا، فإنّهما ابناه لصلبه»[٦٠].

٢ - عن محمد بن مسلم، قال: دخل رجل على أبي جعفر عليه السلام من أهل خراسان قد عمل بالرّبا حتى كثر ماله، ثم إنّه سأل الفقهاء، فقالوا: ليس يقبل منك شيء حتى تردّه إلى أصحابه، فجاء إلى أبي جعفر عليه السلام فقصَّ عليه قصته، فقال أبو جعفر عليه السلام: «مخرجك من كتاب الله عزّ وجلّ ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٦١].

٣ - وعن زرارة، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: من أين علمت، وقلت: إنَّ المسح ببعض الرأس، وبعض الرجلين؟ فضحك، ثم قال: «يا زرارة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله، ونزل به الكتب من الله ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ فعلمنا أنّ الوجه كلَّه ينبغي أن يُغسل، ثم قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه، فعرفنا أنه ينبغي لهما أن تُغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام، فقال: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ﴾ فعرفنا حين قال: ﴿بِرُؤُوسِكُمْ﴾ أن المسح ببعض الرأس؛ لمكان

(٥٩) سورة النساء: ٢٣.
(٦٠) تفسير الميزان، مصدر سابق: ج ٧، ص٢٧٣.
(٦١) تهذيب الأحكام، الطوسي: ج٧، ص١٦. والآية: سورة البقرة: ٢٧٥.

الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس، كما وصل اليدين بالوجه، فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أنَّ المسح على بعضهما»(٦٢).

ز - ما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

١ - عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام، قلت: ...فما تقول في رجل قتل في الحرم أو سرق؟ قال عليه السلام: «يُقام عليه الحدّ في الحرم صاغراً؛ إنه لم يَرَ للحرم حرمة، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(٦٣). فقال: هذا هو في الحرم، فقال: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾(٦٤).

٢ - وعن الصادق عليه السلام قال: «لو أنَّ رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل الله ما كان أحسن، ولا وُفّق؛ أليس الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، يعني: المقتصدين»(٦٥)، فالآية طلقة تشمل الإفراط والتفريط في الإنفاق وتعمُّ غيره(٦٦).

٣ - عن عبد الصمد قال: طلب أبو جعفر (يعني أبا جعفر المنصور) أن يشتري من أهل مكة بيوتهم كي يزيد في المسجد، فأبوا، فأرغبهم فامتنعوا، فضاق بذلك، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فقال: «إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم لنزيد في المسجد وقد منعوا في ذلك، فقد غمّني غمّاً شديداً، فقال، أبو عبد الله عليه السلام: «لِمَ يغمّك ذلك وحجتك عليهم فيه ظاهرة»، فقال: وبِمَ أحتجُّ عليهم؟ فقال: «بكتاب الله»، فقال: في أيّ موضع؟ فقال: قول الله:

(٦٢) انظر: الكافي، الكليني: ج٣، ص٣٠. والآية: سورة المائدة:٦.
(٦٣) سورة البقرة: ١٩٤.
(٦٤) انظر: الكافي، الكليني: ج٤، ص٣٢٨. والآية: سورة البقرة: ١٩٣.
(٦٥) انظر: الكافي، الكليني: ج٤، ص٥٣.
(٦٦) تفسير الميزان، مصدر سابق. والآية: سورة البقرة: ١٩٥.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾، وقد أخبرك الله: إنَّ أوّل بيت وضع للناس هو الذي وُضع ببكّة، فإن كانوا هم تولّوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، وإن كان البيت قديماً فيهم فله فناؤه»، فدعاهم أبو جعفر، فاحتجَّ عليهم بهذا، فقالوا: اصنع ما أحببت»[٦٧].

٤ - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَن وجب عليه هدي في إحرامه فله أن ينحره حيث شاء إلا فداء الصيد فإنَّ الله يقول: ﴿هَدْياً بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[٦٨].

٥ - عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: عثرت فانقطع ظفري، فجعلت على إصبعي مرارة، كيف أصنع بالوضوء؟ قال عليه السلام: يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّ وجلّ، قال الله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امسح عليه»[٦٩].

٦ - عن أبي عبيدة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَن أحبَّنا فهو منّا أهل البيت»، فقلت: جُعلت فداك منكم؟ قال: «منّا والله، أما سمعت قول الله، وهو قول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[٧٠].

٧ - عن أبي هاشم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام :«إنّما خُلّد أهل النار في النار ؛ لأنَّ نياتهم كانت في الدنيا أن لو خُلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنّما خُلّد أهل الجنّة في الجنّة ؛ لأنَّ نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً ؛ فبالنيّات خُلّد هؤلاء وهؤلاء ؛ ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ قال: على نيته»[٧١].

٨ - عن علي بن محمد، باسناده، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال سُئل أبو عبد الله عليه السلام عمّن بجبهته علّة، لا يقدر على السجود

(٦٧) انظر: بحار الأنوار، المجلسي: ج ٩٦، ص٨٣. والآية: سورة آل عمران: ٩٦.
(٦٨) الكافي، الكليني: ج٤، ص٣٨٤. والآية: سورة المائدة: ٩٥.
(٦٩) الكافي، الكليني: ج٣، ص٣٣. والآية: سورة الحج: ٧٨.
(٧٠) تفسير العياشي، العياشي: ج٢، ص٢٣١. والآية: سورة ابراهيم: ٣٦.
(٧١) الكافي، الكليني: ج٢، ص٨٥. والآية: سورة الاسراء: ٨٤.

عليها، قال: يضع ذقنه على الأرض إنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً﴾(٧٢).

٩ - عن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: على الإمام أن يُسمعَ من خلفه وإن كثروا؟ فقال عليه السلام: «ليقرأ وسطاً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِك وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾(٧٣).

١٠ - في «المجمع» روي عمر بن يزيد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إني لأركب في الحاجة التي كفاها الله، ما أركب فيها إلاّ التماس أن يراني الله أضحي في طلب الحلال. أما تسمع قول الله عزَّ أسمه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

أرأيت لو أنَّ رجلاً دخل بيتاً وطيَّن عليه بابه، ثم قال: رزقي ينزل عليَّ، كان يكون هذا؟ أما إنّه أحد الثلاثة الذين لا يستجاب له»(٧٤).

ج - ما جاء عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام:

١ - عن علي بن يقطين، قال: «سأل المهدي أبا الحسن عليه السلام عن الخمر، هل هي محرّمة في كتاب الله عزَّ وجلَّ؟ فإنَّ الناس إنما يعرفون النهي عنها، ولا يعرفون تحريمها، فقال أبو الحسن عليه السلام: «بل هي محرّمة»، فقال: في أي موضع هي محرّمة في كتاب الله عزّ وجلّ يا أبا الحسن؟ فقال: «قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(٧٥) إلى أن قال: فأما الإثم فإنها الخمر بعينها، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿يَسْأَلُونَك عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ

(٧٢) المصدر السابق. والآية : سورة الاسراء: ١٠٧.

(٧٣) المصدر السابق: ج٣، ص٣١٧. والآية : سورة الاسراء: ١١٠.

(٧٤) تفسير مجمع البيان، الطبرسي: ج ١٠، ص١٤. والآية : سورة الجمعة: ١٠.

(٧٥) سورة الاعراف: ٣٣.

﴿لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[٧٦]، فأما الإثم في كتاب الله فهي الخمر والميسر، وإثمهما أكبر من نفعهما كما قال الله تعالى. فقال المهدي: يا علي بن يقطين هذه فتوى هاشمية، فقلت له: صدقت يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت»[٧٧].

ط - ما جاء عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

١ - في «عيون أخبار الرضا عليه السلام» في حديث للإمام الرضا عليه السلام مع المأمون.

قال المأمون: هل فضّل الله العترة على سائر الناس؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنَّ الله أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه، فقال المأمون: أين ذلك من كتاب الله؟ فقال له الرضا عليه السلام: «في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٧٨].

٢ - في التهذيب بإسناده، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: سألت الرضا عليه السلام: يتمتع بالأمة بإذن أهلها؟ قال: «نعم، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾[٧٩].

٣ - عن محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن (يعني الرضا عليه السلام): هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربه عزّ وجلّ؟ فقال عليه السلام: «نعم، بقلبه رآه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ لم يَرَهُ بالبصر، ولكن رآه بالفؤاد»[٨٠].

ي - ما جاء عن الإمام محمد الجواد عليه السلام:

١ - في تفسير العياشي، عن زرقان صاحب ابن أبي داود

(٧٦) سورة البقرة: ٢١٩.
(٧٧) انظر: روضة المتقين، محمد تقي المجلسي (الأول): ج ٩، ص ٣٠٢..
(٧٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الصدوق: ج ١، ص ٢٠٨. والآية: سورة آل عمران: ٣٤.
(٧٩) تهذيب الأحكام، الطوسي: ج ٧، ص ٢٥٧. والآية: سورة النساء: ٢٥.
(٨٠) بحار الأنوار، المجلسي: ج ٧، ص ٢٥٧. والآية: سورة النجم: ١١.

وصديقة، عن داود، قال: «...إنَّ سارقاً أقرَّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفةَ (المعتصم العباسي) تطهيره، بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أحضر محمد بن علي بن موسى بن جعفر ، فسألنا عن القطع في أيّ موضع يجب أن يُقطع؟ قال: فقلت: من الكرسوع؛ لقول الله في التيمم ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾(٨١)، واتفق معي على ذلك قوم، وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأن الله لما قال: «وأيديكم إلى المرافق» في الغَسْل دلَّ على ذلك أن حدَّ اليد هو المرفق.

قال: فالتفت إلى محمد بن علي، فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: «قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين»، قال: دعني بما تكلَّموا به، أيّ شيء عندك؟ قال: «اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين»، قال: أقسمت عليك بالله لما أخبرتَ بما عندك فيه، فقال عليه السلام: «أما إذا أقسمتَ عليَّ بالله إني أقول: إنّهم أخطأوا فيه السُّنَّة ؛ فإنَّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فتُترك الكفُّ»، قال: وما الحجّة في ذلك؟

قال: قول رسول الله صلى الله عليه وآله: السجود على سبعة أعضاء الوجه والكفَّين، والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع، أو المرفق لم يبقَ له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: «﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ - يعني: به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها - ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً﴾»(٨٢)، وما كان لله لم يُقطع»، قال: فأعجب المعتصم ذلك، فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع

(٨١) سورة المائدة: ٦.
(٨٢) سورة الجن: ١٨.

دون الكفّ. قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنّيت أنّي لم أك حيّاً»[٨٣].

ك - ما جاء عن الإمام علي الهادي عليه السلام:

روي: بأنَّ المتوكل العباسي لما مرض نذر إنْ عوفي ليتصدقن بمال كثير، فسأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير، فاختلفوا، فقال بعضهم: مائة ألف، وقال بعض آخر: عشرة آلاف، وقال بعض ثالث: غير ذلك، فاشتبه عليه الأمر. فقيل له: اسأل ابن الرضا - يعني علياً الهادي عليه السلام - فأرسل المتوكل إلى الإمام عليه السلام بالسؤال، فقال عليه السلام: يتصدّق بثمانين ديناراً - حسب رواية الكافي - فسألوه من أين هذا؟ فقال أبو الحسن الهادي عليه السلام: « إنَّ الله عز وجل يقول: «لقد نصركم الله في مَوَاطِن كثيرة»[٨٤]، فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين»[٨٥].

وذكر صاحب الميزان: بأنَّ معنى الرواية أنَّ الثمانين من مصاديق الكثير بدلالة من الكتاب، لا أنَّ الكثير معناه الثمانون[٨٦].

الخاتمة

مما لا شكَّ فيه أنَّ صاحب هذا المنهج يتصف بعلمية لا تكاد توصف ؛ إذ يعطي حكماً شرعياً، أو أمراً، أو نهياً، أو حكمة خلقية ؛ مفسّراً ذلك كلّه بآية أو بآيات من كتاب الله المجيد.

ولعلَّ ذلك المعنى «المنتَزَع» من تلك الآية أو الآيات لا يطرأ على ذهن السائل، أو السامع أنه موجود في كتاب الله عزَّ وجلَّ.

ومن هنا، فإن هذا المنهج لا نكاد نجده الا عند المصطفى صلى الله عليه وآله،

(٨٣) انظر: تفسير العياشي، العياشي: ج١، ص٣٢٠.

(٨٤) سورة التوبة: ٢٥.

(٨٥) انظر: الكافي، الكليني: ج٧، ص٤٦٣.

(٨٦) تفسير الميزان، مصدر سابق: ج٩، ص ٢٣٧.

وآله المعصومين عليهم السلام؛ لأنهم الأعلم بتفسير كتاب الله وتأويله، ظاهره وباطنه، ناسخه ومنسوخه، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما يستطيع احد ان يدّعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره، وباطنه غير الأوصياء»(٨٧).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره، كأنه في كفي، فيه خبر السماء ، وخبر الأرض ، وخبر ما كان، وخبر ما هو كائن ؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكلِ شَيْءٍ﴾(٨٨).

الخلاصة

تناول هذا المقال منهجاً تفسيرياً جديداً للنبي صلى الله عليه وآله وللأئمة المعصومين عليهم السلام سميته بـ «منهج التفسير الانتزاعي»؛ والذي يعني: أن كلمات وأقوال، ووصايا، وأجوبة النبي صلى الله عليه وآله وأوصيائه عليهم السلام العقائدية، والفقهية، والأخلاقية، والارشادية ينتزعونها من القرآن انتزاعاً؛ بحيث لو سُئل أحدهم عليهم السلام عن دليل قوله أو جوابه لأجاب: بآية قرآنية، بل لو اسند ذلك إلى غيرهم من جهابذة العلم والتفسير لما استطاعوا انتزاع مثل ذلك الجواب من كتاب الله تعالى.

والبحث يدور حول محورين:

المحور الأول: التعريف بالمنهج الانتزاعي.

المحور الثاني: نماذج تطبيقية مما صدر عنهم عليهم السلام.

(٨٧) الكليني، أصول الكافي، الكليني: ج ١، ص١٧٨.

(٨٨) الكافي، الكليني: ج ١، ص٢٢٩.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١ ـ ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، ذوي القربى، قم، ط. ٣، (١٤٢٩ هـ).

٢ ـ ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. ١، (١٩٩٥ م).

٣ ـ الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، بيروت، ط. ١، (١٩٩٥ م).

٤ ـ إيازي، محمّد علي، المفسّرون، حياتهم ومنهجهم، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ط. ١، (١٤١٤ هـ).

٥ ـ الحر العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت، قم، ط. ٣، (١٤١٦ هـ).

٦ ـ الحلي، أحمد بن فهد، عُدَّة الداعي، دار المرتضى، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ط. ١، (١٩٨٧ م).

٧ ـ الخالدي، صلاح عبد الفتّاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسّرين، دار القلم، دمشق، ط. ١، (١٤٢٣ هـ).

٨ ـ الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، ط. ٣، (١٤٢٨ هـ).

٩ ـ الزرقاني، محمَّد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط. ٣، (٢٠٠٥ م).

١٠ ـ السيوطي، عبد الرحمن، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، (١٩٩٣ م).

١١ ـ الشريفي، مؤسسة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، تحقيقات: باقر العلوم، منظمة الإعلام الإسلامي، قم، ط. ٣، (١٩٩٥ م).

١٢ ـ الصدوق، محمَّد بن بابويه القمّي، عيون أخبار الرضا، تصحيح: مهدي اللاجوردي، جهان، طهران.

١٣ ـ الصغير، محمَّد حسين، دراسات قرآنية، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، (١٤١٣ هـ).

١٤ ـ الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، الأعلمي، بيروت، ط. ١، (١٤١٥ هـ).

١٥ ـ الطباطبائي، محمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط. ١، (١٩٩٧ م).

١٦ ـ الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، مرتضوي، طهران، ط. ٢، (١٣٦٥ ش).

١٧ ـ الفضلي، عبد الهادي، أصول البحث، دار المؤرخ، بيروت، ط. ١، (١٩٩٢ م).

١٨ ـ الفيض الكاشاني، محمَّد بن مرتضى، الصافي في تفسير القرآن، تحقيق: محسن الأميني، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط. ١، (١٤١٩ هـ).

١٩ ـ الفيومي، أحمد بن محمَّد، المصباح المنير، المكتبة العصرية، بيروت، (٢٠٠٤ م).

٢٠ ـ الكليني، محمَّد بن يعقوب، أُصول الكافي، المطبعة الإسلامية، طهران، (١٣٨٨ هـ).

٢١ ـ لويس معلوف، المنجد في اللغة، إسماعيليان، طهران، دار الشروق، بيروت، ط. ٢٦.

٢٢ـ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ناصر خسرو، طهران، ط. ٢.

٢٣ ـ المجلسي، محمَّد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط. ٢، (١٩٨٣ م).

٢٤ ـ معرفة، محمَّد هادي، التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب،

الجامعة الرضوية للعلوم، مشهد، ط. ١، (١٤١٨ هـ).

٢٥ ـ المفيد، محمَّد بن محمَّد بن النعمان، الإرشاد، مكتبة بصيرتي، قم.

٢٦ ـ المالكي، ابن الصباغ، علي بن محمَّد، الفصول المهمّة في معرفة الأئمة، مؤسسة الأعلمي، طهران.

٢٧ ـ نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح، الهجرة، إيران، (١٣٩٥ هـ).

٢٨ـ المجلسي، محمد تقي، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، تحقيق: السيد حسن الموسوي الكرماني الشيخ علي بناه الإشتهاردي، العلمية- قم، بنياد فرهنگ اسلامي، ١٣٩٨ هـ.

٢٩ـ العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي، المكتبة العلمية الإسلامية- طهران.

٨

السماحة الإلهية في القرآن الكريم والإرهاب البشري في التوراة المحرّفة

سعيد كاظم سعيد العذاري
باحث اسلامي

مقدمة

الإسلام دين السلام والأمان والسماحة والرّحمة جاء، من أجل هداية الإنسانية وتحريرها من جميع ألوان الانحراف الفكري والعاطفي والسلوكي؛ لأنه دين موضوع من قبل خالق الإنسان، إلاّ أنّ هناك معوّقات تقف في طريق حركته ومسيرته وتمنع من امتداده، وكان لأعدائه الدور الأكبر في خلقها؛ لأنّ تقدّم الإسلام والمسلمين له انعكاسات خطيرة على مصالحهم في حال اعتناقه من قبل الأمم والشعوب التي يحكمونها، فالأعداء يتربصون بالإسلام فكراً وامتداداً ويتآمرون عليه بلا توقّف، وهم يتصيّدون كلّ ثغرةٍ وكلّ حجةٍ وكلّ شبهةٍ لتشويه سمعته والتشكيك في مفاهيمه وغاياته وأهدافه، ويقودون حرب الشُّبهات وصراع التشكيك للحيلولة دون انتشاره وقيادته للناس أجمعين، فقد أثاروا عليه شبهة الانتشار بالسيف وإراقة الدّماء وإكراه الأقليات الدّينية على اعتناقه، واضطهاد غير المسلمين والتعامل العنصري معهم، وعدم اعتبارهم من المواطنين، وقد قرنوا عنوان الإسلام والمسلمين بالقتل والعدوان والتخريب وعدم مراعاة حقوق الإنسان، وقد غضّوا النظر عمّا ورد في التوراة المحرّفة من تعاليم وأحكام غير صادرة من الله تعالى أو من نبيه موسى عليه السلام والتي تحثّ على القتل والإرهاب والتدمير الشامل.

وفي هذا البحث نتطرّق إلى مقارنة بين السماحة الإلهية في القرآن الكريم والإرهاب البشري في التوراة المحرّفة.

الإسلام عنوان جميع الاديان السابقة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِئَايَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[١].

أي: إنّ «جميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع، وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصون، فالمسلم الحقيقي من كان خالصاً من شوائب الشرك، مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أيّ ملّة كان، وفي أيّ زمان وجد»[٢].

الإسلام هو الدّين الذي حمله نوح عليه السلام ودعا قومه إلى الإيمان به، وهو الدّين الذي أمره بالدّعوة والنهوض، ففي قمّة المواجهة بينه وبين قومه كان يخاطبهم: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

ويظهر عنوان الإسلام واضحاً في دعاء إبراهيم وإسماعيل، وفي وصايا إبراهيم ويعقوب عليهما السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّك أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَك وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّك...﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٥].

وقد أكّدّ أبناء يعقوب عليه السلام له في مرض موته على حقيقة التديّن بالإسلام، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿أَمْ كنتُمْ شُهَدَاءَ

(١) سورة آل عمران: ١٩.
(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي: ج٣، ص١١٩.
(٣) سورة يونس: ٧٢.
(٤) سورة البقرة: ١٢٧-١٢٨.
(٥) سورة البقرة: ١٣٢.

إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٦).

قد انتمى قوم موسى عليه السلام إلى عنوان الإسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(٧).

ولهذا نجد أنّ فرعون في آخر لحظات عمره وحينما أدركه الغرق يعترف بأنّه من المسلمين، كما حكى القرآن الكريم عنه قائلاً: ﴿... حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٨).

وحينما أراد عيسى عليه السلام إعلان الفصل بين الكفر والانتماء الإلهي أجابه الحواريون: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٩).

ونفى القرآن الكريم أيّ عنوان آخر غير الإسلام عن دين الأنبياء السابقين وأثبت أنّ الإسلام هو دينهم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْنَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُولُواْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١٠).

واعتراف أهل الكتاب بانتمائهم للإسلام قبل نزول القرآن الكريم وقبل البعثة النبوية الخاتمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾(١١).

(٦) سورة البقرة: ١٣٣.
(٧) سورة يونس: ٨٤.
(٨) سورة يونس: ٩٠.
(٩) سورة آل عمران: ٥٢.
(١٠) سورة البقرة: ١٣٥، ١٣٦.
(١١) سورة القصص: ٥٢، ٥٣.

وأكّد القرآن الكريم أنّ الدّين نزل في أُمة واحدة، فاستعرض مسيرة الأنبياء عليهم السلام في الدّعوة والهداية وفي الصراع مع الكفار وأتباعهم، ثم ختم ذلك الاستعراض بخطابه للمسلمين: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١٢].

وأكّدّ القرآن الكريم وحدة التشريع في منهج الأنبياء وحركتهم، فالله تعالى لم يشرّع ديناً جديداً بالبعثة النبوية الخاتمة، وإنّما هو دين واحد والشرائع مختلفة لأنها ناظرة إلى متطلبات المرحلة ويظهر هذا التأكيد في خطابه للمسلمين: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾[١٣].

والدّين واحد في أصوله وفي غاياته وأهدافه وفي وسائله، متنوّع في أدوار المكلّفين، فلكلّ مرحلة تاريخية نبيّ خاص وكتاب خاص ينسجم مع أحوال الناس وظروفهم المادّية والروحية وطاقاتهم الذاتية، ولا تناقض بين الكتب المنزلة على الأنبياء؛ فلكلّ مرحلة كتاب مصدّق للكتاب الأسبق ومكمّل له: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ .... وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾[١٤].

(١٢) سورة الأنبياء: ٩٢.
(١٣) سورة الشورى: ١٣.
(١٤) سورة المائدة: ٤٤، ٤٦، ٤٨.

والدّين في مرحلة بعثة النبي محمدﷺ هو المرحلة الأخيرة من المراحل التي مّرت بها البشرية وبها ختمت الرسالة بعد كمالها، وهو الحلقة الأخيرة من حلقات الدّعوة والهداية، ولهذا أشار رسول اللهﷺ: «مَثلي ومَثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللّبنة، فأنا اللّبنة، وأنا خاتم النبيين»(١٥).

ومن هنا فانّه لا تناقض بين الإسلام وبين الديانات السابقة التي اندرجت تحت عنوانه، ولا تضاد ولا مقاطعة ولا مفاصلة، ومن هذا المنطلق فإنّ الإسلام أقرّ المفاهيم والقيم غير المحرّمة ودعا إلى إظهارها وتقريرها في الواقع، وتعامل مع أتباع الديانات المحرّفة ضمن الأُطر والمحاور المشتركة، فأقرّهم على ما يتبنونه من عقائد وتشريعات فلم يكرههم على التخلّي عنها ما دامت لا تصطدم مع المصلحة العامة، وجسّد قادة الإسلام وأتباعه جميع مفاهيم التعاون والرّحمة والعفو.

والإسلام في جميع مراحله دين سماحة ورحمة ورأفة جاء لهداية الإنسانية وإنقاذها من الخرافات ومن الانحرافات ومن الظلم والاضطهاد والعبودية، للتوجّه إلى الله تعالى وحده، وقد أخرج القرآن الكريم الديانات المحرّفة من هذا العنوان، فأصبحت اليهودية عنواناً لمن حرّف التوراة، وأصبحت النصرانية عنواناً لمن حرّف الإنجيل.

ويرى السيد سامي البدري أنَّ: « اليهودية جاءت من كلّمة

(١٥) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري: ج٥، ص٢٢٦.

(هادو)، فالمسلمون في زمن موسى عليه السلام رجعوا إلى الله تعالى ـ هادو ـ فسمّوا باليهود»[١٦].

وعلى ضوء ذلك نرى أنّ ما جاء في التوراة المحرّفة من مفاهيم وقيم منسجمة مع سماحة الإسلام ورحمته إنّما تمثّل النصّ غير المحرّف، وإنّ المفاهيم والقيم المخالفة لسماحة الإسلام ورحمته هي نصوص محرّفة من قبل الأحبار المنحرفين أو الحكّام المنحرفين، وهذا ما نبحثه في هذه السطور.

النصوص غير المحرّفة

إنّ الإسلام أو الدّين الإلهي ثابت في قيمه وموازينه ومقاييسه؛ ولذا يجب عرض جميع النصوص عليه لإثبات صحّة صدورها عن الله تعالى أو عن رسله عليهم السلام، سواء أكانت بألفاظها أم بمعانيها.

ورد في كتاب اللاوين ١٩ ما يلي: «لا تظلم قريبك».

«لا تبغض أخاك في قلبك، بل إنذاراً تنذره؛ لئلا تكون شريكاً في ذنبه».

«لا تنتقم ولا تحقد على أحد أبناء شعبك، ولكن تحبّ قريبك كما تحبّ نفسك».

«إذا قام في أرضكم غريب فلا تظلموه، وليكن لكم الغريب المقيم عندكم كالمواطن، تحبّه كما تحبّ نفسك».

«لا تظلموا في القضاء... احكم لقريبكم بالعدل».

«لا ترتكب ما يعرض حياة جارك للخطر»[١٧].

(١٦) دراسات في التاريخ الإسلامي: العدد ١٣، نشرة صادرة عن معهد الدراسات الإسلامية، ١٤٠٧هـ.

(١٧) كتاب اللاوين ١٩: ص١٥٥ـ١٥٦.

فهذه الإرشادات والتعاليم منسجمة مع سماحة الإسلام ورحمته وعدالته، وقد ذكرتها التوراة المحرّفة، ولعلّها لم يطرأ عليها تحريف؛ لأنّ فيها مصلحة تماسك اليهود فيما بينهم وتقوية جبهتهم؛ لأنّهم قلّة قليلة بالقياس لغيرهم.

ولكن التحريف قد طرأ على نصوص تبين طبيعة علاقات غير اليهود، فقد امتلأت بالحقد والعدوان والإرهاب.

الهدف من القتال في الإسلام

قد يتساءل بعض المستفهمين: كيف يمكن التوفيق بين سماحة الإسلام وبين النصوص القرآنية المحرضة على قتال الكفار والمشركين؟ والجواب: إن هذا المحور معقود لبيان هذه الحيثية ورفع هذا الالتباس.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ...﴾[١٨].

والإسلام لم يرغّب في القتال ولم يشجّع عليه لذاته، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينهى عن تمنّي لقاء العدو، فيقول: «لا تتمنّوا لقاء العدو، فإذا لقيتموه فاصبروا»[١٩].

والإسلام لم يشرّع القتال رغبة فيه، ولم يشرّعه للسيطرة على الأراضي والسّكان ولا طلباً للغنيمة، ولم يكن قتال المسلمين من أجل مجد شخصي أو قومي أو طبقي، وإنما لإعلاء كلّمة الله تعالى ودفاعاً عن المفاهيم والقيم النبيلة والتي يحاول أعداؤه تعطيلها وإلغائها، وردعاً للعدوان الواقعي أو المحتمل الوقوع

(١٨) سورة الانفال: ٦١.
(١٩) كنز العمّال، المتقي الهندي: ج٤، ص٣٩١.

وبعضها كان من أجل فك الحصار عن الرسالة السماوية لتأخذ سبيلها في النفوس، والغالب فيها كانت حروباً دفاعية.

ولو نظرنا إلى التاريخ نظرة واقعية وجدنا أن جميع معارك الإسلام كانت معارك دفاعية لردّ عدوان واقعي أو محتمل الوقوع، ولا سيما في صدر الإسلام، وفيما يلي نستعرض دوافع القتال وأهدافه القريبة والبعيدة كما جاء في القرآن الكريم والسُّنة الشريفة.

أولاً ـ دفع العدوان

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَافِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٠].

وفي تفسير ذلك قال العلاّمة الطباطبائي: «القتال محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، وكونه في سبيل الله إنما هو لكون الغرض منه إقامة الدّين وإعلاء كلمة التوحيد، فهو عبادة يقصد بها وجه الله تعالى دون الاستيلاء على أموال الناس وأعراضهم فإنما هو في الإسلام دفاع يحفظ به حق الإنسانية المشروعة عند الفطرة السليمة، فإن الدفاع محدود بالذات، والتعدّي خروج عن الحدّ... والنهي عن الاعتداء مطلق يراد به كلّ ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال قبل أن يدُعى إلى الحق، والابتداء بالقتال، وقتل النساء والصبيان، وعدم الإنتهاء إلى العدو...»[٢١].

(٢٠) سورة البقرة: ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.

(٢١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي: ج٢، ص ٦١.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، أي: إذا نشب القتال بينكم وبينهم فاقتلوهم أينما أدركتموهم...»[٢٢].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ...﴾[٢٣].

ثانياً: الدفاع عن المستضعفين ونصرة المظلومين

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾[٢٤].

دعا القرآن الكريم إلى الدفاع عن المستضعفين ونصرة المظلومين الذين يعيشون في أرض الشرك، وقيّد النصرة بعدم الإخلال في العهود والمواثيق.

وعلى العموم، فإنّ الدفاع عن المستضعفين ونصرة المظلومين أمر مشروع تبيحه جميع الديانات إلهية كانت أم وضعية، بل يُرفع كشعار من قبل الجميع لمحبوبيته ومرغوبيته.

ثالثاً: قتال ناكثي العهد

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوٓاْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾[٢٥].

الآية تحرّض المؤمنين على قتال المشركين ببيان ما أجرموا به في جنب الله وخانوا به الحق والحقيقة، وعدّ خطاياهم وطغيانهم من نكث الأيمان والهمّ بإخراج الرسول والبدء بالقتال أول مرة[٢٦].

(٢٢) تفسير المراغي، مصدر سابق: ج٢، ص ٨٩.

(٢٣) سورة الحج: ٣٩، ٤٠.

(٢٤) سورة النساء: ٧٥.

(٢٥) سورة التوبة: ١٣.

(٢٦) الميزان في تفسير القرآن المصدر سابق: ج٩، ص١٥٩.

رابعاً: حماية العقيدة ورد العدوان المحتمل الوقوع

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢٧].

أيّ: «وقاتلوهم حتى لا تكون لهم قوّة يفتنوكم بها في دينكم، ويؤذونكم في سبيله، ويمنعونكم من إظهاره والدعوة إليه... ويكون دين كلّ شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفُتن بصدّه عنه ولايُؤذى فيه، ولا يحتاج فيه إلى مداهنة ومحاباة، أو استخفاء ومداراة»[٢٨].

والآية خاصة بالمشركين غير شاملة لأهل الكتاب، فالمراد بكون الدّين لله سبحانه وتعالى هو أن لا يعبد الأصنام ويقرُّ بالتوحيد، وأهل الكتاب مقرّون به[٢٩].

ودعا القرآن الكريم إلى ردّ العدوان المحتمل الوقوع، لكي لا يعتدى على المسلمين بغتة، ومن ثم تهديد كيانهم بالفناء.

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[٣٠].

وتفسير الآية: «إنه يجب إبلاغهم بإلغاء العهد ولا يجوز قتالهم قبل الإبلاغ؛ لأنّ ذلك خيانة، أمّا إذا لم يحتمل الخيانة، فلا يجوز نقض العهد معهم»[٣١].

وفي جميع الظروف والاحوال فإنّ القتال موقف استثنائي لم يُشرّع إلاّ لحماية الإسلام فكرةً وعقيدةً ووجوداً، ولذا فهو يدعو للتعامل بالبرّ والعدل مع غير المقاتلين ﴿لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

(٢٧) سورة البقرة: ١٩٣.
(٢٨) تفسير المراغي: ج٢، ص٩٠، ٩١.
(٢٩) انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٢، ص٦٢.
(٣٠) سورة الانفال: ٥٨.
(٣١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج١٠، ص١١٤.

﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٣٢].

والإسلام يدعو للعودة إلى السلام في التعامل والعلاقات وإنهاء القتال في أقرب فرصة ﴿...فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾[٣٣].

أمّا التوراة المحرّفة فقد ركّزت على احتلال الأراضي والسيطرة على الأموال والخيرات، والتوسّع في الأرض.

ورد في كتاب الخروج ٢٣ ص١٠٣ تحت عنوان «وعد الله بحماية شعبه»: «واجعل تخومك تمتد من البحر الأحمر إلى ساحل فلسطين، ومن البريّة حتى نهر الفرات، وأخضع لك سكّان الأرض فتطردهم من أمامك».

وتنسب التوراة هذه الإرشادات والأوامر إلى الله تعالى، كما ورد في كتاب العدد ١٣ ص١٩١. «قال الربّ لموسى: أرسل جواسيس إلى أرض كنعان التي أنا واهبها لبني إسرائيل... وعندما أطلقهم موسى قال لهم: ... استكشفوا البلاد وأوضاعها... ما هي طبيعة الأرض الساكن فيها؟ أصالحة هي أم رديئة؟... أخصبة أم قاحلة؟ أفيها شجر أم جرداء؟ تشجّعوا وأحضروا عيّنة من ثمر الأرض، وكان الموسم عندئذٍ موسم باكورات العنب».

والنص الآتي يبيّن حقيقة الإسرائيليين، إذ يشير إلى أنّهم هاجموا قوماً مطمئنين مسالمين من أجل السيطرة على أراضيهم، كما ورد في كتاب القضاة ١٨ ص٣٣٧: «شرع أبناء دان يبحثون عن مكان يستوطنون فيه؛ لأنّهم لم يكونوا قد ورثوا نصيبهم من الأرض... فأرسل الدانيّون خمسة رجال من سبطهم...

(٣٢) سورة الممتحنة: ٨.
(٣٣) سورة النساء: ٩٠.

لتجسّس الأرض واستكشافها... فعاد الرجال الخمسة إلى قومهم... فأجابوهم: هيا بنا نهجم على أهل لايش فأرضهم خصيبة... فأنتم عندما تقدّمون عليها ستجدون قوماً مطمئنين في أرض شاسعة، إنّ الربّ قد وهبها لكم وهي أرض خصيبة لا تفتقر إلى شيء... فوجدوا شعبها آمناً مطمئناً مسالماً فهاجموها وقتلوا أهلها بحدّ السيف وأحرقوها».

وقد بلغت روح العدوان أقصاها حينما ربطت النصوص المحرّفة حرمان القوم من مدنهم من قبل الله تعالى الذي استجاب لنذر بني إسرائيل، كما ورد في كتاب العدد ٢١ ص٢٠٣.

«نذر الإسرائيليون للربّ نذراً قائلين: إن أظفرتنا بهؤلاء القوم؛ لنحرمنّ مدنهم، فاستجاب الربّ لهم، وأظفرهم بالكنعانيين فحرموهم مدنهم، فدعي اسم المكان «حرمة».

وورد نص ينسب إلى الله تعالى في كتاب الخروج ٣٤ ص١١٩: «ها أنا أطرد الأمم من أمامكم وأوسع حدودكم، ولن يطمع أحد في أرضكم».

أخلاقية القتال وسماحة الإسلام

الإسلام دين الرّحمة والرأفة والسماحة؛ يهدف إلى هداية الناس أجمعين وانقاذهم من جميع ألوان الاضطهاد والعبودية ومن الانحراف والانحطاط، ويهدف إلى إقامة الحق والعدل، ولهذا فلا يقاتل حقداً أو عدواناً حتى على المعتدين، وهذا واضح من خلال تأكيد الإسلام إشاعة قيم العفو والرّحمة في

ميادين القتال، وتتجسد أخلاقية القتال في المظاهر التالية:

١ ـ إلقاء الحجة قبل القتال

مهما كانت دوافع القتال وأسبابه فهو محرّم قبل إلقاء الحجة على أعداء الإسلام، فقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك قائلاً: «يا عليّ لا تقاتل أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام وأيّم الله لأن يهدي الله عزّ وجلّ على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»(٣٤).

٢ ـ النهي عن قتل المستضعفين

نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قتل المستضعفين وكانت تعاليمه في القتال: «...ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة...»(٣٥).

وفي رواية: «فلا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً لا يطيق قتالكم»(٣٦).

وقال صلى الله عليه وآله: «لا تقتلوا أهل الصوامع»(٣٧).

فالإسلام لايرغب في القتال إلاّ اضطراراً ولا يستهدف إلاّ الهداية والإصلاح، ولذا حرّم قتل المستضعفين وان كانوا من الأعداء.

٣ ـ النهي عن إلقاء السم في بلاد المشركين

لم يكن هدف الإسلام من تشريع القتال الانتقام وإنّما هدفه الهداية أولاً ورد العدوان ثانياً، لذا حرّم استخدام أسلحة الدّمار الشامل، ومنها: إلقاء السم.

عن الإمام عليّ عليه السلام إنّه قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يلقى السم في بلاد المشركين»(٣٨).

(٣٤) الكافي، محمد بن يعقوب، الكليني: ج ٥، ص٣٦.
(٣٥) الكافي مصدر سابق: ج٥، ص٢٨.
(٣٦) مسند الإمام زيد، عبد العزيز البغدادي: ص٣١٣.
(٣٧) شرح نكت العبادات، جعفر بن أحمد: ص٣٩٨.
(٣٨) الكافي، مصدر سابق: ج٥، ص٢٨.

٤ ـ النهي عن الغدر والغلول والمُثلة والتخريب الاقتصادي

نهى الإسلام استخدام الوسائل الوضيعة حتى في قتال المعتدين، لأنه جاء رحمة للعالمين وليس انتقاماً، فمن وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله لأُمراء جيشه: «سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله صلى الله عليه وآله لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تقطعوا شجرة إلاّ أن تضطرّوا إليها...»(٣٩).

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «إن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوى الله عزّ وجلّ في خاصة نفسه، ثم في أصحابه عامة، ثم يقول: اغزُ باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا متبتّلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقوا زرعاً لأنكم لا تدرون لعلّكم تحتاجون إليه، ولا تعقروا من البهائم ما يؤكل لحمه، إلاّ ما لابد لكم من أكله...»(٤٠).

٥ ـ الاستجابة للاستجارة وطلب الأمان

من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية حقن الدّماء، ولهذا فقد أوجب الإسلام جميع الوسائل والمقدمات المؤدية إلى حقن الدّماء، ومنها: الاستجابة للاستجارة إن استجار المعتدي بالمسلم وطلب الأمان منه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(٤١).

ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله لأمراء جيشه: «... وأيّما رجل من

(٣٩) الكافي، مصدر سابق: ج٥، ص٦٣.
(٤٠) الكافي، مصدر سابق: ج٥، ص٢٩.
(٤١) سورة التوبة: ٦.

أدنى المسلمين وأفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلّام الله، فإذا سمع كلّام الله عزّ وجلّ فإن تبعكم فأخوكم في دينكم وإن أبى فاستعينوا بالله عليه وأبلغوه مأمنه»[٤٢].

والأمان هو الغاية في التعامل، وإن رفض المسلمون طلب الأمان لضرورة معيّنة وظنّ الأعداء أنهم استجابوا لهم كان ذلك الظن أماناً لهم؛ لأنّ هدف الإسلام هو حقن الدّماء في جميع الأحوال.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لو أنّ قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الأمان، فقالوا: لا، فظنوا أنّهم قالوا: نعم، فنزلوا إليهم، كانوا آمنين»[٤٣].

ومن أجل استشراء الأمان وإشاعته فإنّه لا يتوقف على أوامر قادة الجيش أو كبار الشخصيات فكلٌّ من استجاب للأمان تكون استجابته نافذة على جميع المسلمين، سواء كان المؤمن رجلاً أو امرأة أو عبداً مملوكاً؛ فلا يجوز للمسلمين قتل من أعطي الأمان[٤٤].

٦ ـ الوفاء بالعهد

أوجب الإسلام الوفاء بالعهد، فلا يجوز نقضه ما دام العدو ملتزماً به، وقد جسّد الإسلام بهذا الوجوب السماحة والسلام وحقن الدّماء، وأثبت للبشرية جمعاً أنّه لا يقاتل إلاّ دفاعاً عن المقدّسات وعن النفس ردعاً للعدوان.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حسن العهد من الإيمان»[٤٥].

(٤٢) الكافي، مصدر سابق: ج٥، ص٣٠.
(٤٣) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج١٥، ص ٦٨.
(٤٤) الهداية، المرغيناني: ج٢، ص١٣٩.
(٤٥) كنز العمال المتقي الهندي: ج١٢، ص١٣٢.

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «إن وقعت بينك وبين عدوّك قصة عقدت بها صلحاً وألبسته بها ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنّة بينك وبين ما أعطيت من عهدك»(٤٦).

وقال عليه السلام: «ما أيقن بالله من لم يرع عهوده وذمته»(٤٧).

وشدّد رسول الله صلى الله عليه وآله على حرمة قتل المعاهد، فقال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»(٤٨).

وحرّم صلى الله عليه وآله ظلم المعاهد أو تكليفه فوق طاقته، فقال: «من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه»(٤٩).

وحرّم صلى الله عليه وآله جميع مظاهر الأذى للمعاهدين: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»(٥٠).

٧ - حسن المعاملة مع الأسرى

أمر الإسلام بحسن المعاملة مع الأسرى وإن كانوا معتدين قبل الأسر انسجاماً مع غاياته وأهدافه في هداية الناس واعادتهم إلى الرشد، فلا يبيح الأذى وسوء المعاملة، فأسرى معركة بدر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بحسن المعاملة معهم، وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً»(٥١).

وحينما طلب أحد الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدلع لسان أحد المشركين الذين هجوا رسول الله صلى الله عليه وآله في مواضع عديدة؛ أجاب رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا أمثّل به فيمثّل الله بي وإن كنت نبيّاً»(٥٢).

وحسن المعاملة ثابت في جميع الظروف والأحوال، فلا يباح قتل الأسير من قبل أيّ مسلم باستثناء بعض الحالات التي يستحق بها القتل، وهذا الأمر مرجعه إلى إمام المسلمين وليس لآحاد المسلمين واجتهاداتهم الشخصية.

(٤٦) تصنيف غرر الحكم، الآمدي: ص ٢٥٢.

(٤٧) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٢٥٣.

(٤٨) صحيح البخاري، البخاري: ج ٥، ص ١٢٠.

(٤٩) سنن الأوزاعي، الأوزاعي: ص ٣٩٤

(٥٠) الجامع الكبير، السيوطي: ج ١، ص ٨٥

(٥١) السيرة النبوية، ابن هشام: ج ٢، ص ٢٩٩.

(٥٢) السيرة النبوية، ابن هشام: ج ٢، ص ٣٠٤.

قال الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «إذا أخذت أسيراً فعجز عن المشي وليس معك محمل فأرسله ولا تقتله، فإنك لا تدري ما حكم الإمام فيه»(٥٣).

ويجب إشباع حاجات الأسير من طعام وشراب وإن كان حكمه القتل لضرورة خاصة.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إطعام الأسير حقٌّ على من أسره، وإن كان يراد من الغد قتله، فإنّه ينبغي أن يُطعم ويُسقى ويُرفق به كافراً كان أو غيره»(٥٤).

٨ - الدُّعاء بالهداية لا الانتقام

إن المنهج الإسلامي منهج واقعي يطرق العقول والقلوب لتنفتح له مغاليقها وتتكشف المسالك والطرق الموصلة للهداية، فهو يريد للبشرية الصلاح والاستقامة لينقذها من ظلمات الوهم والخرافة وعبادة الإلهة المصطنعة، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحرص على الهداية لتتوجه العقول والقلوب إلى المنهج الإلهي وتتبناه عقيدة وشريعة، وتكفّ عن الضلالة وتتوقف عن العدوان، ولهذا لم يدع على المعتدين أو المعاندين بالانتقام أو البوار والهلاك انتقاماً لممارساتهم بحقّه وحق المسلمين، بل كان يدعو بهدايتهم.

ففي معركة أُحد وبعد أن شُجَّ رأسه وقُتل أصحابه وقُتل عمّه حمزة، قيل له: ألا تدعو عليهم؟ فقال: «اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون»(٥٥).

(٥٣) الكافي، مصدر سابق: ج ٥، ص ٣٥.
(٥٤) الكافي، مصدر سابق: ج ٥، ص ٣٥.
(٥٥) إعلام الورى بأعلام الهدى، الطبرسي: ص٩٢.

إرهاب التوراة المحرّفة

أمّا التوراة المحرّفة فإنّها تمنع من عقد معاهدات الصلح والتعايش السلمي، فهي تقرّ الصلح بشرط أن يكون مقدّمة لاستعباد الشعوب.

ورد في كتاب التثنية ٢٠ ص٢٥٥: «حين تتقدّمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أوّلاً، فإن أجابتكم إلى الصلح استسلمت لكم، فكلّ الشعب الساكن فيها يصبح عبيداً لكم».

فالصلح ليس إلاّ استسلاماً، بمعنى إن لم يستسلموا يقتلوا جميعاً كما ورد في نصوص لاحقة.

وقد ورد المنع من إقامة المعاهدات، كما ورد في كتاب الخروج ٢٣ ص١٠٣: «لا تبرم معهم ميثاقاً ولا تسكنهم في أرضك».

وورد في الكتاب نفسه الفقرة ٣٤ ص١١٩: «إياك أن تعقد معاهدة مع سكّان الأرض التي أنت ماضٍ إليها».

وعلى ضوء ذلك إنّ معاهدات السلام التي تبرمها إسرائيل في العصر الراهن إنّما هي معاهدات مرحلية؛ لأنّها مخالفة للروح العدوانية ومخالفة لتعاليمهم المحرّفة.

ودعت التوراة المحرّفة إلى القتل والإبادة الجماعية بمعنى عدم الإبقاء على أي أحد باستئصالهم وتصفيتهم.

وقد وردت تعاليم الإبادة وأوامرها منسوبة إلى الربّ تارة وإلى أنبياء بني إسرائيل تارة أُخرى، وإلى السيرة العملية لهم ولأتباعهم.

ورد في كتاب زكريا ١٢ ص١١٢٢: «وحي كلّمة الربّ بشأن إسرائيل... في ذلك اليوم أجعل عشائر يهوذا كمستوقد نار بين الحطب، أو كمشعل ملتهب بين أكداس الحنطة، فيلتهمون الشعوب من حولهم ممّن عن يمينهم وعن يسارهم... في ذلك اليوم أعمل على إهلاك جميع الشعوب الزاحفين على أورشليم».

وورد في كتاب التثنية ٢٠ ص٢٥٦: «أمّا مدن الشعوب التي يهبها الربّ إلهكم لكم ميراثاً فلا تستبقوا فيها نسمة حيّة، بل دمّروها عن بكرة أبيها... كما أمركم الربّ إلهكم».

عدد القتلى

إنّ المعارك التي قادها رسول الله صلى الله عليه وآله قد كانت معارك دفاعية ضدّ عدوان واقعي أو محتمل الوقوع، وكان صلى الله عليه وآله يتوقف عن القتال إن أدّى غرضه أو حقّق أهدافه، وكان يجنح إلى السلم إن طلبوا منه ذلك، ولذا فإنّ القتلى قليلون جدّاً؛ لأنّه صلى الله عليه وآله جاء للهداية والرّحمة والرأفة وليس للانتقام حتى من الذين آذوه وطردوه وقاتلوه، ففي معركة بدر كان عدد قتلى المشركين «سبعين رجلاً» من مجموع ألف مقاتل، وكان عدد القتلى في معركة أحد « اثنين وعشرين رجلاً»، وكان عددهم في معركة الأحزاب «قتيلاً واحداً» من مجموع عشرة آلاف مقاتل أمّا ما ورد من أنّه صلى الله عليه وآله قتل سبعمائة وخمسين من يهود بني قريظة بعد أن وافقوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم بقتل البالغين حتى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[٥٦].

(٥٦) السيرة النبوية، ابن هشام: ج٣، ص٢٥١.

فاعتقد أنّ هذه الرواية غير صحيحة للأسباب التالية:

١ ـ إنّ الله تعالى لا يحكم بقتل المستسلمين وإن كانوا ناكثي عهد.

٢ ـ إنّ القتل بهذه الكيفية مخالف لأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته التي تتميّز بالرّحمة والرأفة، ومنح الفرصة للإيمان بالإسلام.

٣ ـ يمكن لرسول الله صلى الله عليه وآله اختيار الموقف البديل وهو ترحيلهم، ومن ثم تهديدهم بالإبادة إن كرّروا غدرهم، كما رحّل بقية اليهود بطلب منهم.

٤ ـ إنّ الرواية ممّن انفرد بها ابن إسحاق، ولم تذكر في روايات أهل البيت عليهم السلام، وقد ذكرها ابن إسحاق عن طريق واحد وهو «عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقاص الليثي»، وهي غير متواترة، بل رواية راوٍ واحد مجهول من حيث التوثيق.

٥ ـ إنّ قتل المستسلمين يمنع الآخرين من الاستسلام، ممّا يفوّت الفرصة على المسلمين لحقن دمائهم أو الانتصار عليهم.

ولم يصدر أيّ نصّ قرآني أو نبوي يأمر بقتل الآلاف، أو يثبّت قتل الآلاف كما ورد في التوراة المحرّفة وعلى لسان الربّ أو على يد النبي.

ورد في كتاب ملوك الثاني ١٩ صفحة ٥١١، وينسب ذلك القتل إلى ملاك الربّ.

«وحدث في تلك الليلة أنّ ملاك الربّ قتل مائة وخمسة وثمانين ألفاً من جيش الآشوريين».

وورد في كتاب أخبار الأيام الأُولى ١٨ صفحة ٥٤٧:

«هزم داود الفلسطينيين وأخضعهم، واستولى على «جت» وضياعها منهم... وأسّر سبعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل... وعندما أسرع أراميو دمشق لنجدة ملك صوبة، قتل داود منهم إثنين وعشرين ألف رجل.

وقضى إبشاي على ثمانية عشر ألفاً من الأدوميين في وادي الملح».

فقد ورد: أن القتل كان من قِبَل النبي داود، وكذلك ورد في المصدر نفسه ١٩ صفحة ٥٤٨.

«جمع داود جيشه واجتاز نهر الأردن... ودارت بين الجيشين معركة ضارية تقهقر على أثرها الأراميون أمام هجمات الإسرائيليين، وقتل داود سبعة آلاف من قادة المركبات، وأربعين ألفاً من المشاة». وغير ذلك من النصوص أعرضنا عنها للاختصار.

الحرث والنسل

أكّدت الآيات القرآنية والتعاليم والأوامر النبوية الرّحمة والرأفة والمسامحة والعفو حتى مع المقاتلين إن أُسِروا أو طلبوا الأمان، وحرّمت قتل غير المعتدين وإن كانوا ينتمون إلى عقيدة أو دولة أو كيان المعتدين.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٥٧].

(٥٧) سورة الممتحنة: ٨.

وقد جسّد رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الأوامر الإلهية في سيرته وفي أوامره إلى قادة جيشه، فقد نهى عن قتل المستضعفين وعن التدمير الاقتصادي، كما تقدم.

هذه هي سماحة الإسلام ورحمته ورأفته أمّا إذا وجدت نصوص تخالف هذه السماحة والرّحمة، فهي نصوص محرّفة وموضوعة في ظروف الجهل وعدم الاطلاع من قبل غيرهم على تفاصيل الشريعة.

وورد في كتاب صموئيل الأوّل ١٥ صفحة ٣٧١:

«قال صموئيل لشاول: أنا الذي أرسلني الربّ لأنصّبك ملكاً على إسرائيل... فاذهب الآن وهاجم عماليق واقض على كلّ ماله، لا تعف عن أحد منهم بل اقتلهم جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً ورضعاً، بقراً وغنماً، جمالاً وحميراً».

فيشير هذا النص إلى قتل الحرث والنسل، أو ما يسمّى بسياسة الأرض المحروقة، ومما يحزُّ في النفس أنّه نصّ منسوب إلى الله تعالى أو من يرتبط به.

ويشير النصّ الآخر إلى أنّ موسى أبدى سخطه على قادة جيشه لأنهم لم يتّبعوا سياسة الأرض المحروقة، خلافاً للمتعارف بأنّ قادة الجيوش توصي بالرّحمة مع غير المقاتلين، فيقوم بعضهم بتصرّفات لا مركزية يقتل المدنيين، فيدّعي القائد أنّها تصرّفات شخصية، في وقت ينسب النصّ هذه الأوامر إلى موسى وكأنّ قتل المدنيين هو نصّ مقدّس فيه مرضاة الله، وإنّ قادة الجيش خالفوا هذه النصوص المقدّسة فابقوا المدنيين من أطفال ونساء أحياءً ولم يقتلوهم.

ورد في كتاب العدد ٣١ صفحة ٢١٨ ما يؤكد ذلك:

«فأرسلهم موسى... فحاربوا المديانيين كما أمر الربّ وقتلوا كلّ ذكر... وأسّر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وسائر أملاكهم، وأحرقوا مدنهم كلّها بمساكنها وحصونها... ورجعوا إلى موسى والعازار الكاهن وجماعة إسرائيل بالسبي والأسلاب والغنيمة...

فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش... وقال لهم: لماذا استحييتم النساء؟... فالآن اقتلوا كلّ ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضاً كلّ امرأة ضاجعت رجلاً، ولكن استحيوا لكم كلّ عذراء لم تضاجع رجلاً...».

العبيد والإماء

جاء الإسلام في أجواء جاهلية كثُر فيها العبيد والإماء، فتعامل معها كأمرٍ واقع، وسعى من خلال إرشاداته وتعاليمه إلى القضاء على هذه الظاهرة، فقد كانت الظروف تحتّم على المسلمين اعتبار رجال المشركين ونسائهم عبيداً وإماءً؛ لانقطاعهم عن جماعتهم أولاً، ولغرض حمايتهم وتوفير لقمة العيش لهم ثانياً، إضافة إلى اعتبارهم من سياسة المقابلة بالمثل مع عدم وجود طريق آخر، وقد كانت هذه الظاهرة محدودة جدّاً في عصر النصّ، ولم يحتفظ المسلمون إلاّ بقلّة قليلة من نساء أهل الكتاب، ولم تمتد هذه الظاهرة لتشمل النساء العربيات، فحينما هرب المشركون من معركة هوازن «كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله ستة آلاف من الذراري والنساء» فأطلقهم رسول الله[٥٨].

(٥٨) السيرة النبوية، ابن هشام: ج ٤، ص ١٣٢.

ومن يتابع حركة الإسلام يجد أنّ أغلب النساء منّ الله عليهن بالهداية فأسلمنّ.

وقد وضع القرآن الكريم منهجاً في القضاء على هذه الظاهرة كجزء من سياسته في تحرير الإنسان، وربط هذا التحرير بالمفاهيم والقيم المقدّسة من أجل القضاء عليها نهائياً، فقد أكّد وأوجب تحرير الرقاب وفي مقدّمتها رقاب المؤمنين والمؤمنات، وجعل التحرير كفارة من الذنوب كالقتل الخطأ، والإفطار المتعمّد، والظهار، وخصّص سهماً من الزكاة لتحرير الرّقاب، وجعل عتق الرّقبة مقدّمة للحصول على الجنان واقتحام العقبة كما ورد في آيات عديدة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[٥٩].

قال تعالى: ﴿... وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾[٦٠].

فالظاهرة هي ظاهرة استثنائية فرضتها الظروف، فينبغي عودتها إلى الأصل، وكما جاء في قول الإمام علي عليه السلام: «إنّ آدم لم يلد عبداً، ولا أمة، وإنّ الناس كلّهم أحرار»[٦١].

أمّا التوراة المحرّفة فإنّها تشجع على هذه الظاهرة، وتحاول جعلها أبدية، كما ورد في كتاب لاوين ٢٥ صفحة ١٦٤: «ليكن عبيدكم وإماؤكم من الشعوب التي حولكم، منها تقتنون عبيداً وإماءً، وكذلك من أبناء المستوطنين النازلين عندكم، فمنهم ومن عشائرهم الذين عندكم المولودين في أرضكم، تقتنون عبيداً لكم، وتورّثونهم لبنيكم من بعدكم ميراث ملك، فيكونون عبيداً لكم إلى الأبد».

(٥٩) سورة البلد: ١٣.
(٦٠) سورة البقرة: ١٧٧.
(٦١) الكافي، مصدر سابق: ج ٨ ص ٦٩.

وإذا رجعنا إلى النصّ السابق الذي يأمر بقتل النساء، يصبح اختصاص اقتناء العبيد والإماء عن طريق سلمي كالبيع، هذا إذا أحسنّا الظن بالنصوص، ولعلّ الاقتناء عن طريق الإكراه، والله العالم.

وفي جميع طرق الاقتناء فإنّ العبيد سيبقون عبيداً إلى الأبد، ولا يوجد ما يشير إلى العتق والتحرير وما شابه ذلك.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

(١) المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٣هـ.

(٣) البدري، سامي، دراسات في التاريخ الإسلامي، نشرة صادرة عن معهد الدراسات الإسلامية، ١٤٠٧هجرية .

(٤) الهندي، علاء الدّين عليّ المتقي، كنز العمّال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ط٥.

(٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٣٩٣ هجرية.

(٦) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار صعب، بيروت، ١٤٠١ هجرية، ط٤.

(٧) البغدادي، عبد العزيز، مسند الامام زيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣ هجرية.

(٨) جعفر بن أحمد بن أبي يحيى، شرح نكت العبادات: ٣٩٨، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، ١٤٠٨ هـ، ط٢.

(٩) المرغيناني، علي بن أبي بكر، الهداية، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٧٣ م .

(١٠) الصدوق، أبو جعفر، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٩٠ هجرية .

(١١) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٦ هجرية .

(١٢) الأوزاعي، عبد الرحمن بن عمر، سنن الأوزاعي: ٣٩٤، دار النفائس، بيروت، ١٤١٣هجرية، ط١.

(١٣) السيوطي، عبد الرحمن، الجامع الكبير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هجرية.

(١٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـجرية .

(١٥) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٣٥٥هجرية .

(١٦) الحاكم الحسكاني الحنفي، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٣هـجرية، ط١.

(١٧) النيسابوري، مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـجرية ط٢.

٩

خصائص وصفات المبلّغ والداعية في القرآن الكريم

السيد أيوب جواد الموسوي
باحث إسلامي

مقدمة

الدّين والتدّين ليس علاقة فرديّة بين الإنسان وخالقه فحسب، بل هو فعاليّة ونشاط وحركة في جميع الميادين، ميدان العقل والقلب والضمير والإرادة، وميدان السلوك والعلاقات الاجتماعية، وهو بعبارة أخرى العبودية لله تعالى بجميع ألوانها ومظاهرها إبتداءً بالإيمان الراسخ بالله تعالى وأداء العبادات المألوفة، والعبودية العملية بمراعاة حقوق الفرد والأسرة والناس، وتجسيد مبادئ وقيم الدّين في واقع سلوكي.

وبعد الإيمان يأتي تجسيد الأحكام والمبادئ والقيم والتكاليف الشرعية في النفس وفي الواقع العملي، بحيث يكون التدّين فكراً وعاطفة وسلوكاً.

ولهذا فمهمة ومسؤولية المتديّن أن يكون مبلّغاً وداعيةً للدّين بفكره وعقيدته، ولا يكتفي بالاعتقاد والشعور القلبي فحسب، بل لابد أن تتحوّل المناهج والأفكار إلى مشاعر وأخلاق وارتباطات، وان يتحقق العمل الايجابي الذي ينشأ عن المفاهيم والتصوّرات.

وهذه المسؤولية لا يستطيع القيام بها على أحسن وجه أو صورة إلا من اتّصف بمجموعة من الصفات والخصائص والمؤهلات الذاتية والعملية ليؤدِ مسؤوليته كاملة غير منقوصة في مجتمع متعدّد الأفكار والعواطف والأمزجة والممارسات والأخلاق.

وفي هذا البحث نتطرّق إلى صفات المبلّغ والداعية إلى الله تعالى وإلى دينه الحنيف.

الخصائص والصفات الذاتية

أولاً: العلم والمعرفة والكفاءة

العلم والمعرفة من القيم التي أشاد بها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وهي من خصائص وصفات الأنبياء والمرسلين والأئمة والأولياء، حتى جعلها الله تعالى ميزاناً للتفاضل.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[١].

فلا يوجد استواء أو مساواة بين العلماء وغير العلماء، فجميع المجتمعات والأقوام والتيارات تقدّم العلماء وأصحاب المعرفة على غيرهم، وقد فضّلهم الله تعالى في كتابه العزيز، فقال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢].

وللعلماء امتيازات دون غيرهم من الناس، كما وصفتهم الأحاديث الشريفة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الفقهاء أمناء الرُّسل»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المتقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة»[٤].

والعالم هو الهادي إلى الصراط السويّ، كما حكى القرآن الكريم على لسان نبيّ الله إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾[٥].

وفي قصة طالوت وجالوت ورد: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ

(١) سورة الزمر: ٩.
(٢) سورة المجادلة: ١١.
(٣) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي: ج١، ص ٢١٦.
(٤) بحار الأنوار، مصدر سابق :ج١، ص ١٦٦.
(٥) سورة مريم: ٤٣.

بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٦].

والعلم والمعرفة من أهم خصائص المبلّغ والداعية، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من كانت فيه ثلاث خصال: عالم بما يأمر، عالم بما ينهى، عادل فيما يأمر عادل فيما ينهى، رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى»[٧].

وقال عليه السلام: «إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك: إيّاك أن تفتي الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم»[٨].

(٦) سورة البقرة: ٢٤٧
(٧) تحف العقول، ابن شعبة الحرّاني: ص ٢٢٦.
(٨) الكافي، الشيخ الكليني: ج١، ص ٤٢.

المستوى الأدنى من العلم

الحدّ الأدنى من العلم أن يكون المبلّغ والداعية مطّلعاً إطلاعاً إجمالياً على ما يحتاجه لإصلاح نفسه وإصلاح الآخرين ومن ذلك:

١ ـ فهم آيات القرآن الكريم من خلال الاطّلاع على التفاسير المختصرة أو أحد التفاسير المطوّلة، كمختصر تفسير الميزان، أو تفسير الميزان، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وبعض موارد النزول، واطّلاع مجمل على السور والآيات المكيّة والمدنية.

وينبغي أن يحفظ مجموعة من السور القصيرة، ومجموعة من الآيات الكريمة التي يحتاجها في التبليغ.

٢ ـ فهم أصول العقيدة الإسلامية، كالتوحيد، والنبوة، والمعاد. وأصول المذهب، كالعدل، والإمامة على رأي بعض، وكذلك الاطّلاع على العقائد الأخرى، وما تثيره من شبهات عقائدية،

والقدرة على الإجابة عليها بأسلوب شيّق يقنع المراد تبليغهم بحيث لا تبقى الشبهة عالقة في أذهانهم.

٣ ـ اطّلاع مجمل على سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرة أهل البيت عليهم السلام وسيرة بعض الصحابة الموافقين والمخالفين لأهل البيت عليهم السلام، وعلى سيرة بعض الحكّام وأساليبهم، والأحداث والوقائع المهمّة التي حدثت في تاريخنا البعيد والقريب.

٤ ـ معرفة ما يحتاجه المبلّغ والداعية وما يحتاجه الناس من الأحكام الشرعية، وخصوصاً الأحكام الواقعة في طريق إبتلائهم، كمعرفة آيات الأحكام الواردة في القرآن الكريم، ورسالة المرجع الذي يأخذ بفتواه، والمراجع الآخرين المقلَّدين من قبل الناس.

٥ ـ الاطّلاع الإجمالي على بعض العلوم الحديثة لكي يشعر الناس بأن المبلّغ والداعية ليس مختصاً بعلوم الدِين، وخصوصاً أنّ البعض هم من خريجيّ المدارس الأكاديمية والجامعات.

المستويات العليا من العلم

المستويات العليا من العلم أن يكون المبلّغ والداعية مجتهداً أو محتاطاً أو قريباً منهما، بأن يكون ذا اطّلاع تفصيلي على ما يحتاجه الناس منه، بالاطّلاع على عدد كبير من التفاسير للقرآن الكريم وطبقاً لقواعد وأسس المذاهب الإسلامية المختلفة، ابتداءً بتفاسير أهل البيت عليهم السلام وبعض الصحابة وانتهاءً بالتفاسير الحديثة، والاطّلاع الكامل على تفاصيل العقيدة الإسلامية وأغلب تفاصيل العقائد الأخرى، والاطّلاع التفصيلي على سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وسيرة معاصريهم؛ بحيث يستطيع

ربط الحوادث والوقائع بعضها ببعض، ومتابعة الأسباب والعوامل البعيدة والقريبة لها، والتحليل الدقيق لها.

ومعرفة تفاصيل الأحكام الشرعية: الواجب، المحرّم، المستحب، المكروه، المباح، وعلى رأي المراجع المشهورين، بحيث يجيب كلّ إنسان بفتوى مرجعه، إضافة إلى الاطّلاع على بقية العلوم طلاعاً واسعاً بحيث يعكس صورة ناصعة عن المبلّغ والداعية في أذهان وأنظار المتعلّمين في حقول التعليم المختلفة.

وبعبارة أخرى أن يكون قادراً على الانتقاء من الأفكار والتنسيق بينها ليكون في مستوى الأصالة الفكرية والإبداع، وأن يكون قادراً على محاكمة الأفكار بمقاييس وموازين وثوابت الإسلام.

المعرفة بأحوال الناس

المعرفة بأحوال المجتمع وأفراده من حيث أفكارهم وعواطفهم وممارساتهم أمر ضروري لنجاح المسؤولية التبليغية، والتعرّف على نقاط الضعف والقوة في شخصياتهم، والتعرّف على أسلوب ووسيلة التأثير عليهم، وأن يكون مطّلعاً على الولاءات والانتماءات القومية والمذهبية، وعلى الأحداث والمواقف ليتخذ الأسلوب الأنجح في التأثير، وأن يلاحظ الفوارق المتعدّدة بين بيئة وأخرى، وبين جماعة وأخرى من حيث العادات والتقاليد ومن حيث مسائل الإبتلاء، والأهم من ذلك معرفة الأسلوب الأفضل لعلاج الأزمات والمشاكل التي تواجه الناس.

وأن يكون قادراً على تشخيص ما ينبغي أن يبلّغ به، والأسلوب الذي يتّبعه من حيث اللّين والشّدّة، والحيطة والحذر، ونوعية المواضيع المطروحة.

والمبلّغ والداعية الأكثر نجاحاً هو الأعرف بكلِ ما يحيط به، وبكلِ الأساليب والوسائل والمقوّمات الواقعة فيِ طريق نجاح المسؤولية التبليغية، ومن خصائصه وصفاته المعبّرة عن علمه ومعرفته وكفاءته:

١ ـ يميّز بين القضايا والأحداث والتيارات والأشخاص، فلا يختلط في ذهنه أمر بأمر.

٢ ـ يميّز بين الأفكار الصائبة والخاطئة.

٣ ـ يكشف الأخطاء والسلبيات والمعوّقات في بدايتها من حيث مقدّماتها ونتائجها المستقبلية.

٤ ـ يحدّد الأولويات والقضايا والأمور الأساسية.

٥ ـ يعرف القدرات والطاقات الكامنة والفعلية والانجازات المتحقّقة.

٦ ـ يعمل على التخلّص من الجمود والركود والتقوقع.

٧ ـ يعمل على تطوير الأساليب لملاءمتها لمختلف الأهداف والمراحل والظروف.

٨ ـ أن يكون واضحاً في إيصال الفكرة إلى المجتمع.

٩ ـ ينظر إلى حركة المجتمع من واقعه المتنامي والمتطوّر.

١٠ ـ يعطي القرار المناسب في الوقت المناسب.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح»[٩].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بُعداً»[١٠].

(٩) تحف العقول، مصدر سابق:ص ٣٣.
(١٠) الكافي، الشيخ الكليني :ج١، ص ٤٣.

ثانياً: القدوة

الناس ينظرون إلى المبلّغ والداعية نظرة ايجابية واقعية تنسجم مع مسؤوليته، فهم يرونه قدوة؛ نتيجة الارتكاز الذهني بأنّه يمثّل الدّين بما فيه من مفاهيم وقيم، بل يرونه لا يخطأ ولا يشتبه في أمور الدّين والأخلاق والسيرة، لأنّه يمثّل الأنبياء والأولياء والصالحين، فيمنحونه ثقتهم، وهذا ما نراه في الواقع، فإذا كان مجسّداً للمفاهيم والقيم والأخلاق التي يدعو إليها فإنهم سيتأثرون بها ويسعون إلى تجسيدها في واقعهم، وإذا لم يكن مجسّداً لها فإن مواعظه لا تؤثّر فيهم، ولهذا ذمّ القرآن الكريم من يخالف فعلُه قولَه ومن يأمر الناس وينسى نفسه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[11].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَـبَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[12].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[13].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[14].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[15].

ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن غفلة المبلّغ والداعية وعدم تجسيده للخير في مسيرته العملية، فقال: «لا تكونَنَّ ممّن يهدي

(١١) سورة الصف: ٢ ـ ٣.
(١٢) سورة البقرة: ٤٤.
(١٣) سورة الأحزاب: ٢١.
(١٤) سورة البقرة: ١٢٤.
(١٥) سورة الأنبياء: ٧٣.

الناس إلى الخير ويأمرهم بالخير وهو غافل عنه»[١٦].

وحثّ الإمام علي عليه السلام على تجسيد المفاهيم والقيم الصالحة في النفس والإرادة والسلوك العملي، والتخلّي عن المفاهيم والقيم الطالحة قبل دعوة الناس إليها أو نهيهم عنها، فقال: «ائتمروا بالمعروف وأمروا به، وتناهوا عن المنكر وانهوا عنه»[١٧].

وقال عليه السلام: «إحصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك»[١٨].

وقال عليه السلام: «إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ المطر عن الصفا»[١٩].

ولذا جعل الدعوة والتبليغ بالسلوك والعمل أفضل من الدعوة والتبليغ بالقول أو اللسان، فقال: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم؛ ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية»[٢٠].

وقد جسّد أهل البيت عليهم السلام دور القدوة في حركتهم الإصلاحية والتغييرية فأصبحوا مناراً للإنسانية جمعاء.

قال الإمام علي عليه السلام: «أيّها الناس، إنّي والله ما أحثّكم على طاعةٍ إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها»[٢١].

وحينما دعا الإمام الحسين عليه السلام إلى جهاد الحاكم الجائر، تقدّم بنفسه وأهل بيته وعياله، فكان قدوة لأصحابه في جميع قيم الإيثار والإخلاص لله والتضحية في سبيله.

ثالثاً: الإخلاص

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ

(١٦) مكارم الأخلاق، الفضل بن الحسن الطبرسي: ص ٤٥٧.
(١٧) تصنيف غرر الحكم، عبد الواحد الآمدي: ص ٣٣٢.
(١٨) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ١٠٦.
(١٩) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني: ج ١، ص ١٢٧.
(٢٠) الكافي، الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٧٨.
(٢١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ص ٢٥٠. الخطبة: ١٧٥.

الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٢٢].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾[٢٣].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾[٢٤].

﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾[٢٥].

ورد في التفسير: «إنّ (الدِّين) يتناول مجموعة شؤون الحياة المادية والمعنوية للإنسان، ويجب على عباد الله المخلصين أن يخلصوا كلّ حياتهم لله وأن يطهّروا قلوبهم وأرواحهم وساحة عملهم ودائرة حديثهم عن كلّ ما هو لغير الله، وأن يفكّروا به ويعشقوه، وأن يتحدّثوا عنه ويعملوا من أجله، وأن يسيروا دائماً في سبيل رضاه، وهذا هو إخلاص الدين»[٢٦].

والإخلاص يتركز في قوله تعالى: «في سبيل الله» التي وردت بكثرة في القرآن الكريم وفي جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية.

والإخلاص قوّة دافعة للعمل المتواصل الجاد، فمن يخلص لله تعالى فإن الله يسدّده وييسّر له سبل التكامل والسمو.

وله تأثيره العقلي والروحي على الآخرين المراد إصلاحهم وتغييرهم؛ لأنهم يشعرون بأن الداعية لايعمل من أجل مصلحة شخصية أو مكسب دنيوي فتزداد الثقة به ويكون لرأيه وقوله وسلوكه تأثير في الواقع العملي وعلى عقول وقلوب وإرادات ثم أخلاق وسيرة من المخاطبين.

ثالثاً: الشجاعة

قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا

(٢٢) سورة ص: ٢٦.
(٢٣) سورة الزمر: ٢.
(٢٤) سورة الزمر: ١١.
(٢٥) سورة الزمر: ١٤.
(٢٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: ج١٥، ص ١٢٤.

يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾[٢٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٢٩].

إنّ مواجهة الناس ومواجهة الأحداث والمواقف لتغييرها بالإسلام بحاجة إلى الشجاعة والإقدام؛ لأنّ المبلّغ والداعية سيواجه الجاهلين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويصطدم بالمنحرفين الذين يبغضون الصلاح والسمو الروحي والسلوكي، ويصطدم بمخططات ومؤامرات أعداء الإسلام أو التيارات الفكرية المنحرفة التي لا يروق لها انتشار مبادئ الإسلام في المجتمع، ويصطدم بالقوى الشرّيرة التي تقابله بالأذى، والتكذيب، والاستهزاء، ويصطدم بالمثبّطين له عن الانطلاق في التكليف أو الاستمرار به.

ولذا فهو بحاجة الى أن يتسلّح بالشجاعة وأن تكون إحدى خصائصه وصفاته؛ لينطلق دون خوفٍ أو وجلٍ أو ترددٍ أو تراجعٍ.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يحقّر أحدكم نفسه»، قالوا: يا رسول الله كيف يحقّر أحدنا نفسه؟، قال صلى الله عليه وآله: «يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عزّ وجلّ له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإيّاي كنت أحق أن تخشى»[٣٠].

والشجاعة لها دور كبير في التغيير؛ لأنّ الناس يتأثرون لا

(٢٧) سورة الأحزاب: ٣٩.
(٢٨) سورة التوبة: ٧٣
(٢٩) سورة الأحزاب: ١.
(٣٠) سنن ابن ماجة ،محمد بن يزيد القزويني: ج ٢، ص ١٣٢٨.

إراديـاً بالشجاع، ويكـون لـه تأثيـر لا شعـوري علـى سلـوكهـم وممارساتهم العملية كما أثبتت التجارب الاجتماعية.

والشجاعة ليست مقتصرة على مواجهة أصحاب الحول والطول والقوّة، بل تتعداها إلى مواجهة الأفكار والممارسات المنحرفة التي يرتكبها الناس، فلابدّ من المواجهة وإن كانت نتائجها معارضة لمصالح المبلّغ والداعية الشخصية، فلا تأخذه لومة لائم وإن أدّت إلى تشويه سمعته أو فقدان مكانته ووجاهته.

رابعاً: الزهد

الزهد أمر محبّب عند الله تعالى وعند أنبيائه وأوليائه، وهو من القيم الصالحة التي تجعل الإنسان حرّاً كريماً لا تستعبده الدنيا بما فيها من مغريات ونعيم مادّي.

والزهد كما عرّفه الإمام السجاد عليه السلام: «إنّ الزهد في آية من كتاب الله: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٣١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن الزاهد في الدنيا، فقال: «الذي يترك حلالها مخافة حسابه، ويترك حرامها مخافة عقابه»[٣٢].

ومن ثمار الزهد الراحة العظمى في الدنيا والآخرة، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «الراحة في الزهد»، «الزهد في الدنيا الراحة العظمى»، «إنكم إن زهدتم خلصتم من شقاء الدنيا وفزتم بدار البقاء»[٣٣].

وبالزهد يكتسب محبّة الناس، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «تحبّب إلى الناس بالزهد فيما بأيديهم تفز بالمحبّة منهم»[٣٤].

والمحبّة أمر ضروري في الحركة التبليغية، فبها يستطيع المبلّغ

(٣١) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني: ج٧، ص٣٦٢. سورة الحديد: ٢٣.

(٣٢) المحجة البيضاء، مصدر سابق: ج٧، ص ٣٦٢.

(٣٣) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص٢٧٦.

(٣٤) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٤٣٧.

والداعية التأثير في قلوب الناس وعلى عواطفهم ومشاعرهم فيميلون إليه وينجذبون إلى أحاديثه وإلى أفكاره ومفاهيمه وقيمه، فيؤثر على عقولهم ومن ثم إرادتهم، فيجعلها منسجمة مع مفاهيم وقيم وموازين الإسلام، وقد دلّت الدراسات والتجارب الميدانية على صحة ذلك، فالمبلّغ والداعية الزاهد أكثر تأثيراً على الناس وأقدر على إصلاحهم وتغييرهم.

أمّا الطمع، فإنّه آفة المبلّغ والداعية وهو يقوّض الحركة التبليغية ويعرقل الإصلاح، ومن آثاره السلبية فساد الورع والتقوى والذّل، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:«سبب فساد الورع الطمع»[٣٥].

فبالطمع يشعر الناس أن المبلّغ والداعية لم يكن يريد وجه الله تعالى، ولم يعمل من أجل المسؤولية الشرعية، وإنّما يعمل من أجل معيشته، وأنّه اتخذ التبليغ مهنة وحرفة، فلا يكون لكلامه تأثير في العقل والقلب والإرادة.

والطمع كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله: «الطمع يذهب الحكمة من قلوب العلماء»[٣٦].

وذهاب الحكمة يعنى ذهاب القدرة على استخدام الأساليب والوسائل المؤثرة في حركة الإصلاح والتربية والتغيير.

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»[٣٧].

والطمع يمنع من إبداء الآراء أو النهي عن بعض الممارسات التي تصطدم مع آراء وممارسات الآخرين الذين يطمع المبلّغ

(٣٥) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٢٧٢ ـ ٢٩٨.
(٣٦) كنز العمّال، علي المتقي الهندي: ج ٣ ،ص٤٩٥.
(٣٧) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٢٩٨.

والداعية بأموالهم خوفاً من عدم الحصول عليها، ويمنعه من التطرّق إلى كثير من المفاهيم والقيم الصالحة، والنهي عن المفاهيم والقيم غير الصالحة، كالزهد، والكرم، والإحسان والإيثار، والصدقة، والبخل، والطمع، والحرص، وحبّ الدنيا، وغير ذلك.

خامساً: الإحسان

الإحسان قيمة إسلامية أكّد عليها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وهي من الأوامر والاشادات التي حثّ عليها لتصبح عادة راسخة في حركة الإنسان المسلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ﴾[٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَيُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤٠].

والإحسان صفة ممدوحة يستطيع بها الإنسان أن يؤثّر على عواطف الآخرين ومن ثم عقولهم وسلوكهم؛ لأنّ النفس الإنسانية مجبولة على حب من أحسن إليها.

والإحسان يؤدي إلى كسب ودّ الآخرين وثقتهم، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «بالاحسان تملك القلوب»[٤١].

فالإحسان الذي يرافق المبلّغ والداعية يساعده في استهواء الآخرين وشدّهم إلى ما يمليه عليهم من أفكار وقيم، ومن نصائح وارشادات، ويدفعهم لمراجعة نفوسهم وسلوكهم، وإصلاحها حياءً أو قناعة في مقابل الإحسان إليهم.

فقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله أن يؤثّر على الكثيرين ويوجههم

(٣٨) سورة النحل: ٩٠.
(٣٩) سورة النحل: ١٢٨.
(٤٠) سورة التوبة: ١٢٠.
(٤١) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ٣٨٥ ـ ٣٨٨.

للانتماء إلى الإسلام بالإحسان إليهم، فقد أسلم مالك بن عوف كبير هوازن لإحسان رسول الله صلى الله عليه وآله إليه، وأسلم عدي بن حاتم وأخته بسبب الإحسان إليهم(٤٢).

والإحسان يؤثر في القلوب، وكما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها»(٤٣).

وتأثير الإحسان في القلوب غير مقيّد بانتماء المحسن أو فكره وعقيدته، وعلى ضوء ذلك فإنّ المحسن غير المسلم له تأثير على من أحسن إليه، ولذا يجب مبادرة المبلّغ والداعية والعلماء والأخيار إلى الإحسان للناس قبل أن يحسن إليهم أعداء الدّين فيؤثّرون على قلوبهم، ثم عقولهم، ثم سلوكهم.

سادساً: الإيثار

الإيثار من القيم الصالحة التي أكّدت عليها الارشادات القرآنية والسنّة الشريفة، وهو مرتبة أعلى من الإحسان والكرم، ولا يتسنى لأيّ أحد العمل به إلا من كان قد هذّب رغبته وشهواته وجعلها تصبّ في مفهوم الإخلاص للعقيدة.

وقد جاءت صفة الإيثار في القرآن الكريم في سياق جملة من الصفات المحمودة: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوْا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤٤).

وللإيثار دورٌ كبيرٌ في خلق الأجواء الروحية والنفسية لنمو

(٤٢) السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام :ج٤، ص ١٣٣.
(٤٣) تحف العقول، مصدر سابق: ص ٢٦.
(٤٤) سورة الحشر: ٩.

حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالناس ستنشدّ عواطفهم ومشاعرهم للمتصفين بهذه الصفة، وهذا الانشداد يمكن استثماره للتأثير على أفكارهم ومواقفهم العملية.

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «بالإيثار يُسترقّ الأحرار»(٤٥).

والتعبير بالاسترقاق له معنى عميق وهو تملّك المؤثر لمن آثره على نفسه، والتملّك هنا أعمق وأشمل من الاسترقاق البدني أو الاسترقاق الاضطراري، إذ يسترق الإنسان غيره بشرائه فيكون مضطراً لطاعته ولكنّه غير مندفع لها ذاتياً، بعكس الاسترقاق هنا، فهو نابع من الذات عن قناعة ورضى وقبول، فهو استرقاق للقلب ومن ثم العقل، وفي هذه الحالة يكون المبلّغ والداعية قادراً على توجيه الآخرين حسب ما يريد.

سابعاً: البشاشة وطلاقة الوجه ولين الكلام

البشاشة وطلاقة الوجه ولين الكلام تساعد على جذب الناس وامتلاك عواطفهم ومشاعرهم، وتوجيهها توجيهاً رسالياً؛ لأنّ الناس غالباً ما يتأثّرون بالأشخاص قبل التأثّر بالأفكار والقيم.

وفي ذلك قال إمامنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «طلاقة الوجه بالبشر والعطية وفعل البرّ وبذل التحية داعٍ إلى محبّة البريّة»(٤٦).

وهذه الصفات تعمّق علاقة الحبّ بين المبلّغ والداعية والمخاطب، والحبّ مقدّمة للتأثير على قلب الحبيب وامتلاك مشاعره، والحبّ يجعل الحبيب متعلّقاً ومنشدّاً إلى المحبوب ويحاول جاهداً إرضاءه والتقرّب إليه بما يحبّ، وبالتالي اتّباعه في فكره وسيرته ومحاولة محاكاته ومن ثم الاقتداء به.

(٤٥) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص٣٩٦.

(٤٦) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦.

الخصائص والصفات العملية والسلوكية

قال سبحانه وتعالى في سورة المدثر: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾(٤٧).

وقال سبحانه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(٤٨).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤٩).

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٥٠).

المبلغ مأمور بتهيئة العقول والقلوب لتلقي المنهج الإلهي الموضوع من قبل الله تعالى، واستتباعها بالحركة العملية الايجابية التي تترجم الآراء والنصوص إلى مشاعر وعواطف وأعمال وممارسات وعلاقات متجسّدة في الواقع، لكي يكون الإنسان والمجتمع بمستوى المسؤولية المكلّف بها، والمتمثلة بحمل الأمانة وخلافة الله تعالى في الأرض، والترقّي في سلّم الكمال والسمو الروحي والسلوكي.

وينبغي للمبلّغ أن يربّي نفسه ويمرّنها على جملة من الخصائص والصفات لتساعده على النجاح في إداء مهمته ومسؤوليته، ومن هذه الخصائص والصفات:

(٤٧) سورة المدثر: ١-٧.
(٤٨) سورة الأعراف: ٦٨.
(٤٩) سورة التوبة: ١٠٥.
(٥٠) سورة النحل: ٧٦.

أوّلاً: المداراة

قال سبحانه وتعالى :﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ * وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ *إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ * وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٥١).

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾(٥٢).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٥٣).

المبلّغ والداعية يؤدّي مسؤوليته في الواقع الاجتماعي، وفي ميدان الحياة الإنسانية، فيواجه أصنافاً من الناس يختلفون في طاقاتهم وامكاناتهم الفكرية والعاطفية والسلوكية، فلابدّ وأن يتّصف بالمداراة ليستطيع التأثير في أصناف الناس المنتمين إلى مدارس عقائدية وفكرية متنوّعة، والمتوزعين على ولاءات متعدّدة قبلية وقومية وطائفية وحزبية.

ومداراة الناس من أوليّات العمل في أوساطهم، كما أكّد رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك بقوله: «أمرني ربّي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»(٥٤).

«رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس في غير ترك الحق»(٥٥).

وتتمثّل المداراة بتكليم الناس على قدر عقولهم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله :«إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»(٥٦).

وأن يتحدّث بكلام مفهوم من قبل الجميع بلا حاجة إلى استخدام العبارات الغامضة، والمصطلحات غير الواضحة، قال

(٥١) سورة النحل: ١٢٥.
(٥٢) البقرة: ٨٣.
(٥٣) سورة آل عمران: ٦٤.
(٥٤) الكافي، الشيخ الكليني: ج ٢، ص ١١٧.
(٥٥) تحف العقول، ابن شعبة الحراني: ص ٢٩.
(٥٦) أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق: ص ٣٤١.

أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أحسن الكلام ما زانه حُسنُ النظام، وفهمه الخاص والعام»[٥٧].

ومن المداراة اختصار الكلام وعدم التطويل المؤدي إلى الملل، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الكلام كالدواء قليله ينفع وكثيره قاتل»[٥٨].

ثانياً: الرّفق

الإنسان غالباً ما يأنس بآرائه وأفكاره ومواقفه حتى تصبح جزءاً من كيانه، يرى فيها كرامته وكبرياءه، ولا يتنازل عنها أحياناً؛ لأنّه يرى في ذلك تنازلاً عن كرامته، ولهذا فالتعامل مع هكذا إنسان يجب أن يكون برفق وهدوء، لذا كان الرفق صفة وخاصة مستحسنة لدى المبلّغ والداعية.

وقد خاطب القرآن الكريم الأنبياء والمرسلين ودعاهم إلى التعامل برفق مع الناس.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...﴾[٥٩].

ومن مصاديق الرفق: القول الميسور واللّين.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾[٦٠].

وقال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٦١].

وللرفق آثار ايجابية على الناس، فهو عنوان سداد، ومفتاح الصواب، ورأس العلم، ودوام الصحبة، وغيرها من الآثار التي

(٥٧) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٢١٠.
(٥٨) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٢١١.
(٥٩) سورة آل عمران: ١٥٩.
(٦٠) سورة الإسراء: ٢٨.
(٦١) سورة طه: ٤٣، ٤٤.
(٦٢) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٢٤٣، ٢٤٤.

ذكرها الإمام علي عليه السلام: «من عامل بالرفق وفّق»[٦٢]. فبالرفق تتعمّق علاقات المحبّة والمودّة والألفة والأنس بين المبلّغ والداعية والمراد تبليغهم، وبهذه العلاقات يؤثّر المبلّغ والداعية على الناس بحيث يكون قادراً على ارشادهم وتوجيههم وتربيتهم.

وذكر الإمام جعفر الصادق عليه السلام آثار عدم الرفق في الدّعوة إلى الإسلام والإيغال في الدين في قصة المسلم وجاره الكافر، فبعد أن آمن بالإسلام اصطحبه إلى المسجد ليصلّي معه الفجر في جماعة فلمّا صلّى: «قال له: لو قعدنا نذكر الله عزّ وجلّ حتى تطلع الشمس فقعد معه، فقال له: لو تعلّمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليوم كان أفضل، فقعد معه، وصام حتى صلّى الظهر والعصر، فقال: لو صبرت حتى نصلي المغرب والعشاء الآخرة كان أفضل، فقعد معه حتى صلّى المغرب والعشاء الآخرة، ثم نهضا، وقد بلغ مجهوده وحمل عليه ما لا يطيق، فلمّا كان من الغد غدا عليه، وهو يريد به مثل ما صنع بالأمس فدقّ الباب، ثم قال له: اخرج حتى نذهب إلى المسجد، فأجابه: أن انصرف عنّي، فإنّ هذا دين شديد لا أُطيقه».

ثم قال عليه السلام: «فلا تخرقوا بهم أما علمت إنّ إمارة بني أُمية كانت بالسيف والعسف والجور، وإن إمارتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقيّة وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرغّبوا الناس في دينكم وفيما أنتم فيه»[٦٣].

ومن الرفق طرح المفاهيم والقيم الإسلامية بشكل شيّق وجذّاب، وبمرونة ويسر، فالإسلام واضح في عقيدته ومنهجه في الحياة فلا تعقيد ولا تعسير.

(٦٣) الخصال، الشيخ الصدوق: ج ٢، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

فينبغي التحدّث عن لطف الله تعالى ورأفته ورحمته وغفرانه أكثر من الحديث عن عقوبته وغضبه؛ لكي لا يدبّ اليأس والقنوط في نفوس المذنبين والعاصين.

ومن الرفق عدم الإشارة إلى أسماء المخالفين لمفاهيم الإسلام وقيمه، وعدم تشخيصهم أمام الناس، لمنحهم فرصة جديدة للاستقامة، فكان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يوضّح أخطاء البعض يقول: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا»(٦٤).

ثالثاً: مشاركة الناس في شؤونهم

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾(٦٥).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾(٦٦).

وقال عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾(٦٧).

إنّ ميدان المبلّغ والداعية وحركته هو المجتمع الذي يعيش فيه، فهو مسؤول عن ارشاده وتوجيهه ومن ثم إصلاحه، فلا يقتصر دوره على إلقاء الخطب والمحاضرات وتعليم الأحكام والموازين الشرعية، بل ينبغي أن يكون دوره دوراً فاعلاً في المجتمع وأن يتفاعل مع أفراده ويشاركهم في آمالهم وآلامهم، ويعيش معهم كواحد منهم يفرح لأفراحهم ويحزن لأحزانهم، وأن يشاركهم في أحاديثهم ينفذ منها لتوجيههم بما يتبنى من أفكار ومفاهيم إسلامية.

(٦٤) مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل: ج ٤، ص ١٢٦.
(٦٥) سورة الفرقان: ٧.
(٦٦) سورة الفرقان: ٢٠.
(٦٧) سورة الفرقان: ٢٠.

وأن لا يقتصر على المألوف في طريقة التبليغ بأن يرتقي المنبر لمدة ساعة أو أقل أو أكثر، بل ينبغي أن يبتكر الأساليب التبليغية الناجحة، بأن يكثف زياراته لهم في منازلهم أو مواقع عملهم أو أماكن استراحتهم وخصوصاً الشباب، فيلتقي معهم في حقولهم ومزارعهم ومعاملهم أو في مواقع قضاء وقت الفراغ، كالملعب الرياضي، أو المسبح، أو النهر، ومن ثم يؤدي دوره ومسؤوليته بلا تكلّف ولا روتين اعتادوا عليه، وبهذه المشاركة يؤثر على عواطفهم وأفكارهم.

وينبغي عدم الانقطاع عنهم وعن مشاركتهم في مختلف أمورهم.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعود المرضى، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك[٦٨].

وكان يعطي كلاً من جلسائه نصيبه، حتى لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم عليه منه. وكان يضحك ممّا يضحكون ويتعجب مما يتعجبون[٦٩].

ومن مصاديق المشاركة استخدام اسلوب المزاح، ولكن بحقّ وعدم تجاوز الحدّ المعقول، وكذلك تحويل المزاح إلى وسيلة للتربية والإصلاح باختيار المزاح الرسالي والانطلاق منه إلى تبيان أحكام الإسلام العقائدية والتشريعية والأخلاقية.

رابعاً: التواضع

التواضع صفة محمودة وهي من مكارم الأخلاق، فلابدّ للمبلّغ أن يتصف بها كمؤمن أولاً وكمسؤول عن تبليغ الرسالة، وهي تجسيد للاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله الذي خوطب بهذه الآيات الكريمة: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧٠].

(٦٨) مكارم الأخلاق، الطبرسي:ص ١٥.
(٦٩) مكارم الأخلاق، الشيخ الطبرسي: ص ١٤.
(٧٠) سورة الشعراء: ٢١٥.

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ وَمَا مِن حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٧١).

وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه «يبدأ من لقيه بالسلام، وكان يأكل على الأرض، وكان إذا دعاه رجل، فقال: يا رسول الله، قال: لبيك، وإذا قال: يا أبا القاسم، قال: يا أبا القاسم، وإذا قال: يا محمد، قال: يا محمد، وإذا أخذ الرجل بيده لم ينزعها منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها»(٧٢).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يختار له مكاناً خاصاً ليتميّز به عن غيره، كأن يكون صدر المجلس، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حيث يدخل»(٧٣).

وجاءه رجل في حاجة، فلما قام بين يديه أخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: «هوّن عليك فإنّي لست بملك ولا جبّار، وانّما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القّديد بمكّة»(٧٤).

وبهذا التواضع أزال جميع الحواجز النفسية التي تفصل المبلّغ والداعية عن سائر الناس، فكان منفتحاً مع الناس فلا يجدون حرجاً في التحدّث معه وتبيان وجهات نظرهم في مختلف الأمور حتى وصل ببعضهم الحل أن يعترف بذنوبه طلباً للإصلاح وطلب التوبة.

وقد كان الإمام علي عليه السلام كرسول الله صلى الله عليه وآله متواضعاً، وقد وصفه صعصعة بن صوحان قائلاً: «كان فينا كأحدنا ليّن جانب،

(٧١) سورة الأنعام: ٥٢.
(٧٢) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج ٢، ص١١٦.
(٧٣) مكارم الأخلاق، الشيخ الطبرسي: ص٢٦.
(٧٤) السيرة النبوية ، أحمد زيني دحلان: ج ٢، ص ٣٦٠.

وشدّة تواضع، وسهولة قياد، وكنّا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه»[٧٥].

فالواجب على المبلّغ والداعية أن يقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام، فبتواضعهم استطاعوا إصلاح الواقع وتغييره بالإسلام، حيث يشعر الناس إنّ المبلّغ والداعية لا يريد التكبّر عليهم تحت ذريعة ارشادهم وتوجيههم، ومن التواضع أن لا يتحوّل المبلّغ والداعية إلى محاسب يحاسب الناس على جميع ما يصدر منهم من قولٍ أو فعلٍ، بل ينبغي ارشادهم وتوجيههم.

خامساً: الصبر والحلم

إنّ طريق الدعوة والاصلاح والتغيير طريق طويل مليء بالمعوّقات والعراقيل، فلابدّ وأن يتحلّى من تبنّاه بصفة الصبر، ولا بدّ وأن يتحمّل التكاليف المترتبة عليه، وأن يصبر على ردود الأفعال الاجتماعية والدوافع النفسية التي تدعوه إلى الراحة والهدوء.

وينبغي أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر صابراً على طول الطريق، رغم كثرة المعوّقات والمثبطات؛ يصبر على التكذيب، والاستهزاء، والأذى المادي والمعنوي، ويصبر أمام ضغط النفس التي تروم حب الراحة والسكينة، وأن يصبر على الوحشة في حالة فقدان الناصر والمعين.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزمِ الأُمُورِ﴾[٧٧].

ولابدّ من صبر على الشدائد المحيطة بالمصلح والمغيّر، فقد

(٧٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج١، ص ٢٥.
(٧٦) سورة المزمل: ١٠.
(٧٧) سورة لقمان: ١٧.

حدّد رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الشدائد بقوله: «المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان يضله، ونفس تنازعه»(٧٨).

كما أن عليه التصبّر والاستمرار في حركته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٧٩).

وينبغي هنا أن يكون الصابر حليماً حتى ينال احترام وتقدير الآخرين، ويملك قلوبهم بحلمه.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «بالحلم تكثر الأنصار»(٨٠).

والصبر هو أهم وسائل الاستمرار فى الدّعوة، فقد صبر الرسول صلى الله عليه وآله ثلاثة عشر عاماً على التكذيب والاستهزاء والأذى، وصبر على المغريات والمساومات، وصبر على أذى أهل الكتاب وأذى المنافقين، وأذى أصحابه في العهد المدني، وصبر أمير المؤمنين عليه السلام على إزاحته عن منصبه، وصبر الإمام الحسين عليه السلام في حركته حتى أنّه قدّم أولاده وأهل بيته صابراً محتسباً من أجل إعلاء كلمة الله تعالى.

ومن أهم مظاهر هذا الصبر:

١ ـ الصبر على شهوات ورغبات النفس التي تدعوه إلى الراحة وترك المسؤولية.

٢ ـ الصبر على كثرة المنحرفين الذين لا يرومون الإصلاح والتغيير.

٣ ـ الصبر على وساوس الشيطان.

٤ ـ الصبر على التكذيب والاستهزاء والأذى، وخصوصاً عند وجود أعداء للدّين والمذهب.

٥ ـ الصبر على قلّة المؤازرين أو ضعفهم.

(٧٨) المحجة البيضاء، مصدر سابق: ج ٥، ص ١١٥.

(٧٩) سورة آل عمران: ٢٠٠.

(٨٠) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٢٨٧.

٦ ـ الصبر على ما يرافق العمل التبليغي من ملل، أو سأم، أو يأس، أو وحشة.

٧ ـ الصبر على التبطّر والغرور عند النجاح النسبي.

٨ ـ الصبر على ضعف الامكانات المادّية وعلى الفقر.

سادساً: عدم الانشغال في أمور هامشيّة

من الخصائص التي ينبغي أن يعتمدها المبلّغ والداعية هي الاستمرار في أداء التكليف والمسؤولية، وعدم الانشغال بأمور هامشية تقضي على الوقت وتصرف العمل عن هدفه، وتحرفه عن مساره، وهو مدعو مع هذا للإعراض عن الأشخاص والمواقف التي تشغله عن أداء الواجب، قال تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(٨١).

والإعراض هو: الترك والاهمال، وعدم الدخول في جدال يضيع معه الوقت والجهد دون أن يحقق شيئاً في طريق الواجب.

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(٨٢).

ونهت الارشادات والتعاليم الشريفة عن المراء والجدال غير النافع.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ذروا المراء لقلّة خيره، ذروا المراء فإنّه نفعه قليل وإنّه يهيّج العداوة بين الإخوان»(٨٣).

ونهى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الدخول في الخصومات، والمراء فقال: «المخاصمة تبدي سفه الرجل ولا تزيد في حقّه»(٨٤).

وللخصومة آثار سلبية أشار إليها الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله:

(٨١) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٨٢) سورة الأنعام: ٦٨.

(٨٣) المحجة البيضاء، مصدر سابق: ج ٣، ص ٣٢٩.

(٨٤) تصنيف غرر الحكم، مصدر سابق: ص ٤٦١.

«إياكم والخصومة في الدّين، فإنّها تشغل القلب عن ذكر الله عزّ وجلّ، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن، وتستجيز الكذب»(٨٥).

والانشغال بأمور هامشية تُبعد المبلّغ والداعية عن أداء المسؤولية وتشغله عن تحقيق الأهداف الكبرى، وتبدّد الطاقات، وتقتل الوقت بأمور ضارّة غير نافعة.

سابعاً: القدرة على التقييم

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٨٦).

التقييم الموضوعي للأشخاص والوجودات يساهم في إنجاح الأعمال والنشاطات المتعلّقة بمسؤولية التبليغ والدّعوة، فينبغي لمن تحمّل المسؤولية أن يقيّم الأشخاص على أُسس وموازين إسلامية من حيث درجة قربهم وبعدهم عن الإسلام فكراً أو سلوكاً، فلكلّ فردٍ تقييمه الخاص ليكون الموقف اتجاهه منسجماً مع شخصيته.

والتقييم الموضوعي الذي يصحبه التعامل الموضوعي يساهم في تشجيع المحسنين على الإحسان والعمل الصالح، ودفع المسيئين والمذنبين إلى العودة إلى الاستقامة.

قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن ذلك تزهيد لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريب لأهل الإساءة، فالزم كلاً منهم ما ألزم نفسه أدباً منك ينفعك الله به، وتنفع به أعوانك»(٨٧).

وينبغي أن يكون التقييم على أسس وموازين الدّين ومدى القرب والبعد عنه، وليس القرب والبعد عن شخصية المبلغ.

(٨٥) أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق: ص ٣٤٠.
(٨٦) سورة الشعراء: ١٨٢، ١٨٣.
(٨٧) تحف العقول، مصدر سابق: ص ٨٧.

والتقييم يستنهض الهمم ويحرّك العواطف ليبدأ الإنسان بالتخلّي عن أفكاره وأخلاقه السابقة والتوجّه الى إصلاحها، والتحوّل من سيء إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن.

وإذا كان المبلّغ والداعية يؤدي مسؤوليته في محيط اجتماعي متنوع الانتماءات والولاءات، فمن الأفضل أن لا يواجه التقييم السائد عند قادة وأتباع هذه الانتماءات والولاءات، وإنّما يطرح أسس وموازين التقييم الإسلامي دون تفنيد ما هو شائع، ويحوّل هذه الأسس إلى حقيقة حركية عن طريق سيرته العملية، وسيرة من تأثر بالأفكار والمفاهيم والقيم التي يدعوهم إليها.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٢- الأمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠١هـ.

٣- الحرّاني، الحسن بن علي بن شعبة، تحف العقول، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٠هـ.

٤- أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤١٤هـ.

٥- الصدوق، محمد بن علي، أمالي الصدوق، مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٧هـ.

٦- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار صعب، بيروت، ١٤٠١ هـ، ط ٤.

٧- الشريف الرضي، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، بيروت، ١٣٨٧هـ.

٨- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مكتبة الصادق عليه السلام، قم، ١٤٣٣ هـ.

٩- الصدوق، محمد بن علي، الخصال، مؤسسة النشر الإسلامي، جامعة المدرسين، قم ١٤٠٣هـ، ط ١.

١٠- النوري، حسين، مستدرك الوسائل، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٨٢ هـ.

١١- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٣٥٥هـ.

١٢- أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١٣- القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٤هـ.

١٤- عبد الحميد ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٣هـ

١٥- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٦- دحلان، أحمد زيني، السيرة النبوية - دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٧- ابن منظور، محمد بن مكرّم ، مختصر تاريخ دمشق، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٨- الهندي، علي المتقي، كنز العمال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٦٩ م.

١٩- الفيض الكاشاني، محسن، المحجة في تهذيب الأحياء، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط الثانية، المطبعة: مهر ـ قم ، الناشر: دفتر انتشارات إسلامي.

١٠

أثـرُ القرينة في تحديد المعنى القرآني

م. د. جاسم فريح دايخ الترابي
جامعة واسط / كلية التربية

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه المُعجز بالحق ليتدبّر آياته وليتذّكر أولو الألباب، وأودع في بواهر بيّناته ومناجم كنوز كلماته من أسرار حكمته ودلائل قدرته ما جعله المهيمن على كلِ كتابٍ، وأزكى صلواته وأسنى تحيّاته على سيّد رُسله وأنبيائهِ الصادع بالحكمةِ وفصل الخطابِ، وعلى آله المعصومين هُداة الخلق إلى جادة الصّواب.

وبعد، فالقرآنُ الكريمُ كتابُ الله المعجز، ورسالتُهُ الخالدة، وآيتُهُ الباقية، ودستورُ المسلمينَ الدَّائم، ثم هو تاجُ العربيةِ الأسنى، وَمَثَلُها البيانيُّ الأعلى، والمعجزةُ الخالدةُ التي بهرتْ ببلاغتِها وفصاحتِها كلَّ ناظر. ومن هذا المنطلقِ ارتأيتُ أنْ أبحثَ في موضوعٍ من موضوعات القرآن المهمة، وهو موضوعُ (**أثرُ القرينةِ في تحديدِ المعنى القرآني**)، وللقرينة أثرٌ في فهم معانيه، وثبج مساماته، ومن المتسالم عليه أنَّ كلَّ قضيةٍ بحثيّةٍ تحتاج إلى مُقدمات تأسيسيةٍ لتحديدِ المُصطلحات الأساسيةِ التي يتضمّنها العنوان، لذا لا بُدَّ من التّزوُّد منها بحصيلةٍ معرفيّة وافيّةٍ تُتيحُ السّير الواعي في مناكبها؛ ذلك بأنّ لكلّ فنٍ أو علم أبواباً مُوصدةً بوجهِ مَنْ يرومُ الولوج إلى ساحته والنّهل من معارفه من غير أنْ يُهيّئ المفاتيح اللازمة لذلك، وما المصطلحاتُ العلمية لذلك العلم أو الفن إلّا بمنزلةِ تلك المفاتيحِ التي لا بُدّ منها للعبور إلى الجانب الآخر.

القرينة:

عرّف الشَّريفُ الجرجانيُّ(ت ٨١٦هـ) القرينة فقال:(أمرٌ يشير إلى مطلوبٍ)[١]، ويشوب هذا التعريف معالم الإبهام، فالأمر غيرُ محدد لما يُراد منه، وإن أُريد بالدلالة الالتزامية ما يشيرُ إليه اللفظ والمعنى، وتابع محمد فريد وجدي فحوى هذا التعريف، فقال: (ما يدلُّ على المراد)[٢]، ولم يختلف أميلُ يعقوب عن هذا المرتكز، بقوله (كلُّ ما يدلُّ على المقصود)[٣]، ويستخلص من تلك التّعريفات أنَّ الدَّليل هو المعنى المقارب للقرينة، وهو دلالة لفظية معنوية، وتدخل في قيد (الدلالة اللفظية أو المعنوية التي تمحّض المدلول وتصرفه إلى المرادِ مع منع غيره من الدَّخول فيه)[٤].

وأول من استعمل مصطلح القرينة المذهب الكوفي فيما نقله عنهم الطّبري(ت ٣١٠هـ) في تفسيره لقوله تعالى:﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٥]، قال (وقال بعض نحويي الكوفة: معنى (أو) ومعنى الواو في هذا الموضع في المعنى، غير أنَّ القرينة على غير ذلك، لا تكون (أو) بمنزلة الواو ولكنها في الأمر المفوض، كما تقول: إنْ شئت فخذْ درهماً أو اثنين)[٦]، ولا يمكن القطعُ بنسبة المصطلح للكوفيين، فلعلّ المصطلح من تعبيرات الطبري، لكن المهم أنَّ إدراك المصطلح ومفهومه في تلك المرحلة المتقدمة، ثم استقر هذا المصطلح في كتابات اللغويين والأصوليين.

المعنى:

قال الفخر الرازي(ت ٦٠٦هـ) المعنى (اسم للصورة الذهنية للموجودات الخارجية؛ لأنَّ المعنى عبارة عن الشيء الذي عناه

(١) التعريفات: ٢٢٢.
(٢) دائرة معارف القرن العشرين: ٧/ ٧٧١.
(٣) موسوعة النحو الصرف والإعراب: ٥٢٢.
(٤) معجم المصطلحات النحوية والصرفية: ١٨٦.
(٥) سبأ ٢٤.
(٦) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٠ / ٣٠٤.

العاني وقصده القاصد)[٧]، وهذا المرتكز يقترب من كلمات بعض المحدثين، إذ عُرّف المعنى بالقول: (التصور الحاصل في الذهن، أو الفكرة التي يشكلها الوعي عن مظاهر الأشياء في العالم أو الواقع الخارجي المحيط به)[٨].

والقرينة قسمان: أ- القرائن المقاليّة ب- القرائن المقاميّة (الحالية)

أ- القرائن المقاليّة:

وهي المأخوذة من المقام لا من المقام. وهي: إما لفظية أو معنوية[٩].

أولاً: القرائن اللفظية:

وهي جملة من الأشكال اللفظية التي تحدد المعنى داخل السياق[١٠]. وهي أنواع:

١- (العلامة الإعرابية): تشكل العلامة الإعرابية مفصلاً مهماً في تحديد المعنى القرآني[١١] ومن الأمثلة على ذلك:

أ- لعلّ خيرَ شاهدٍ نستدلُّ به على فضل مكانة العلامة الإعرابية في هذا الجانب، قولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[١٢] فقد بدا بالإعراب فاعليّةُ العلماء، ومفعوليّةُ لفظ الجلالة. فالمعنى هو الذي يفرض رفع العلماء فاعلاً، ونصب اسم الجلالة مفعولاً؛ لأنَّ المراد حصر الخوف من الله في العلماء، لا حصر الخوف من العلماء[١٣].

ب- ومن قرأ ﴿**أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾[١٤] بالجر، فقد لحن؛ لأنَّ المعنى سيكونُ / أنَّ الله تبرأ من المشركين ومن رسوله.. والصَّحيح ورسوله بالرفع[١٥].

(٧) مفاتيح الغيب: ١ / ٢٣.
(٨) فلسفة المعنى في النقد العربي المعاصر: ١.
(٩) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٥٤.
(١٠) ينظر: علم الدلالة التطبيقي، د. هادي نهر: ٢٠.
(١١) ينظر: علم الدلالة التطبيقي: ٢٣٣.
(١٢) سورة فاطر ٢٨.
(١٣) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح: ١١٩- ١٢٠.
(١٤) سورة التوبة:٣.
(١٥) ينظر:نزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأنباري: ١٧.

ج- قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾(١٦)، برفع إبراهيم، ونصب لفظ الجلالة، وليس في ذلك إيماءةٌ إلى أنَّ المبتلِيَ (بكسر اللام) هو إبراهيم الخليل، والمبتلَى (بفتح اللام) هو الله سبحانه، فلا يصحُّ في الأذهان على وجه القطع أنْ يمتحن الخليل ربّه، إنَّما الممتحِن الحق هو المولى يمتحن عباده كيفما شاء.

د- ذكر أبو سعيد السيرافي(ت ٣٦٨هـ) تغيّر دلالة (كل) رفعاً ونصباً بإفادة العموم أو عدم الإفادة، وذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(١٧) إذ قال: (إنَّ في النّصب - ههنا- دلالةً على معنى لا يوجد ذلك المعنى في حالة الرفع وذلك أنّك إذا قلت: إنَّا كلَّ شيء خلقناه بقدر، فتقديره إنَّا خلقنا كل شيء بقدر، فهو يوجب العموم؛ لأنّه إذا قال: إنَّا خلقنا كلَّ شيء فقد عمَّ، وإذا رفع فقال: كلُّ شيء خلقناه بقدر، فليس فيه عموم؛ لأنّه يجوز أنْ تجعل (خلقناه) نعتاً ل(شيء) ويكون (بقدر) خبراً ل(كل)، ولا تكون فيه دلالة لفظه على خلق الأشياء كلها بل تكون فيه دلالة على أنَّ ما خلق منها،خلق بقدر)(١٨).

هـ- وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ووصَّى بها إبراهيمُ بنيهِ﴾(١٩)، فلو عطفت يعقوب على إبراهيم فيكون المعنى المراد - هنا- ووصى بها يعقوب بنيه أسوة بإبراهيم، أما اذا كان معطوفاً على بنيه فالمعنى يتغيّرُ، فالعطف على بنيه يقتضى كون ووصى بها إبراهيم بنيه ووصى بها يعقوب في جملة بنيه أيضاً.

٢- (الرُّتبة): وهي وصف لواقع الكلمات في التَّركيب. ويقصد بها الرُّتبة المحفوظة التي باختلالها يختل التركيب. كتقدم

(١٦) سورة البقرة ١٢٤.
(١٧) سورة القمر: ٤٩.
(١٨) شرح السيرافي: ٤/ ٣٢.
(١٩) سورة البقرة ١٣٢.

الموصوف على الصّفة، والمبدل منه على البدل والتّمييز على الفعل، فإذا تغيّرت الرّتب تغير المعنى.. مثال ذلك: جاء الخليفة سلمان، جاء سلمان الخليفة.. فهنالك فرقٌ في المعنى ظاهر.

فالرّتبة تحدد وظيفة موسى وعيسى في ضرب عيسى موسى لكون عيسى فاعلاً.

مما جاء في التّعبير القرآني قوله تعالى ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾[٢٠]، فجاءت رتبة الحال (خشعاً) متقدمة، والتّقدم في الرّتبة هنا لم يكن لمجرد الجواز، بل جاء ليؤكد المعنى، الذي يبتغيه التّعبير القرآني في تقديم رتبة (الحال)على صاحبها، فقرينةُ الرّتبةِ رجحتْ المعنى في تأكيد حاسة الإبصار؛ لأنَّها أولى الحواس تأثراً بالأمور، ف(ذلة الذليل وعزة العزيز تظهر في عيونهما)[٢١].

فالرّتبة من قرائن التي تعيّن المعنى، معتمدةً على وظيفتها النّحوية في داخل التركيب، ولقد استدلّ أبو حيان الأندلسيّ (ت ٧٤٥هـ) بقرينة الرُّتبة في توجيه قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٢٢]، وذلك في قوله: (إذ لم يجز ما ذهب إليه بعضهم من أنَّ الكلام يتم عند قوله (أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ) وأنَّ (حقّاً) متعلق بما بعده أي:(حقاً لهم درجات) وذلك لأنَّ (حقاً) مصدر مؤكّد لمضمون جملة (لهم درجات) فبل يجوز تقديمه عليه)[٢٣].

٣- (الصّيغة): وهو المبنى الصّرفي للأسماء والأفعال... ففي قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهّرِينَ﴾[٢٤]، التّواب

(٢٠) سورة القمر:٧.
(٢١) إعراب القرآن، النحاس: ٩٧٨.
(٢٢) سورة الأنفال ٤.
(٢٣) البحر المحيط: ٤/ ٤٥٥.
(٢٤) سورة البقرة ٢٢٢.

يختلف عن التّائب، ف(التوّاب) هو الذي تتكرر منه التَّوبة مرة بعد مرة، ووزنه الصّرفي (فعَّال)، وذلك أبلغُ من (التَّائب) الذي هو اسم فاعل من (تابَ يتوبُ فهو تائبٌ)؛ أي صدرت منه التّوبة مرةً واحدةً؛ فإذا قيل (توَّاب) كان صدور التّوبة منه مراراً كثيرةً.

وفي قوله تعالى:﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾[٢٥]. و(غفَّاراً) أبلغُ في المغفرة من (غَافِر)؛ لأنَّ (فعَّال) تدلُّ على كثرةِ صدورِ الفعل، وصيغة (فاعل) لا تدلُّ على الكثرة[٢٦].

٤- (المطابقة): قرينة لفظية توّثق الصّلة بين أجزاء التّركيب. المطابقة تكون بالتّذكير والتّأنيث. والإفراد والتّثنية والجمع.

وقد راعى التّعبير القرآني هذه الخصوصية، وإن كانت بعض الآيات القرآنية تُوحي بالمخالفة، ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾[٢٧]، فلفظ (نسوة) يخالف ظاهراً فعله (قال)، ولكن لفظ (نسوة) جمع تكسير للقلة كصبيةٍ وغلمةٍ، وليس له واحد من لفظه بل من معناه وهو (امرأة) وعلى كلٍ فتأنيثه غير حقيقي ولا التفات إلى كون ذلك المفرد مؤنثاً حقيقاً[٢٨].

ومن أمثلة مخالفة المطابقة، قال تعالى:﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[٢٩]، فقد أنَّثَ الخبر المفرد (بصيرة)، مع تذكير المبتدأ المفرد (الإنسان)، ويمكن الإجابة على هذا السّبب بأحد الوجوه الآتية:

الوجه الأولى: يرجعُ إلى الحمل على المعنى، فالبصيرةُ بمعنى شاهد، وهو شهود الجوارح، وهذا تفسير ابن عباس (ت ٦٨هـ)، فاللهُ تعالى يقول:﴿يَوْمَ تَشْهد عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣٠]، ويقول أيضاً: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ

(٢٥) سورة نوح ١٠.
(٢٦) ينظر: الصّرف التّعليمي والتّطبيق في القرآن الكريم، محمود سليمان ياقوت: ٣٧-٣٨.
(٢٧) سورة يوسف ٣٠.
(٢٨) روح المعاني الألوسي: ١٢/ ٣٣٩.
(٢٩) القيامة:١٤.
(٣٠) (النور:٢٤).

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣١].

الوجه الثاني: أو إنَّ الهاء دخلت للمبالغة، كقولنا: (زيدٌ علامةٌ).

الوجه الثالث: لما كان معناه حجة على نفسه؛ دخلت لتأنيث الحجة، ومن خلال هذا التّأويل تتم المطابقة بين المبتدأ والخبر تذكيراً وتأنيثاً.

ما ظاهره عدم المطابقة: ورد في بعض المواطن في القرآن الكريم ما ظاهره المخالفة بين المبتدأ والخبر، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[٣٢]، فقد أخبر عن المفرد المؤنث (امرأتي)، بمفرد مذكر (عاقر)، والقول في هذه الآية من وجهين:

الوجه الأول: إنَّ لفظ (عاقر) من الألفاظ التي يستوي فيها المذكرُ والمؤنثُ على حدٍ سواء، فنقول: (رجلٌ عاقرٌ)، و(امرأةٌ عاقرٌ).

الوجه الثاني: حملُ الآية على النّسب، فعاقرٌ أي ذاتُ عقر، ومعناه مفعول أي معقورة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٣٣]، فقد أخبر عن المفرد المؤنث (هي)، بمفرد مذكر (رميم)، ولم يقل (رميمة)، والقول في هذه الآية من وجهين:

الوجه الأول: إنَّ لفظ (رميم) على وزن فعيل، وهذا الوزن يستوي فيه المذكرُ والمؤنثُ، والمفردُ والمثنى والجمعُ.

الوجه الثاني: إنَّ لفظ (رميم) معدول عن (رميمة)، أي معدول عن (فاعلة)، وإنَّما قال رميم ولم يقل (رميمة)؛ لأنها معدولة عن

(٣١) (يّس:٦٥)

(٣٢) سورة آل عمران: ٤٠.

(٣٣) سورة يّس: ٧٨.

(فاعلة)، وما كان معدولاً عن وجهه ووزنه، كان مصروفاً عن إعرابه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[٣٤]، أسقط الهاءَ؛ لأنها مصروفةٌ عن باغية.

وكذلك قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾[٣٥]، فقال: (منفطر) ولم يقل: (منفطرة).

وللجواب على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: إنَّ لفظ (السَّماء) يذكر ويؤنث، يقول أبو زكريا الفراء(ت ٢٠٧هـ): وقوله عز وجلَّ: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾[٣٦]، بذلك اليوم، والسماء تُذكر وتؤنث، فهي ها هنا في وجه التذكير، قال الشاعر:

فَلَو رَفَعَ السَّمَاءُ إلَيهِ قَومَاً لَحقنا بالنُجُومِ مَعَ السَحَابِ[٣٧]

الوجه الثاني: إنَّ السماءَ بمعنى السقف، يقول جار الله الزمخشريُّ: أو على تأويل السماء بالسقف[٣٨].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[٣٩]، فقد اخبر عن الجمع المذكر (المشركون)، بمفرد مذكر (نجس)، ولم يقل (أنجاس) مثلاً.

والسّببَ في إفراد الخبر، راجعٌ إلى كون (نجس) مصدراً، والمصادرُ لا تُثنى ولا تجمع، بل هي مفردةٌ على كلِ حالٍ.

٥- (الرَّبط): هو قرينة لفظية تدلُّ على اتصال أحدِ المترابطين بالآخر، كما هو الحال بين المبتدأ والخبر. ويتم الرّبط بالضمير العائد نحو: عمرو أخلاقُهُ حسنةٌ .

ومن الأمثلة على ذلك ما يتعلق بحرف التعريف (ال) إذ إنَّ

(٣٤) سورة مريم ٢٨.
(٣٥) المزمل:١٨.
(٣٦) سورة المزمل ١٩.
(٣٧) معاني القرآن، الفراء ،٣/ ١٩٩.
(٣٨) الكشاف: ٣/ ٢٨٣.
(٣٩) التوبة:٢٨.

هذا يفيد الربط إذا كان للعهد الذكري، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[٤٠] فالألف واللام في كلمة (الصم) للعهد ولذلك صار معناها: المنذرون، فارتبط (الصم) بمفعول (أنذر) المتقدم وهو ضمير المخاطبين، ورأى أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ) أنَّ في الربط بالألف واللام هنا ما ليس في الربط بالضمير، قال: (و(الصمّ) هم المنذرون، ف(ال) فيه للعهد وناب الظاهر مناب المضمر؛ لأنَّ فيه التصريح بتصامّهم وسد أسماعهم إذا أنذروا، ولم يكن الضمير ليفيد هذا المعنى)[٤١].

وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ﴾[٤٢]، بعد أن نفى ابن عطية الغرناطي(ت ٥٤١هـ) أنْ يكونَ قوله (فلا صريخ لهم) مربوطاً بالمغرقين بل هو استئنافٌ وإخبار عن المسافرين في البحر ناجين كانوا أو مغرقين، أو قد يصح ربطه وليس هو الأحسن[٤٣]، في حين نجد أبا حيان يقول: (والفاء في (فلا صريخ لهم) تعلّق الجملة بما قبلها تعليقاً واضحاً، وترتبط به ربطاً لائحاً)[٤٤].

٦- (التضامّ): هو قرينة لفظية استلزام أحد العنصرين النحويين عنصر آخر: ففي قوله تعالى: ﴿وَسأَلِ القَرْيَةَ﴾[٤٥]، فالمضاف إليه يستلزم مضافاً محذوفاً يدلُّ عليه السياق، وهو (أهل)[٤٦].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾[٤٧]، إذ استدلّ بها ابن عطية الغرناطي(ت ٥٤١هـ) على كون (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) قسم والواو تقتضيه[٤٨]:

(٤٠) سورة الأنبياء ٤٥.
(٤١) البحر المحيط: ٦/ ٢٩٣.
(٤٢) سورة يس ٤٣.
(٤٣) المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز: ٤/ ٢٥٥.
(٤٤) البحر المحيط: ٧/ ٣٢٤.
(٤٥) سورة يوسف٨٢.
(٤٦) القرائن النحوية:٤٦.
(٤٧) سورة مريم ٧١.
(٤٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٤/٢٧.

وردّ أبو حيان هذا المرتكز، بقوله: (يلزم من ذلك حذف المجرور وإبقاء الجار، ولا يجوز ذلك إلا إنْ وقع في شعر أو نادر كلام، بشرط أنْ تقوم صفة المحذوف مقامه كما أولو في قولهم: نعم السير على بئس العير، أي على عيرٍ بئس العير... وهذه الآية ليست من هذا الضّرب إذ لم يحذف المقسم به وقامت صفته مقامه)[٤٩].

٧- (الأداة): لا يخفى أثر الأداة (الحرف) في تغيير المعنى. والأمثلة القرآنية كثيرة على أثر قرينة الأداة في تحديد المعنى القرآني، ومن ذلك إفادة لن، فمن المتسالم عند النحويين أنَّ (لن) حرف نفي ونصب واستقبال[٥٠]، خلافاً للزمخشري(ت ٥٣٨ هـ) الذي يرى أنّ (لن) تفيد تأبيد النفي[٥١]، واستثمر هذا المُعطى؛ ليثبت عقيدته المعتزلية في عدم رؤية الله عزّ وجل يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥٢] [٥٣].

٨- (التنغيم): وهو الإطار الصّوتي الذي تقال به الجملة. وهو له مساحةٌ واضحةٌ في النّص القرآني، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٥٤]، إذ يُحس السّامع بالرهبة في صدره حين سماعه (الدّال) المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة (تحيد) ولا يتملكنا الشّعور بتلك الرهبة مع لفظة أخرى مثل (تنحرف) أو (تبتعد) إذا ما جاءت بدلاً من لفظة (تحيد)[٥٥].

(٤٩) البحر المحيط:٦/ ١٩٧.
(٥٠) ينظر: شرح قطر الندى:١١٢
(٥١) ينظر: الأنموذج في النحو ٣٢.
(٥٢) الأعراف:١٤٣.
(٥٣) الكشاف: ٢/ ٢٣٢.
(٥٤) سورة ق ١٩.
(٥٥) ينظر مباحث في علوم القرآن: ٣٣٥.

ومن ذلك لفظة (يصطرخون) بجرسها الغليظ ترسم في الخيال صورة غلظ الصّراخ المختلط المنبعث من كل مكان، ومن حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة كما نستشف من النّسق الذي انتظمت فيه هذه اللفظة ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به وبذلك يكون جرس هذه اللفظة قد ساعد على إيصال صورة ذلك العذاب الغليظ الذي فيه يصطرخون[٥٦]. وأما القرائن المعنوية: (فهي علاقات سياقية تُفيد في تحديد المعنى النحوي)[٥٧].

أولاً: القرائن الأساسية:

* قرينة الإسناد: هي العلاقة الرابطة بين طرفي الإسناد، وتشمل علاقة الفعل بفاعله أو نائبه، وعلاقة المبتدأ بالخبر، ومن أمثلة استعمال هذه القرينة في إعراب قوله تعالى: ﴿يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٥٨]، إذ نعربُ (مَن) مفعول أولاً على الرغم من تأخرها و(الحكمة) مفعولاً ثانياً على الرغم من تقدّمها، ويكون ذلك بإدراك ما بينهما من علاقة شبيه بفكرة الإسناد، إذ نقول: إنَّ (مَن) هي الآخذ و(الحكمة) هي المأخوذة، والخلاصة أنَّ مراعاة (الآخذية) و(المأخوذية) ههنا هي الاعتبار الذي تمَّ بموجبه تحديد رتبة المفعولين، وهو اعتبار من قبيل قرينة الإسناد[٥٩].

* النسبة: وهي قرينة معنوية تجعل علاقة الإسناد نسبية[٦٠]. ومن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ

(٥٦) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ٧٣.
(٥٧) القرائن المعنوية في النحو العربي: ٣٤٤.
(٥٨) سورة البقرة ٢٦٩.
(٥٩) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها ١٩٤.
(٦٠) ينظر: القرائن النحوية ٢٣٣.

رَبَّكُمْ﴾[٦١]، قرينة نسبة على تعلّق الجار والمجرور (من آل فرعون) ب(رجل) على أنَّها في موضع الصفة له، فإنَّ قول بعضهم بأنَّ هذا الرجل كان إسرائيلياً وليس من آل فرعون على جعل (من آل فرعون) متعلقاً ب(يكتم إيمانه) فيه بعدٌ على حدِ تعبير أبي حيان[٦٢]، وهذا يدلُّ على أنَّه يرى صحة هذا التّعلق وعليه لم تقم عنده قرينة النّسبة، ولذلك ردَّ هذا القول بإيرادِه قرائن أخرى بدتْ له أنَّها تنفي علاقة النّسبة، وذلك أنَّه لم يكنْ لأحدٍ من بني إسرائيل أن يتجاسر عند فرعون بمثل ما تكلّم به هذا الرّجل (وهذه قرينة سياق غير لغوي)، وأنَّ الفعل (كتم) يتعدّى إلى فعله من دون حرف الجر، فلا يقال: كتمتُ من فلان كذا، إنَّما يقال: كتمت فلاناً كذا.

(٦١) سورة البقرة ٢٠٣.
(٦٢) ينظر: البحر المحيط: ١٢١/٢.
(٦٣) المائدة: ٥.
(٦٤) المجمل في اللغة: ٢٣٥.
(٦٥) الصحاح: ١٧٧/٢.

ثانياً: القرائن المساعدة

١- قرينة المعنى المعجمي:

من ذلك تحديد مفردة الطّعام في قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾[٦٣]. إذ ذهب الإمامية أنّ المقصود بالطعام هو البرُّ خاصة، وإنّ الطعام ليس مطلق المأكول، بل الحنطة كما يظهر من استعمالِ العربِ الشّائع المتداول، وفي اللغة أيضاً كذلك.

وفي «المجمل» (قال بعض أهل اللغة: الطعام البُرُّ خاصّة)[٦٤]، وذكر ابن فارس حديثاً يشهد على ذلك. وفي «الصّحاح» ربّما خُصّ اسم الطعام بالبرُّ، وكلُّ ما يؤكل[٦٥]. وفي «المغرب» الطعام

اسم لما يؤكل، وكلّ ما يؤكل، وقد غَلَبَ على البُرِّ[٦٦]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[٦٧]، إذ لا يمكن إعراب هذه الآية البتة من غير معرفة المعنى المعجمي لكلماتها؛ لأنَّه بإغفال هذا المعنى يكون تحديد معناها الوظيفي خاطئاً، فالتصور الأولي للإعراب هو: جنى: فعل ماض مبني على الفتح المقدر الذي منع من ظهورها التعذر.

الجنتين: مفعول به منصوب بالياء وعلامة نصبة الياء؛ لأنّه مثنى.

دان: فاعل مرفوع. وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة.

ولكن الإعراب الحقيقي هو أنَّ الجملة ليست جملة فعلية بالمرة؛ لأنَّ (جنى) مبتدأ، والجنتين مضاف إليه، و(دان) خبر[٦٨].

إذ إنَّ كلمة (جنى) ملبسة المعنى والصيغة. فهي قد تكون اسماً بمعنى ما يُجتنى من الشجر، والذهب، وقد تكون فعلاً من (جنى الثمرة) بمعنى التقطها، وقد يكون بمعنى (جنى عليه جناية) أي ادّعى عليه ذنباً لم يفعله، أو أذنب ذنباً يؤاخذ عليه[٦٩].

٢- القرينة الصوتية:

من المتسالم عليه وجود علاقة بين الصَّوت والمعنى ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٧٠]، إذ قُرئت بالضَّاد وبالظَّاء، فكلمة (ضنين) بالضاد من البخل، وعليه يكون المعنى أنّه لا يبخل بالوحي، ومن قرأ بالظاء ب(ظنين)، ففيه وجهان: الوجه الأول من الظنة وهي التّهمة أي: ما هو بمتهم، والوجه الثاني: قيل معناه بضعيف القوة على التَّبليغ من قولهم: بئر ظنون إذا كانت قليلة الماء[٧١].

(٦٦) المغرب: ٢٥٦.
(٦٧) سورة الرحمن ٥٤.
(٦٨) القرائن المعنوية في النحو العربي: ١٦٢.
(٦٩) ينظر: القرائن المعنوية في النحو العربي: ١٦٢.
(٧٠) التكوير ٢٤.
(٧١) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان الاندلسي: ٨/ ٣٩٧.

وذكر ابن جني في إيثار الهمزة على الياء في كلمتي (أز، الهز) في قوله تعالى﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾[٧٢]، ويعلل هذا الاختيار لقوة الهمزة قياساً مع الهاء، والهمزة في هذا السياق أعظم تأثيراً في النّفوس[٧٣].

وفُسّر بهذا التوجيه كذلك قوله تعالى ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[٧٤]، فالنضخ أقوى من النّضح، ويؤيد ذلك قول ابن جني(ت ٣٩٢هـ): (فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه[٧٥].

(٧٢) سورة مريم ٨٣.
(٧٣) الخصائص: ٢/ ١٤٦.
(٧٤) سورة الرحمن ٦٦.
(٧٥) الخصائص: ٢/ ١٥٨
(٧٦) العاديات ١.

ثالثاً: القرائن المقاميّة

وهي كما يظهر جليّا من الاسم تدرك من المقام أي من خارج النّصّ وهي نوعان:

أ- القرينة الماديّة:

وتتمثّل في الإطار الماديّ الذي حدث فيه الكلام من زمان ومكان وأشخاص وأحداث ويُشترط أن يكون السّامع حاضراً:

مثال: تقول «جاء الأسد» وأنت تخبر السّامع وقد أقبل عليكما شخصٌ معروف بشجاعته.

ومن ذلك في تفسير قوله تعالى﴿وَالْعَادِيَاتِ صبحاً﴾[٧٦] فسّر كبّار أهل التفسير (العاديات) بالخيل، جاء في الأثر أنَّ أحدهم ذهب إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو تحت سقاية زمزم. فسأله عن العاديات ضبحا فقال: سألت عنها أحدا قبلي؟ قال: نعم. سألت عنها ابن عباس. فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله. قال:

فاذهب فادعه لي. فلما وقف على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر، وما كانت معنا إلا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات الخيل؟ بل العاديات ضبحا الإبل من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى. قال ابن عباس: فرغبت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي عليه السلام(٧٧).

وإن كان سياق الآية بخلاف ذلك فالسياق يعطي أوصاف الفرس وسرعة عدوه والتي تصف الشرار المتطاير من تحت أقدامها بسبب اصطدام الحدوات بالحصى.

ب- القرينة الثقافيّة:

وهي جملة المعارف والتّجارب التي حصلت للفرد. ولمفهوم الثقافة كثير من المدلولات والحدود والمعاني، ولكن القرينة هنا كل ما للثقافة في تحديد المعنى القرآني وهي تشمل المرجعيات اللغوية والسياقات المعرفية، من ذلك استعمال الشعر في تحديد المعنى القرآني، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾(٧٨)، إذ بيّن الآلوسي أنَّ المراد من قوله تعالى: (وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً) هو لا تواعدهن نكاحاً، بل اكتفوا بما رخصّ لكم ثم قال: (وإرادة النكاح من السرّ بواسطة إرادة الوطء منه إذ قد تعارف إطلاقه عليه؛ لأنَّه يُسرّ، ومنه قول امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرتُ ولا يحسن السرّ أمثالي)(٧٩).

(٧٧) مجمع البيان ١٠/ ٢٣٣.
(٧٨) سورة البقرة ٢٣٥.
(٧٩) روح المعاني: ٢/ ٥٤٤.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١. إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد(ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، ط ١، عالم الكتب، بيروت- لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢. الأنموذج في النحو، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ)،ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ٢٠١٦م.

٣. البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، تحقيق: عادل أحمد الموجود، أحمد النجولي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١.

٤. دائرة معارف القرن العشرين، محمد وجدي فريد، ط ٣، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٩٧١م.

٥. دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٣٨٨هـ

٦. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، ١٩٥٤م.

٧. التعريفات، الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)،ط ١، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، ٢٠١٢م.

٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار الحديث، القاهرة مصر، ١٤١٨هـ.

٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

١٠. شرح كتاب سيبويه، لابي سعيد السيرافي (٣٦٨هـ)، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، ود. محمود فهمي، ود. محمد هاشم عبد الدائم،

الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

١١. الصحاح، لأبي نصر الجوهري (ت ٣٩٨هـ)، مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٢. الصرف التعليمي والتطبيق في القرآن الكريم، د. محمود سليمان ياقوت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١٣. علم الدلالة التطبيقي، د. هادي نهر، دار الصفاء، عمان - الأردن، ٢٠٠٨م.

١٤. فلسفة المعنى في النقد العربي العاصر، لواء عبد الله الفواز، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، ٢٠٠٠م.

١٥. القرائن المعنوية في النحو العربي، عبد الجبار توامّة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الجزائر، ١٩٩٣م.

١٦. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

١٧. اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسّان، مطابع الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - مصر، ١٩٧٣م.

١٨. مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ١٩٧٧م.

١٩. المجمل في اللغة، ابن فارس، دار الكتب العلمية،بيروت - لبنان، ٢٠١١م.

٢٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق المحاربي الاندلسي، المعروف بابن عطية الغرناطي، (ت ٥٤١هـ)، تحقيق، عبد السلام الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٣م.

٢١. مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي(ت ٦٠٦هـ)، دار

الفكر، بيروت- لبنان، ط ١٤٢٦،١هـ - ٢٠٠٥م.

٢٢. معاني القرآن، لأبي زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ) دار السلام، القاهرة، مصر، ١٤٢٢هـ.

٢٣. معجم المصطلحات النحوية والصرفية، د. محمد سمير نجيب، دار النفائس، بيروت- لبنان، ١٩٨٨م.

٢٤. موسوعة النحو والصرف والإعراب، د. أميل بديع يعقوب، ط٣، انتشارات استقلال، قم، إيران، ١٤٢٥هـ.